

المجلس الأعلى للثقافة



المجلس الأعلى للثقافة

الصحوة المصرية



فى عهد محمد على

إعداد وتقديم

محمد عبد الفتاح أبو الفضل



مقدمة

بعد أن استكملت سلسلة الـ «تأملات فى ثورات مصر» - انتهاءاً بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - بقيت هناك فترة هامة وطويلة من الزمان وهى فترة : عصر «محمد على» ، ساهم فيها الشعب المصرى بجميع فئاته وطبقاته وطوائفه بمساندة وتأييد زعاماته الروحية والوطنية ، بالاضطلاع بنصيب لايستهان به فى إحداث التغييرات والتحولات الشاملة فى كافة مجالات حياة المجتمع المصرى : سياسياً وعلميا واقتصاديا وعسكريا ، فكانت كل هذه التغيرات والتحولات على شكل «صحوة» للشعب المصرى ، أحسن «محمد على» التخطيط لها وتنفيذها ، حتى أصبحت هذه الفترة بمثابة ثورة لإنجاز تغييرات شاملة ، نقلت المجتمع المصرى من حالة التخلف والركود إلى أعلى مستويات التقدم والتحضر ..

ولذلك كان الهدف الأساسى من إعداد وتقديم هذا الكتاب هو تسجيل للتأملات فى هذه «الصحوة المصرية فى عصر محمد على» ، التى تعتبر - وبحق - بمقياس «ثورة تقدمية وحضارية» ، رغم أن هذه الثورة كانت معالمها قد بدأت فى الظهور منذ نهاية الاحتلال الفرنسى لمصر .



الفصل الأول

بذور الصحوة

بعد رحيل آخر فوج من قوات الحملة الفرنسية[١] من مصر يوم ١٨أكتوبر ١٨٠١ بفضل ثورة الشعب المصرى وتكاتف زعاماته الوطنية والدينية فى جميع أنحاء البلاد بالجهاد المتواصل على مدى ثلاث سنوات ، وكانت الشخصية المصرية المتميزة قد صقلتها التجارب المريرة من التعامل مع قوات الاحتلال الفرنسية ، فاكتسبت اليقظة حيث تمردت على كل محاولات وأساليب السيطرة والاستغلال التى تمارسها عليها أية عناصر حاكمة مهما كانت صبغتها .

وفجأة واجه الشعب المصرى عناصرا استغلالية سبق وتعامل معها من قبل الحملة الفرنسية ، ألا وهى زمرة المماليك والأتراك وعودة أمرائهما للساحة المصرية ، وكذلك كان الانجليز متربصين طامعين فى الأراضى المصرية ، ولكن فات ثلاثتهم معالم صحوة الشخصية المصرية من الاستكانة - فيما قبل الغزو الفرنسى - خاصة وأن هذه الصحوة كانت قد بدأت بمقاومة الغزو الفرنسى حيث عَوَّدَتْه الاعتماد على النفس ، فقد تكفل الشعب المصرى وزعاماته بالجهاد المتواصل لمقاومة هذا الغزو الأجنبى دون أى مجهود جاد - مدنى أو عسكرى - سواء من المماليك أو من الأتراك[٢] .

وامتزجت هذه الصحوة المصرية بمعالم الحضارة الغربية المتمثلة فى التفوق العلمى للعدو الفرنسى المنسحب ، خاصة بما قام به علماؤه من أبحاث ومجهودات علمية حاولت عناصر المقاومة المصرية محاكاتها[٣] أثناء مقاومتها لهذا العدو نفسه ، وذلك عندما قامت المقاومة الشعبية المصرية بإنشاء أول نواة للصناعات[٤] العسكرية ، وذلك بصناعة بعض أنواع الاسلحة النارية الحديثة وتصنيع ذخائرها واستخدمتهما فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية ضد الاستعمار الفرنسى .

(١) «تأملات في ثورات مصر» - (مقاومة الحملة الفرنسية) - للمؤلف ص ١٢٦ إلي ص ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٦ .

(٣) «الجبرتي» - الجزء ٣ - ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) المصدر السابق - ص ٣٩ .

ومما يؤسف له ، أن المؤرخين الغربيين وبعض الكتاب العرب المتعصبين للثقافة الغربية ينسبون أسباب هذه الصحوة المصرية بالكامل إلى الوجود الفرنسي ، علما بأن الفرنسيين عند انسحابهم ورحيلهم عن الأراضى المصرية ، كانوا قد اشترطوا مع الجانب الانجليزى والتركى على أن يكون الرحيل بكافة المعدات والاسلحة الفرنسية والمجمع العلمى الفرنسى بكامل أجهزته ومستنداته العلمية ، فلم يتركوا على أرض مصر أية مؤسسات أو مستندات علمية يمكن أن تؤدى إلى تنوير الشعب المصرى .

وكان من أبرز علامات الصحوة[1] الشعبية المصرية ، هى ما اكتسبه الشعب المصرى من معاصرة آخر ديوان أيام حكم «مينو» ، والذى كان باختصاصاته الجديدة التى وضعها الجانب الفرنسى ، أنه قد أصبح من حق[2] الشعب المصرى الشكوى أمام هيئة الديوان ، فكان ذلك بمثابة رقابة شعبية مصرية على أعمال السلطات المختلفة بما يحمل أثناء ممارستها حق التعبير عن المعاناة الشعبية المصرية .

الصحوة المصرية فى مواجهة الانجليز والآتراك

فى آخر مراحل الوجود الفرنسى فى مصر ، كانت قد وصلت إلى مصر قوات إنجليزية[3] وقوات تركية مشتركة بحجة طرد الفرنسيين وإجلائهم عن مصر ، وبموجب الاتفاقية المبرمة بين الانجليز والأتراك من جانب والفرنسيين على الجانب الآخر ، انسحبت قوات الغزو الفرنسية من مصر على ظهر السفن الانجليزية والتركية ، وكان موقف الانجليز احتلال قواتهم لمواقع استراتيجية هامة على شواطىء مصرية مطلة على البحرين الأحمر والأبيض ، بهدف ضمان السيادة الانجليزية على البحار التي تطل عليها مصر بل وعلى مصر كلها ، وكانت القوات الانجليزية بقيادة «هتشنسون» ، أما القوات التركية فقد كانت عبارة عن جيشين : الأول يتراوح تعداده ما بين ٢٥ إلى ٣٠

(١) «تأملات في ثورات مصر» – (مقاومة الحملة الفرنسية) – للمؤلف – ص ١٢٨ .

(٢) «تاريخ الحركة القومية ونظام الحكم في مصر» للاستاذ / الرافعي – جزء ١ – ص ٢١٢ ، ٢١٣

(٣) «تأملات في ثورات مصر» – (الحملة الفرنسية) – للمؤلف – ص ١٢٨ إلي ١٣٤ .

ألف جندي مقاتل تحت قيادة «الصدر الأعظم» ، وكان معظمه من الجنود[(١)] الانكشارية واتخذ مواقعه في القاهرة وفي بعض مدن الدلتا والصعيد ، أما الجيش الثاني فكان تحت قيادة «حسين قبطان باشا» قائد الأسطول العثماني وكان يرسو في خليج «أبي قير» وكان تعداده ٦٠٠٠ (ستة آلاف) مقاتل معظمهم من «الأرناؤوط» وبعض الانكشارية وقد احتلت هذه القوات مواقع قريبة من مرسى الأسطول ، وكان ضمن هذه القوات قوات بقيادة «محمد علي» التي جندها حاكم «قولة» وجعل على رأسها نجله ، وكان حاكم قولة «علي أغا» قد اتخذ من «محمد علي» معاونا له ، وكان «محمد علي» قد رقي وقتها في مصر إلى رتبة (البكباشي) ثم إلى رتبة (اللواء) حيث ظهرت مواهبه السياسية ووضح ذكاؤه بانحيازه للشعب المصري وزعمائه بأسلوب سياسي لم يعهده الحكم التركي ، حيث كان «محمد علي» قد عاصر القوات الانجليزية المتربصة بمصر لفرض سيادتها عليها ، وفي ذات الوقت كان «محمد علي» قد عاصر وراقب محاولة الأتراك العثمانيين والمماليك استعادة أطماعهم بفرض سيادتهم على مصر بعد رحيل الفرنسيين .

وكان «محمد علي» لما يتمتع به من لماحة وذكاء بالقدر الذي جعله يستغل قيادته وسيطرته علي جانب كبير وهام من القوات التركية والتلاعب بها انحيازاً إلى شعب مصر وزعاماته حيث اكتشف بذكائه الفطري أهمية هذا الانحياز بعد اتصاله عن قرب بزعماء الشعب المصري ووقف بنفسه على مدى الصحوة التي وصل إليها هذا الشعب وزعاماته بحيث أصبحت هذه الصحوة هي القوة المتفوقة والقادرة علي تحقيق السيادة الكاملة على بلادها رغم الأطماع التي كانت تحيط بالبلاد من كل إتجاه سواء كانوا فرنسيين أو مماليك أو أتراكا أو إنجليزا ، فمارس «محمد علي» بذكائه ووعيه مخططا لمواجهة هذه القوى المتصارعة ومحاولة كل منها فرض سيطرتها وسلطتها على مصر ، واعتمد «محمد علي» في تنفيذ مخططه - بالكامل - على الجانب الشعبي المصري وزعاماته .

موقف الصحوة المصرية من الانجليز

رغم أن المعاهدة التركية الانجليزية كانت تقضي فقط برحيل الفرنسيين عن مصر ، إلاَّ أن أحد شروطها كان يحقق للانجليز إمكان التلاعب بنصوص المعاهدة واكتسابهم

(١) «تاريخ الحركة القومية» - جزء ٢ - للاستاذ الرافعي ص ٢٥٨ ، ٢٥٩

حق بقاء القوات الانجليزية - بموجب النص على أن «الجيش الانجليزى لا يجلو عن مصر إلاَّ بعد أن يستتب الأمن فى ربوعها» ، وبموجب هذا النص المشروط فقد طال بقاء القوات الانجليزية حتى إبرام صلح «أميين»[1] (Amien) فى ٢٧ مارس ١٨٠٢ بين فرنسا وانجلترا وأسبانيا ، والذى كان ضمن شروطه ضرورة جلاء الانجليز عن مصر .

وتنبهت فرنسا لهذا الشرط ، فأصر «نابليون بونابرت» - انتقاما من الانجليز . على تنفيذ هذا الشرط ليحقق إجلاؤهم عن مصر ، فأوفد مندوبه الكولونيل «سباستيانى» إلى مصر للاتصال بالشعب المصرى ممثلا فى زعمائه ليحصل منهم على ما يثبت أن جلاء الانجليز عن مصر هو مطلب شعبى ، وبالفعل فعند وصول الكولونيل «سباستيانى» إلى مصر ، كان الشعب المصرى فى قمة اليقظة فكانت صحوته هى التى حركته فى شكل مظاهرة شعبية - ودية - تحمل معنى تأييد الشعب المصرى لفكرة ضرورة انسحاب الانجليز ورحيلهم عن أرض مصر ، بالاضافة إلى مباركة السلطات التركية فى مصر لهذه المظاهرة يهدف تخلصها هى الأخرى من الانجليز لتكون الساحة المصرية خالية للسيادة التركية وحدها ، وفى نفس الوقت كان الانجليز يعتمدون على التآمر مع المماليك المتربصين بمصر والمكروهين من الشعب المصرى وكان على رأسهم الأمير المملوكى «محمد الألفى» .

وبادر «نابليون بونابرت» بعد عودة مندوبه الكولونيل «سباستيانى» ، فطالب إنجلترا دوليا بالجلاء عن مصر مستندا إلى صحوة الرأى العام المصرى ، وبالفعل تم جلاء الانجليز عن مصر فى ديسمبر ١٨٠٢ ولم يتبق من العناصر المتربصة بمصر إلاَّ المماليك والأتراك .

موقف الصحوة المصرية من المماليك

بعد جلاء الانجليز عن مصر فى ديسمبر ١٨٠٢ ، تولى الأمير المملوكى «عثمان البرديسى» مشيخة البلد[2] وتحصن «محمد الألفى» مع أتباعه المماليك فى الجيزة ، واتخذ «عثمان البرديسى» سيرة أمراء المماليك فى نهب البلاد والشعب ، وكان القحط

(١) «تأملات في ثورات مصر» ، (مقاومة الحملة الفرنسية) - للمؤلف - ص ١٣١ .

(٢) «تأملات في ثورات مصر» - للمؤلف - ص ١٢٨ .

قد عم بالبلاد وقتها نتيجة نقص مياه النيل فى أغسطس ١٨٠٣ ، فقلت المحاصيل الزراعية وارتفعت الأسعار وتفشى الفساد الإدارى فى الوقت الذى كان الجنود الأتراك يضغطون على أمير البلاد - المملوكى - «عثمان البرديسى» يطالبونه برواتبهم[(١)] المتأخرة ، فانتهزها «محمد على» - قائد الأرناؤوط - فرصة له فأخذ يحرض الجنود الأتراك على المطالبة برواتبهم المتأخرة ، مما اضطر «البرديسى» - لتوفير هذه المبالغ مع خلو خزانة البلاد من الأموال - إلى فرض ضرائب جديدة فى مارس ١٨٠٤ على جميع الأهالى وعلى حائزى العقارات من ملاك ومستأجرين وعلى التجار ، فقام عمال الحكومة مستعينين بالجنود المماليك بجمع هذه الضرائب بأسلوب استبدادى[(٢)] واستفزازى دون رحمة رغم الضيق الاقتصادى والغلاء ونقص الخبز والمواد الضرورية من الأسواق .

ولما ضاقت الحال بالفقراء وعامة الشعب مع استمرار النهب والسلب والاستبداد ، ضج أفراد الشعب وأخذوا يظهرون تذمرهم فامتنعوا عن دفع هذه الضرائب الظالمة ، فاحتشدوا فى آخر مارس ١٨٠٤ فى الشوارع هاتفين (ايش تأخد يابرديسى من تفليسيى) ، وإتجهوا فى النهاية إلى الأزهر مستغيثين بالمشايخ وبالزعيم الشعبى السيد «عمر مكرم» ، وذهب هؤلاء للشفاعة لهم لدى شيخ البلد الأمير المملوكى «عثمان البرديسى» الذى راوغ ووعد بالتوقف عن جمع هذه الضرائب ولكنه سرعان ما تراجع بل تمادى فى أسلوب التعسف فى جمع هذه الضرائب ، فتجدد التذمر الشعبى حيث كانت قمة الصحوة الشعبية عندما توقف الشعب كله عن دفع هذه الضرائب وقام بالثورة حيث زادت الاضطرابات ، فانتهز «محمد على» - قائد الجنود الأرناؤوط - هذه الفرصة فعمل على التقرب من الثوار وزعاماتهم بعد أن تأكد له تماما مدى صحوة الشعب المتذمر وتوهج ثورته ، فنزل إلى الساحة متعاونا معهم مؤيدا لهم بعد أن أوعز إليهم بأن رواتب الجنود الأتراك ومنهم جنوده حق لهم لدى حاكم البلاد وأميرها المملوكى «البرديسى» فهو المسئول عن توفيرها لهم وليس الشعب المصرى هو المسئول

---

(١) «الجبرتي» - جزء ٣ - ص ٢٩٥ إلى ٢٩٩

(٢) «الجبرتي» - جزء ٣ - ص ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥

عن ذلك بفرض ضرائب إضافية عليه ، وأعلن «محمد على» تأييده للمطالب الشعبية وانضم بجنوده إلى صفوف الشعب ، ففرح الشعب المصرى وعبر عن إعجابه بهذا القائد التركى «محمد على» الذى استمر وتمادى هو الآخر فى التقرب والتودد إلى زعماء الشعب المصرى بعد أن تأكد له تماما مدى وجدية هذه الصحوة الشعبية عندما قام الزعماء من المشايخ وعلماء الأزهر باعلان قرارهم الثورى برفض وضرورة إلغاء هذه الضرائب والتوقف عن فرضها على الشعب المصرى ، وكان ذلك على شكل إعلان بالعصيان والتمرد.

فما كان من الأمير المملوكى «عثمان البرديسى» إلاَّ أن جمع جنوده واستعد للانتقام من الشعب المصرى فى محاولة لاخماد الثورة ، فلما شعر «محمد على» باستعداد المماليك بقيادة «البرديسى» للفتك بالثوار ، قام بجمع جنوده «الارناؤوط» وهاجم المماليك وحاصر مواقع تجمعاتهم فأسقط فى يد «البرديسى» وأعوانه الأمراء المماليك بعد أن وجدوا أنفسهم وجنودهم محاصرين بين أفراد الشعب الثائر وبين قوات الجنود «الأرناؤوط» بقيادة «محمد على» من جهة أخرى ، ففر المماليك وعلى رأسهم «البرديسى» من القاهرة إلى الصعيد حيث امتدت الثورة إلى الأقاليم فاستمروا فى فرارهم إلى جنوب مصر فى الوجه القبلى وكانوا فى طريقهم وفرارهم ينهبون القرى ويفرضون عليها الغرامات والاتاوات ، بينما تحصن «محمد الألفى» ونائبه «خورشيد» وأتباعهم من المماليك فى الجيزة ومكثوا بها إلى أن فر «البرديسى» والحكام المماليك من القاهرة وعواصم الأقاليم فى مارس ١٨٠٤ وتم إبطال فرض الضرائب ، وزالت دولة المماليك تقريبا من عاصمة مصر «القاهرة».

الصحوة ضد الأتراك

سارع الأتراك بعد انسحاب الفرنسيين من مصر فى أكتوبر ١٨٠١ باعادة فرض سيطرتهم على مصر خاصة بعد رحيل الانجليز فى ديسمبر ١٨٠٢ ، حيث تم انسحاب الفرنسيين والانجليز عن مصر طبقا لاتفاقية صلح أميين (Amien) التى أبرمت فى ٢٧ مارس ١٨٠٢ .

كان «خسرو باشا» هو أول والى عثمانى يعين واليا على مصر بعد رحيل الفرنسيين من البلاد ، وعاد الشعب المصرى يعانى من جديد من سخافات ومظالم هؤلاء الولاة الأتراك الذين كانوا قد رحلوا عن مصر منذ الغزو الفرنسى فى ٢١ يوليو ١٧٩٨ .

وقد اشتهر «خسروباشا» بسوء التدبير والتصرف وميله لسفك الدماء ، فلما زادت وتمادت مطالباته بفرض الضرائب والاتاوات وأصدر أوامره بتحصيلها عنفاً وتجبراً ، قام الشعب المصرى الذى كان فى قمة الصحوة بالاستعداد للثورة على مثل هذه التصرفات الاستبدادية الغاشمة خاصة بعد طول تمرسه واعتياده على أساليب الاحتجاج الايجابى وطول فترة مقاومته للغزو الفرنسى ، فقد قام الشعب المصرى بالثورة ضد «خسرو باشا» ، فاستفاد «محمد على» من هذا التذمر الشعبى والذى اعتبره دليلاً على مدى ارتباط الشعب بزعاماته القادرة وعلى سرعة التجاوب بينهما والاصرار على التخلص من هذا الوالى التركى «خسروباشا» ، وساعد على ذلك تفشى الفساد الإدارى وضعف القيادات الإدارية التركية فى «الآستانة» ، فقد تعاقب الولاة الأتراك على حكم مصر سواء بموافقة «الباب العالى» أو دون علمة ، وكان من أهم اسباب تعاقب الولاة والفضل الأكبر[1] فى ذلك هو صحوة الشعب المصرى ونفاد صبره على هذا الفساد والاستبداد المتعاقب ، فبعد التخلص من «خسرو باشا» عين «طاهر باشا» واليا جديدا وكان مشهورا بظلمه وجبروته وتركة الحبل على الغارب لجنوده الألبانيين - والأرناؤوط يعيشون فسادا بسلب ونهب الشعب ، فتم الفتك «بطاهر باشا» على يد جنود الانكشارية بعد أن تأخر فى صرف رواتبهم ، وبمقتل «طاهر باشا» صار تعيين «أحمد باشا» واليا على مصر دون فرمان عثمانى ولم يمكث فى ولايته سوى يوم واحد وليلة ثم عينت الحكومة العثمانية «على باشا الجزايرلى» واليا بدله والذى تم إغتياله وهو فى طريقه من الاسكندرية إلى القاهرة على يد أمراء المماليك فى «قليوب» فى يناير ١٨٠٤ وما كان من «محمد على» بدهائه الفطرى إلاَّ أن عمل على تعيين «خسرو باشا» تلاعبا به وإرضاء للباب العالى حيث أصبح «خسرو باشا» لعبة فى يد «محمد على» ، ولكن سرعان ما قام أعوان «طاهر باشا» الذى اغتيل - وانتقاما له - بفرض تعيين «خورشيد باشا» - محافظ الاسكندرية - واليا على مصر بعد عزل «خسرو باشا» .

ولغرض فى نفسه ، وقف «محمد على» - بمكر ودهاء - موقفا سلبيا إزاء هذا التغيير ، وإمعانا منه فى التأكيد على مدى ضعف الدولة العثمانية ..

---

(١) «تأملات فى ثورات مصر» - مقاومة الحملة الفرنسية - ص ١٣٤ .

فقد قام «خورشيد باشا » الذى كان يتمتع بجانب كبير من الدهاء بتدبير محاولة للتخلص من «محمد على» وذلك باستصدار فرمان عثمانى بإبعاد[1] «محمد على» عن مصر ، إلاَّ أن «محمد على» بذكائه ودهائه أحاط الزعامات الشعبية المصرية علما بمؤامرات «خورشيد باشا » وبذلك أصبح الميدان ممهداً ومهيأً ليقوم الشعب المصرى وزعاماته بالمطالبة بتعيين «محمد على» واليا على مصر ، لما لمسوه من مناصرته لهم فى مراحل أزماتهم مما كانوا يعانون من فساد الولاة الأتراك الذين تعاقبوا فى احتلال أريكة الولاية على مصر منذ رحيل الفرنسيين عن مصر ولوقوفه إلى جانب الشعب المصرى ضد ظلم واستبداد هؤلاء الحكام المتمثلين فى تسلطهم وفسادهم ودمويتهم وبعد تكرار مساندته لثورات الشعب المتوالية ضد هؤلاء الحكام باستخدام قواته العسكرية العاملة تحت قيادته فى تحقيق مطالب الشعب واكتسب تحركه هذا تأييد الرأى العام ممثلا فى الشعب المصرى وزعاماته المكونة للمؤسسة الوطنية المصرية ..

وقد كان هذا هو قمة الصحوة الشعبية المصرية التى أصبحت لا تتحمل أى مظهر من مظاهر الفساد والظلم والاستبداد ، خاصة وأن الشعب المصرى وزعاماته قد تعرفوا من طول تعاملهم مع «محمد على» بأنه كان يعمل دائما لمصلحة مصر وشعبها فكان له التأييد الكامل ، وفى ذات الوقت أيقن «محمد على» يقينا كاملا بأن الصحوة الشعبية المصرية أصبحت تمتلك قدرات السيادة فأصبحت هى مصدر السلطات فى كافة ربوع مصر ..

مؤامرة خورشيد باشا

عودة إلى تفاصيل المؤامرة التى كان يحيكها «خورشيد باشا» عندما عين واليا جديدا على مصر وكان داهية ولكنه لم يكن فى مستوى دهاء «محمد على» ، فكانت المؤامرة هى محاولة «خورشيد باشا» الاطاحة «بمحمد على» والتخلص منه ، بأن استصدر فرمانا عثمانيا بعودة «محمد على» وقواته من الجنود الألبانيين والأرناؤوط إلى بلادهم ، فاستعان «خورشيد باشا» لتنفيذ مؤامرته بأن طلب من الدولة العثمانية إمداده بقوات كافية من الجنود «الدلاة»[2] – وهم من طائفة من الأكراد «والدلاة»

---

(١) الجبرتى – جزء ٣ – ص ٣١١ ، ٣١٢

(٢) «الجبرتى» – جزء ٣ – ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٨ .

كلمة تركية معناها المجانين - وكانوا أسوأ أنواع الجنود العثمانيين إذ كانوا يستخدمونهم فى تأديب شعوب الولايات المتمردة ، وقدمت قوات من هؤلاء الجنود «الدلاة» فعلا إلى مصر بحجة المساعدة فى مطاردة المماليك فى الوجه القبلى ..

ولكن بمجرد أن علم «محمد على» بصدور الفرمان بإبعاده عن مصر وبقدوم قوات الجنود «الدلاة» ، أدرك وتأكد له أبعاد المؤامرة بأنه هو شخصيا والشعب المصرى وزعاماته هم المقصودون بكل هذه التدبيرات الخبيثة من جانب «خورشيد باشا» فتوقف «محمد على» عن مطاردة المماليك بالوجه القبلى وأسرع بالعودة إلي القاهرة حيث كان «خورشيد باشا» قد بدأ فى استخدام الجنود «الدلاة» الوافدين حديثا فى تأديب الشعب المصرى بالمغالاة فى جمع الضرائب وبأسلوب تعسفى تأباه النفوس الحرة ..

فقام «محمد على» . بدهائه المشهود به - بتحريض القوى الشعبية على العصيان والتمرد والمطالبة ببقاء «محمد على» وعدم الاذعان بتنفيذ الفرمان الجديد بإبعاده من البلاد .

(أ) قوة الرأى العام

(١) وفى يوم ٢١ مايو ١٨٠٥ ، أعلن زعماء الشعب المصرى أنهم سيجتمعون فى دار المحكمة الكبرى (بيت القاضى) لمواجهة تصرفات الوالى «خورشيد باشا» وجنوده (الدلاة) واختصام[١] هذا الوالى ولتصدر قراراتهم فى مجلس الشرع ، وسرعان ماهبت جماهير الشعب صاخبة واحتشدت فى ساحة بيت القاضى حيث بلغ تعداد جماهير الشعب المصرى ما يقرب من الأربعين ألف مصرى ، وكان احتشاد هذا العدد الضخم من جماهير الشعب المصرى وزعاماتهم فى (بيت القاضى) «المحكمة الكبرى» بمثابة توثيق شرعى للثورة الشعبية الحقيقية - أى الصحوة الشعبية الجديدة ، حيث تعالت صيحات الجماهير وهتافاتها تقول : (يارب يا متجلى اهلك العثمنلى) ، ولم يكن ذلك إلاّ دليلا على مدى السخط الشعبى الثورى على الحكم التركى المستبد المستهين بإرادة الأمة واصرارا شعبيا على وجوب التخلص منه .

(٢) وقد قام زعماء الشعب (مجلس الشرع) باستدعاء وكلاء الوالى للمثول أمام المجلس الشرعى والذى كان بمثابة (مجلس الأمة) وانعقد فى هيئة محكمة حيث مثل وكلاء الوالى وعرض عليهم الزعماء إجماع الشعب بمطالبه وهى :

---

(١) المصدر السابق - ص ١٣٩ ، ١٤٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ - عدم فرض ضرائب بعد اليوم إلاّ إذا أقرها العلماء وكبار الأعيان .

٢ - أن تجلو الجنود التركية و (الدلاة) عن القاهرة وتنتقل إلى الجيزة .

٣ - ألاّ يسمح بدخول أى جندى إلى المدينة حاملا سلاحة .

٤ - أن تستأنف وسائل المواصلات عملها فورا بين القاهرة والوجه القبلى .

(٣)) وقام الزعماء المصريون بتسليم صورة من مطالب الشعب إلى القاضى ، وانصرف وكلاء الوالى حيث أبلغوا هذه المطالب الشعبية إلى «خورشيد باشا» فى مقره بالقلعة

وكان السيد / عمر مكرم فى مقدمة صفوف المجاهدين ، فأراد الوالى «خورشيد باشا» القبض عليه فأرسل فى استدعاء القاضى ومعه السيد عمر مكرم وبقية العلماء للاجتماع به فى القلعة بحجة التشاور معهم ، فرفض الزعيم عمر مكرم والقاضى وباقى العلماء الذهاب للقلعة تحسبا من الفتك بهم .

(٤) عزل «خورشيد» لرفضه مطالب الشعب . وتعيين «محمد على» واليا

رفض الوالى «خورشيد باشا» الاستجابة لمطالب الشعب المتمثلة فى (مجلس الشرع) ، فاجتمع زعماء الشعب ونقباء الصناع يوم ٢٣ مايو ١٨٠٥ بدار المحكمة (مجلس الشرع) للتداول فى شأن رفض الوالى لطلبات الشعب واحتشدت الجماهير حول دار المحكمة واتفقت كلمة نواب الشعب الذين أجمعوا رأيهم على عزل «خورشيد باشا» وتعيين «محمد على» واليا على مصر بعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق بأن يلزم جانب العدل وألا يصدر أمراً إلا بمشورتهم ، وقبل «محمد على» الولاية بارادة الشعب وحتى قبل أن يصدر له بذلك فرمانا - أمراً رسمياً - من الخليفة العثمانى ..

عندئذ أمعن «خورشيد باشا» فى استبداده رافضاً قرارات مجلس الشرع بقوله : «إننى وُلّيت بأمر من السلطان ، فلا أعزل بأمر من الفلاحين ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطان» ..

إزاء هذا الرد المتغطرس ، أصدر مجلس الشرع (ممثلى الشعب) وثيقة شرعية نصت على : «إن للشعوب - طبقا لما تقضى به أحكام الشريعة اللاسلامية - الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم الحق فى أن يعزلوهم إذا إنحرفوا عن سنن العدل وساروا على طريق الظلم لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة» ..

وعلى اثر ذلك تكفل الشعب بتنفيذ هذا الاعلان الشرعى ، فقام ما يقرب من أربعين ألف من أفراد الشعب بشراء السلاح اللازم - وأغلبهم من اضطر إلى بيع أمتعته لشراء سلاح له - وأخذوا يتناوبون حصار القلعة مقر «خورشيد باشا» - الوالى المعزول (شعبيا) ، فكان هذا الحصار يشكل ثورة وصحوة شعبية مصرية صميمة قامت كلها على أكتاف الشعب المصرى وبارادته الحرة دون أى تدخل من الوالى الجديد «محمد على» ولا بمساندة من قواته العسكرية التى لا يستهان بها ..

وأخيرا استسلمت الحكومة العثمانية لمطالب الشعب المصرى ، حيث جاء إلى القاهرة من الآستانة يوم ٩ نوفمبر ١٨٠٥[١] - رسولا يحمل فرمانا يتضمن خطابا إلى «محمد على باشا» بتثبيته واليا على مصر .

ومنذ ذلك التاريخ صارت مصر دولة مستقلة بفضل إرادة وصحوة شعبها الحر ، فتأكد للوالى الجديد «محمد على باشا» أنه لم يصل إلى هذه الولاية بفضل الفرمان العثمانى ولكن بفضل إرادة الشعب المصرى وصحوته التى لفتت نظره إلى تقديرها وعدم الاستهانة بها .

بعد تنصيب «محمد على باشا» واليا على مصر (شعبيا)

تولى «محمد على» الولاية على مصر بارادة الشعب المصرى وزعمائه وطوائفه الدينية والوطنية الذين استعان بهم وكانوا هم سنده فى مواجهة المصاعب التى أحاطت به من جانب الانجليز بعد جلائهم عن مصر واعتمادهم على بقاء الأمراء المماليك فى الجيزة بالقرب من القاهرة وبالوجه القبلى ، وأيضا المصاعب من جانب الوالى التركى «خورشيد باشا» المتربص والمعتمد على عدم ثقة الحكومة العثمانية فى «محمد على» نفسه ، فكان «محمد على» فى مواجهته لهذه المصاعب يعتمد على جنوده (الأرناؤوط) - المخلصين له - حيث كان يحرص دائما على إصلاح أحوالهم باستمرار ، كذلك اعتمد «محمد على» - بصفة رئيسية - على زعماء الشعب المصرى الدينيين المترفعين عن شهوات الحكم والمتحصنين أخلاقيا بتعاليم دينهم التى تحض على الجهاد

---

(١) «الجبرتى» - جزء ٤ - ص ٩ ، ١٠

خالصا لوجه الله والاعتماد بصفة رئيسية على مخافة الرب دون غيره ، وأيضا بالاعتماد على أتباعهم من عامة الشعب بما يتحلون به من الصحوة والتفتح ورفض الظلم والسخط والتمرد على الحكام الظالمين من المماليك والأتراك وعلى تحكم الأجانب سواء كانوا من الفرنسيين أو الانجليز ، فبكل ذلك تمكن «محمد على» من تثبيت دعائم حكمة وتذليل المصاعب والعقبات التى واجهته - والمتمثلة فى :

(أ) الانجليز :

فبرغم جلائهم عن مصر ، كانوا مستمرين فى دسائسهم من الخارج بدوام اتصالهم «بمحمد بك[1] الألفى» - أمير المماليك المتمردين فى الجيزة وبفلولهم الهاربين بالصعيد ، كما أنهم كانوا مستمرين فى دسائسهم «لمحمد على» عن طريق عملائهم فى الآستانة مع الدولة العثمانية المنهارة وبواسطة العملاء الانجليز والقناصل الأجانب فى القاهرة وجميعهم كانوا دائمى التآمر مع المماليك ضد الشعب المصرى وزعاماته الوطنية والدينية من ناحية وضد «محمد على» من ناحية أخرى ، وتردد عملاء الانجليز على «قبطان باشا» - قائد الأسطول التركى - الذى لم يبرح الشواطىء المصرية بقواته التى كان يبلغ تعدادها ٢٥٠٠ مقاتل انتظارا وانتهازا للظروف إلى جانب تأييدهم لفلول المماليك المتمردين الهاربين خاصة الذين كانوا يتحصنون فى الجيزة مع مندوب الوالى التركى «سلحدار خورشيد باشا» .

(ب) الأتراك :

استكمالا - من حيث الشكل فقط - أرسلت تركيا إلى «محمد على» مندوبا يحمل فرمانا عثمانيا بتولية «محمد على» واليا على مصر ، إذ أن «محمد على» كان قد صار واليا بالفعل عينه الشعب المصرى - صاحب الحق الأول فى السيادة على بلاده - وبذلك يرجع الفضل فى تعيين «محمد على» واليا للصحوة الشعبية المصرية الوطنية ، ولذلك لم يكن فى نية الحكومة التركية أبداً السكوت على هذا الوضع باعتباره منتقصا لسيادتها ، مما دعاها إلى ارسال قوات تركية قوامها ٢٥٠٠ جنديا على ظهر أسطول بقيادة «قبطان باشا» (عبد الله رامز باشا)[1] حيث وصل هذا

(١) «عصر محمد على» - الاستاذ / الرافعي - ص ٧٨

الأسطول إلى ميناء أبى قير فى ١٧ يوليو ١٨٠٥ ، وظلت هذه القوات متربصة «بمحمد على» الذى كان مدعما بتأييد الشعب المصرى وزعاماته الوطنية والدينية ..

وفى النهاية وبعد طول تربص هذا الأسطول بما يحمله من قوات ، تأكد لدى «قبطان باشا» أن «محمد على» هو الأحق بالولاية لما يحظى به من تأييد شعبى جارف ولأنه الوحيد الذى كان قادرا علي استتباب الأمن والقضاء على المماليك والوقوف فى وجه الانجليز ..

وفى ذات الوقت عمل «محمد على» على التخلص من مصدر المتاعب الداخلية[1] وهم الجنود «الدلاة» ، فقد عمل على ترحيلهم بادئا بالجزء الأكبر منهم من العناصر الأكثر نزوعا إلى العصيان ، فسرح بعضهم ورحل البعض الآخر إلى الحدود السورية[2] حيث عهد بذلك إلى فرقة من جنود «الأرناؤوط» الموالين له والعاملين تحت قيادته .

(جـ) المماليك :

قبل رحيل «قبطان باشا» بقواته المحمولة على الأسطول ، قام المماليك بالتخطيط للهجوم على القاهرة ، حتى يؤكدوا لدى «قبطان باشا» أنهم الأحق بالولاية على مصر وليثبتوا له مدى قوتهم ، فاختاروا وحددوا توقيتا لهجومهم يوم الاحتفال «بوفاء النيل» ، نظراً لإنشغال الشعب المصرى والجنود «الأرناؤوط» - العاملين تحت قيادة «محمد على» بهذا الاحتفال فى مصر القديمة بعيدا عن القاهرة ، فتآمر المماليك مع بعض من قيادات الجنود العاملين تحت قيادة «محمد على» ، وعلم «محمد على» بهذه المؤامرة ..

وتمكن «محمد على» عن طريق بعض أعوانه الذين دسهم فى صفوف المتآمرين متظاهرين بالانضمام إلى المؤامرة من استدراجهم إلى دخول العاصمة (القاهرة» ، حيث قاموا فعلا - حسب الخطة المرسومة - بالهجوم بقوات قوامها ألفا من المقاتلين المسلحين ، وكان على رأس هذه المؤامرة «عثمان بك حسن» و«شاهين بك» و«أحمد كاشف سليم بك»

---

(١) «الجبرتى» - جزء ٣ - ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٩

(٢) «الجبرتى» - جزء ٤ - ص ١٠ ، ١١

وعندما وصلت حشود المتآمرين إلى داخل مدينة القاهرة ، أوقع بهم رجال « محمد على » حيث أطبقوا عليهم من كل جانب وعلى غير توقع المتآمرين الذين أسقط فى يدهم ، حيث قتل منهم الكثير وتم أسر الباقين فأمر « محمد على » بقتلهم جميعهم ، وبذلك تم القضاء على معظم الأمراء المماليك المتحصنين قرب القاهرة ، كما تم « لمحمد على » الاستيلاء على معاقلهم فى الجيزة (سبتمبر ١٨٠٥) فاستولى على أسلحتهم وذخائرهم ، وهرب « محمد الالفى بك » - الأمير المملوكى - إلى الفيوم ليعد العدة لاستئناف القتال .

بعد هذه الوقائع والأحداث ، رحل « قبطان باشا » عن مصر فى نهاية اكتوبر ١٨٠٥ ومعه « خورشيد باشا » - الوالى المخلوع - ، فقام « محمد على » بالعمل على توثيق علاقاته وتوطيدها مع الزعامات الوطنية والدينية المصرية خاصة الزعيم « عمر مكرم » لما لمسه فيهم من المكانة والنفوذ لدى جماهير الشعب المصرى المتفتحة والمتعطشة للحرية والاستقلال ..

فأخذ « محمد على » يستشير هؤلاء الزعماء فى أهم الأمور ، خاصة كلما كانت الحكومة تحتاج إلى تقرير ضرائب أو إتاوات ، فكان يرجع إليهم أولا وقبل أن يقررها أخذا بآرائهم ومشورتهم لتأكده من أنهم القادرين على أحقيتها وإقرارها من عدمه ، فإذا أجمعت الآراء على تقريرها أناط بهم إقناع الشعب بها ..

كما أنه وعد الشعب بالعمل على التخلص من بعض الجنود « الأرناؤوط » و« الدلاة » حيث كانوا مثار الشكوى المستمرة والمعاناة نظرا لكثرة مساوئهم واعتداءاتهم على أفراد الشعب ، فقام بترحيل عدد كبير منهم إلى سوريا ، كما عمل على تخفيض الضرائب بإعفاء الشعب من جزء كبير منها مواز لما كان يستقطع من الملتزمين ..

وجاء الدور على الزعامة الشعبية نفوذ الزعيم « عمر مكرم » ، مما دعا « محمد على » إلى أن يستخلفه لينوب عنه فى إدارة شئون العاصمة (القاهرة) عندما قام « محمد على » على رأس قوات لمطاردة المماليك فى الصعيد فى ابريل ١٨٠٦ ، ولكن السيد « عمر مكرم » ترفع عن ذلك ورفض هذا المنصب زهدا منه فى السلطة والسلطان ، وبذلك حظى بمكانة عظمى لدى الشعب ، ولكن « محمد على » عاد وبدأ يخشى من تزايد قوة نفوذ السيد « عمر مكرم » لدى الشعب المصرى فأخذ « محمد على » يفكر فى وسيلة جديدة لامكان الحد من ذلك .

مطاردة «محمد على» للمماليك فى الصعيد[1]

بعد رحيل الاسطول التركى بقيادة «قبطان باشا» من ميناء أبى قير عائدا إلى تركيا ، كان المماليك بقيادة «محمد بك الألفى» مسيطرين على معظم بلاد الصعيد ابتداء من الفيوم التى كانت نقطة تمركزهم وحتى شمال أسيوط ، بينما كان «عثمان البرديسى» و «إبرهيم بك الكبير» يحتلان شاطىء النيل بين أسيوط والمنيا ، وتمكنا من تجنيد عددا كبيرا من العربان فقويت بهم شوكتهم ..

بدأ «محمد على» مهمته بمطاردة المماليك فى الصعيد ، فجهز لذلك حملة بقيادة «حسن باشا» الذى زحف بقواته حتى (الرقة» فى الجيزة وبعد اجتيازها اعترضته قوات المماليك بقيادة «محمد بك الألفى» فتوقفت الحملة عن الزحف ولم يتحقق لها النصر على المماليك ، وتمكن «محمد بك الألفى» من متابعة مقاومته للحملة إلى الجيزة ومنها شمالا حتي البحيرة ،فعاد «حسن باشا» بقواته متجها بها جنوبا حتى بلغ بنى سويف وتوقف فيها ، بينما تقدم «البرديسى» و «إبراهيم الكبير» شمالا حيث حاصرا المنيا وكانت بها حامية من جنود «محمد على» ، فقام «حسن باشا» بارسال نجدة لمقاومة حصار المنيا ، وكان ذلك فى مارس ١٨٠٦ ..

ولكن «محمد على» توقف عن المطاردة والقتال فجأة ، حيث بلغته معلومات أثارت قلقه بأن الانجليز تمكنوا بواسطة عملائهم من التأثير على الباب العالى فى «الآستانة» فأصدر فرمانا بإسناد حكم مصر إلى «موسى باشا» (بصفة ظاهرية) . على أن يتولى «محمد بك الألفى» جميع مقاليد وأمور الحكم فى مقابل أن يقوم الأمير المملوكى «محمد الألفى» بدفع جزية سنوية سخية للسلطان ويتعهد بالولاء للدولة العثمانية ، كما تضمنت المعلومات التى بلغت إلى «محمد على» بأنه سيسمح للمماليك بشراء الرقيق من أتباعهم مما يساعد على استعادتهم للسطوة والسيطرة ، فسارع «محمد على» بالعودة إلى العاصمة «القاهرة» .

(١) «الجبرتي» - جـ ٤ - ص ٣

شروع الحكومة التركية فى التخلص من «محمد على»

قامت الحكومة التركية بارسال أسطول إلي مصر بقيادة «صالح باشا» الذى وصل إلى ميناء الاسكندرية فى أول يوليو ١٨٠٦ وعلى ظهر هذا الأسطول حملة من الجنود قوامها ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف مقاتل ، وكان على ظهر مركب قيادة الاسطول «موسى باشا» - الوالى الجديد - حاملا الفرمان الذى أصدرته الحكومة التركية بتولية «موسى باشا» واليا على مصر بدلا من «محمد على» ، على أن يتولى «محمد على الولاية على (سلانيك) ..

وكان «محمد بك الألفى» - الأمير المملوكى - قد وصل إلى (حوش عيشى) بمديرية البحيرة ، فالتقى هناك بالرسل الأتراك والانجليز ، وقاموا بإيفاد «صالح باشا» - قائد الاسطول التركى - رسولا إلى «محمد على» ليبلغه بالفرمان السلطانى بنقله واليا على (سالونيك) ويأمره بتنفيذ الفرمان والذهاب إلى هناك .

وبذكائه ومكره ، تظاهر «محمد على» بالامتثال والاذعان مبلغا الرسول التركى بأنه مستعد للرحيل إلى (سالونيك) غير أن جنوده يعارضون رحيله قبل أن تصرف لهم رواتبهم المتأخرة وقدرها عشرون ألف كيس ، فكانت هذه أولى خطوات «محمد على» لاحباط مؤامرة نقله ، وعلى الفور توجه إلى الزعيم الشعبى «عمر مكرم» وأفضى له بمؤامرة الانجليز مع كل من «الآستانة» والمماليك وسرعان ما استجاب الزعيم «عمر مكرم» لمحمد على وقاما سويا برسم الخطة للتغلب على هذه المؤامرة ..

وتمشيا مع المخطط الثلاثى - التركى المملوكى الانجليزى - طلب «محمد بك الألفى» - الأمير المملوكى - من أهالى (دمنهور) الاستسلام . وتسليم المدينة له ، ورفض الأهالى الامتثال لهذا الأمر واستعدوا لمقاومته ولمقاومة الأتراك أنفسهم القادمين على ظهر الأسطول ، وقام الأهالى بابلاغ الزعيم الشعبى «عمر مكرم» بهذا الموقف والذى قام بدوره بابلاغه إلى «محمد على» ..

قام «محمد بك االألفى» بمحاصرة مدينة «دمنهور» لاجبار أهلها على الاستسلام وتسليم المدينة إليه ، إلاَّ أن «محمد على» صمم على مقاومة إرادة السلطان التركى بعد وثوقه من موقف الشعب المصرى وزعاماته فقام مع «السيد عمر مكرم» بدعوة العلماء إلى

اجتماع حيث رفعوا التماسا إلى السلطان بالاعتراض على عزل «محمد على» والاحتجاج على تولية «موسى باشا» واليا على مصر وإعادة السلطة فى يد المماليك ، وأن الشعب المصرى وزعماته الوطنية والدينية لا يستطيعون كفالة الجنود ودفع رواتبهم المتأخرة ، خاصة وأنهم دائبون على الاعتداء والطغيان والتمرد على الرعايا حتى أفقروهم وأذلوهم ، وعدَّد العلماء في التماسهم مساوىء المماليك ومظالمهم بينما امتدحوا أعمال «محمد على باشا» ، وكانت عريضة الالتماس من نسختين سلمت إحداهما إلي القبطان «صالح باشا» - قائد الاسطول التركى - والأخرى قاموا برفعها إلى السلطان بعد أن وقعوا عليها بامضاءاتهم ، وكان المضمون العام لعريضة الالتماس هو الاستهانه بالفرمانات السلطانية .

ورفض القبطان «صالح باشا» الاستجابة وبعث إلى العلماء المصريين برسالة ينبئهم فيها بعزل «محمد على» وتقليد «موسى باشا» الولاية ويدعوهم للامتثال للفرمان السلطانى ، كما بعث بمثل هذه الرسالة إلى «السيد عمر مكرم» وبأخرى إلى السيد / السادات» - أحد الزعماء ..

ثم تلقى القبطان «صالح باشا» ردا من الزعماء تجاهلوا فيه كلية أوامره ، وأبلغوه أن امتناع الجنود «الارناؤوط» عن الرحيل وعصيانهم قد يترتب عليه تعرض البلاد للخراب ، فرد عليها القبطان «صالح باشا» برسالة شديدة اللهجة مؤكدا على ضرورة تنفيذهم الأوامر كما أكد فيها على ضرورة مغادرة «محمد على» ومعه «حسن باشا» وجنودهم ورحيلهم من مصر عن طريق (دمياط) ..

فرد العلماء برسالة أخرى إلى القبطان «صالح باشا» ، أكدوا فيها صراحة أنهم لا يرتضون عن «محمد على باشا» بديلا حيث سطروا فى رسالتهم حرفيا : (إن «محمد على باشا» حامى الأقاليم وحافظ ثغوره ومؤمّن سبله وقاطع دابر المعتدين ، وإن الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضون بولايته وأحكامه وعدله ، .... ، أما الآن فجميع أهل القطر المصرى مطمئنون بولاية «محمد على») ..

وفى ذات الوقت أخذ «محمد على» استعداده للمقاومة حتى ولو أدى الأمر إلى الحرب ، فبدأ بتحريض رؤساء الجنود «الأرناؤوط» على العصيان والتمرد والمعارضة ورفض

رحيله وأقسم الجنود على الولاء والاخلاص له حتى النهاية وبأنهم مؤيدوه وناصروه ، وبدأ «محمد على» فى تقوية الاستحكامات وأمد حامية القلعة بالأسلحة والذخائر اللازمة وحصن الطوابى ، كما أرسل جيشا من جنوده إلى (البحيرة) للقتال ضد قوات «محمد الألفى» والأتراك المحاصرين لمدينة (دمنهور) وبعث برسول إلى «حسن باشا» فى الصعيد يدعوه للتقدم نحو القاهرة للاستعداد للقتال ..

خطوات «محمد على» الواعية

استغل «محمد على» الخلاف داخل صفوف المماليك ، وبصفة خاصة ذلك الخلاف الذى دب بين «الألفى» و «البرديسى» و«إبراهيم بك» و «عثمان بك حسن» ، وذلك بسبب انفراد «الألفى» بالاتصال بالانجليز فانتهز محمد على فرصة عرض المماليك المختلفين مع الألفى استعدادهم للصلح مع «محمد على» الذى قابلهم بالبشاشة والترحيب وأنعم عليهم بالهدايا فغذى بذلك شقة الخلاف بينهم ، كما قام - بدهائه ولماحته فى معرفة نقط الضعف البشرى - فاستخدم سلاح الرشوة مع بعض الأتراك المحبين للمال مقتديا بقوله دائما : «إنى أعرف الترك وأعرف الطريقة التى تنجح معهم ، فالرشوة هى وسيلة فعاله مع هؤلاء الناس» فأخذ يقدم الرشاوى والهدايا إلى «صالح باشا» وبطانته من جهة ولرجال (المابين - فى الآستانة) من جهة أخرى ، كما أنه عندما أرسل العريضة المهورة بتوقيعات زعماء الشعب إلى تركيا لتقديمها إلى السلطان بعث مع الرسول - حال العريضة - ٢٠٠٠ كيس برسم رجال الدولة التركية ..

كما إستعان «محمد على» بصديقه سفير فرنسا فى تركيا الذى سعى لدى السلطان التركى تعضيدا «لمحمد على» ، فتساهل السلطان بعض الشيء حيث بعث إلى القبودان «صالح باشا» ليطلق يده بكل ما يراه هو ..

وفى ذات الوقت أرسل «محمد على» جزءا من جيشه لمحاربة «محمد بك الألفى» والأتراك المتمركزين بمدينة الرحمانية بالبحيرة حيث وصل هذا الجيش إلى هناك فى آخر يوليو ١٨٠٦ ، وكانت بالرحمانية حامية بقيادة (طبوز أوغلى) - «كتخدا بك» - و«طاهر باشا» (ابن أخت «محمد على») وتمكنت هذه الحامية - بعد وصول النجدة إليها من «محمد على» - من الخروج من الرحمانية ، وإزاء ذلك رفع «الألفى بك» الحصار عن دمنهور وجمع قوانه كلها واشتبك مع جنود «محمد على» فى (النجيلة) - على مقربة من الرحمانية - يوم ١٢ أغسطس ١٨٠٦ ، وانتهت المعركة بهزيمة قوات «محمد على»

فاستولى المماليك والأتراك على الرحمانية وبالتالى عاد «الألفى» لحصار دمنهور ..

واستبسل أهالى دمنهور فى الدفاع عن مدينتهم دفاعا مجيدا ، واستطاعوا رد هجمات المماليك والأتراك عدة مرات رغم أن قوات «الألفى» كانت مزودة بالمدافع الكثيرة التى كان يعمل عليها رماة من الأروام والايطاليين أمدهم بها الانجليز ، وأثناء الحصار أرسل الأهالى إلى «السيد عمر مكرم» وإلى «محمد على باشا» طالبين الامداد والمعونة فأمدهم «عمر مكرم» بكل ما يحتاجونه من المؤن والذخائر ..

واستمر الحصار على مدى شهر ، إلا أن «محمد الألفى بك» خاب وفشل فى الاستيلاء على دمنهور، وقد أتى الخلاف الذى نشب بين المماليك بعضهم البعض - والذى نجح «محمد على» فى إثارته فيما بينهم - أتى هذا الخلاف بنتائج طيبة ، إذ أدى هذا الخلاف إلي إضعاف مركزهم وفى ذات الوقت أثمرت خطوات «محمد على» الواعية فى استمالة السلطان بالرشاوى والهدايا ، مما جعل السلطان التركى يوافق على رأى «صالح باشا قبودان» بامكان التفاهم مع «محمد على» ، حيث تراجعت الحكومة التركية عن فرمانها بعزل «محمد على» من الولاية على مصر وكان ذلك فى مقابل أن يؤدى «محمد على» إلى الباب العالى فى الآستانة (٤٠٠٠ كيس)[١] أى (٢٠٠٠٠٠٠ مليونا قرش) ، على أن يجعل ابنه «إبراهيم بك» رهينة بالآستانة نظير هذا المبلغ ، فانتهت وفشلت بذلك المؤامرة التى حيكت ودبرت للاطاحة «بمحمد على» ، حيث صدر المرسوم السلطانى بالابقاء على «محمد على» واليا على مصر واستمراره فى حكم البلاد لسبب رئيسى هو رضاء الشعب المصرى بكافة طبقاته وطوائفه وزعمائه بحكمه وعدله ، إذ كان المرسوم السلطانى متضمنا أن «محمد على» مؤيدا من الشعب ومرضى عنه من زعماء البلاد ، وبذلك ثبت أن الصحوة الشعبية المصرية كانت صاحبة الفضل[٢] أولا وأخيرا فى اختيار «محمد على» ثم فى تثبيته وتوطيد مركزه ببقائه واليا على مصر ..

وأقلع القبودان «صالح باشا» بأسطوله من ميناء أبى قير يوم ١٨ أكتوبر ١٨٠٦ ومعه «موسى باشا» و«إبراهيم باشا» - ابن «محمد على» - وتخلف وكيل عن «صالح

(١) الكيس عبارة عن ٥٠٠ قرش .

(٢) «عصر محمد على» - للاستاذ / الرافعى - ص ٤٥ ، ٤٦

باشا » بمصر لضمان الوفاء بالأربعة آلاف كيس التى وعد «محمد على» بتسديدها لحكومة الاستانة ، وبذلك استقر حكم «محمد على» واليا على مصر بعد تمام فشل المؤامرة التى قصد بها عزله .

تدهور موقف المماليك بوفاة «البرديسى بك» و «محمد الالفى بك»

فى آخر مرحلة من مراحل المؤامرة التى اشترك فى تدبيرها الباب العالى والمماليك بمساندة الانجليز للتخلص من «محمد على» ، مات فجأة «عثمان البرديسى» يوم ١٩ نوفمبر ١٨٠٦ ودفن بالصعيد فتولى الامارة بعده «شاهين بك المراوى» الذى كان خصما عنيدا «لمحمد الألفى» ، مما جعل «محمد على» يطمئن بعض الشىء للفرقة التى دبت فى صفوف المماليك ، وفى هذا الوقت بالذات كان «محمد الألفى» فى البحيرة دائم الاتصال بالانجليز مما كان مجال مضايقة «لمحمد على» لأنه لم يحسم معه الموقف العسكرى إذ كان «محمد الألفى» مازال يحاصر دمنهور على أمل وصول الانجليز إلى مصر بقصد غزوها واحتلالها وتحقيق وعودهم له بتوليته واليا على مصر .

وبموت «عثمان البرديسى» وصمود أهالى دمنهور أمام حصار «محمد الألفى» لهم الذى طال وقته فقد كان ذلك يكلفه الكثير من الجهد والمال والارهاق له ولأتباعه وجنوده ، وبعد أن وعده الانجليز بقرب الغزو إلاَّ إنهم تباطأوا وطال الوقت مما اضطره تحت وطأة تدهور أحوال أتباعه وقواته وتهديدهم له بالتخلى عنه والرحيل إلى الصعيد حيث تتوافر الوسائل المعيشية وكان «محمد الألفى» يعطيهم الأمل فى قرب الاستيلاء على دمنهور وجعلها قاعدة له وأمله فى إمكان نهبها ونهب المنطقة المحيطة بها والاعتماد فى معيشته ومعيشة أتباعه وجيشه هناك على هذا السلب والنهب الذى كان معروفا عن أمراء المماليك.

رغم كل هذه المتاعب التى كانت تحيط «بالألفى» وأتباعه وقواته فقد كانت إقامتهم فى دمنهور - إحدى مديريات الوجه البحرى - تشكل إزعاجا «لمحمد على» الذى لم يتمكن - حتى هذا الوقت - من تحقيق أى نصر حاسم ضدهم ، وذلك لأن جنود «محمد على» بمستواهم العسكرى المتخلف وتدريبهم وقتالهم التقليدى القديم كان يعتبر متخلفا ، وكان المماليك وخاصة «محمد بك الألفي» يتفوقون على «محمد على» وجنوده من حيث

العدد الهائل من عنصر العربان الذى أمكنه تجنيدهم وكان تعدادهم ستة آلاف فى قواته وكذلك جانب كبير من جنود الدلاة بقيادة «رجب أغا» الذين انضموا إليه ، كما أمده الانجليز بجانب من المدافع الحديثة (عشرة مدافع) وأيضا أمدوه بحوالى ألفين من الفنيين المتخصصين فى استخدام المدفعية وكانوا من الأروام والايطاليين ..

وفى نهاية الأمر أصيب «محمد الألفى» باليأس والاحباط لعدة أسباب من أهمها الانسحاب المفاجيء من جانب الأتراك بقيادة «صالح باشا قبودان» وثانيها تثبيت ولاية «محمد على» على مصر وثالثها لعدم تمكنه من الاستيلاء على دمنهور وجعلها قاعدة ومعقل له يقيم بها حتى تأتيه النجدة من الانجليز حتى حل به وبقواته القحط وكذلك لموقف أعوانه أمراء المماليك المعادى له الذين كانوا متمركزين بالصعيد وخذلانهم له وعدم انضمامهم إليه ومناصرته ، مما اضطره إلى الرحيل من البحيرة متجها إلى الصعيد (يناير ١٨٠٧) وعند مروره بالجيزة ، انزعج «محمد على» من عودة «محمد الألفى» بهذا الحشد الكبير من الجنود الذين كانوا ينهبون ويسلبون أهل القرى التى كانت فى طريق عودتهم وكعادتهم .

وفى هذا الموقف الحرج لكليهما «محمد الألفى» و «محمد على» ، شاء القدر والحظ أن يقفا إلى جانب «محمد على» ، فكان أن مرض «محمد الألفى» مرضا عضالا ألزمه الفراش حتى قضى نحبه فى ٢٨ يناير ١٨٠٧ ، وفى أثناء مرضه وهو على فراش الموت ولى «شاهين بك» للقيام بأعباء الولاية وهنا أصبحت الأمور مواتية «لمحمد على» ليعد حملة للقضاء على باقى المماليك المسيطرين على الوجه القبلى .

التعريف بالألفى(١)

المشهور بالألفى بك الراوى جلبه بعض التجار إلى مصر فى ١١٨٩ هـ فاشتراه أحمد جاويش المعروف بالمجنون وأقام فى بيته أياما ولم تعجبه تصرفاته حيث كان ماجنا سفيها ممازحا وطلب منه بيع نفسه فباعه لسليم أغا الغزاوى المعروف بتيمور لنك وأقام عنده عده شهور ثم اهداه إلى مراد بك نظير ألف أردب من الغلال ولذلك سمى (بالألفى) وكان جميل

---

(١) الجبرتى حزء ٤ ص ٢٦ إلي ص ٣٠

الصوره فأحبه مراد بك وجعله (جو خداره) سكرتيره الخاص) ثم اعتقه وجعله كاشفا (حاكما) بالشرقية وعمر دارا بناحية الخطة المعروفة بالشيخ ضلام وأنشأ هناك حماما وكان صعب المراس قوى الشكيمة ولذا اطلق عليه (الضرغام) وبعد أن قتل ظلما جاره على أغا أمر مراد بك بنفيه إلى بحرى فى منطقة فوه ومطوبس وبارنيبال ورشيد وتعسف بالاهالى هناك ونهب منهم الغلال والاموال وحسب الاخلاق المملوكية الغاشمة واعجاب استاذه مراد بك به وقلده مراد بك السنجقية (محافظا) ١١٩٢ هـ واشتهر بالفجور وإهانة الاهالى وأنشأ دارا محميه تجاه قيسون واشترى المماليك الكثيرة ليعزز مكانته ، وتمسكا باخلاقه العدوانية الظالمة وفجوره التزم بعد ذلك بعدة جهات فى الوجه القبلى والبحرى فى فرشوط ومحله ومنه ومليج ثم تقلد كشوفيه الشرقية فى بلبيس وأقام بها واستمر فى إهانته للأهالى واستمر فى إغارته على الفلاحين وأخاف العربان وقبائل هذه الناحية ومنعهم من التعدى على الفلاحين وجعل ذلك من اختصاصه هو فقط . واستمر فى معامله العربان بالقسوه واتقن أسلوب معاملتهم وعن طريق الشده معهم حظى باعجابهم رغم خوفهم منه ولذلك أمكنه استخدام العربان واستمالتهم لتأييده فى تصرفاته الباطشة حتى فى حروبه مع خصومه حتى مماته وعندما حضر حسن باشا الجزايرلى إلى مصر خرج الالفى بك مع اتباعه من المماليك والعربان إلى الصعيد ثم عاد معهم بعد أربع سنوات فى آخر عام ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠م) بعد تفشى الطاعون فى الصعيد . وقد اكتسب فى هذه المرة رجاحه العقل والرزانه وأقلع بعض الشيء عن فجوره واهتم اهتماما كبيرا بتعليم نفسه واستغرق فى مطالعة الكتب وأحاط بكثير من العلوم والفلك والهندسة وقرب له العلماء واقتنى كتبا فى شتىء انواع العلوم والتاريخ واعتكف فى داره للاطلاع واهتم بأتباعه ومماليكه الذين كادوا ينقضون عليه لاستغراقه فى العلم وابتعاده عن اخلاق المماليك الجافة الباطشة ، وتوسع فى إقامة القصور الفاخره ، وأغدق على اتباعه وعاد فأكثر من شراء المماليك ليقوى مركزه وكان يتبعه فى ذلك الوقت حوالى الف مملوك منهم حوالى ٤٠ كاشفاً (امير مديرية) بدائرتهم وكان يزوجهم من جواريه ويصرف عليهم واهتم بناحية الشرقية وأنشأ له قصرا هناك بالقرب من بلبيس وبعد أن امتد سلطانه لعده جهات انشأ لنفسه قصرا عظيما بالازبكية ووفد عليه كثير من الافرنج كما توافد عليه عدد كبير من امراء المماليك ولاءا له وفى هذا الوقت ١٢١٢هـ (١٧٩٧م) وصلت الجيوش الفرنسية إلى الاسكندرية وتم زحفهم

إلى مصر وعند وصولهم إلى إمبابة بالبر الغربي أبلى محمد بك الألفى ومماليكه البلاء الحسن فى قتالهم وقتل من اتباعه ومماليكه عددا كبيرا ورحل هو وباقى اتباعه إلى الصعيد واستمر فى معارك عديدة لمقاومة الفرنسيين عند زحفهم على الصعيد وتسبب لهم فى خسائر عظيمة وقام اتباعه العربان بالاشتراك معه ببسالة فى القتال ضد الفرنسيين وهاجر مدة إلى الشام وكان الفرنسيون يخشونه ودبروا الخطط العديدة لاصطياده فكان يزوغ منهم ويفاجئهم بالاغارة عليهم وينال منهم واشتهر معه فى مقاومة الفرنسيين حسن بك الجداوى وإسماعيل بك كاشف (ابى قطبه) وعندما تصالح مراد بك مع الفرنسيين لم يوافقه الالفى على ذلك واعتزله واشتد فى مقاومة الفرنسيين وكان يميل إلى جانب العثمانيين عندما حضروا إلى مصر اثناء الحملة الفرنسية إلى أن تم الصلح وخرج الالفى بك مع العثمانيين إلى الشام . وتنقل فى ولائه بين العثمانيين والفرنسيين والانجليز واستقر الالفى بك فى النهاية مع الانجليز ولكنه كان لا يطمئن للانجليز ولا للعثمانيين فأخذ حذره وبخاصة من العثمانيين وكثيرا ما كان يحذر إبراهيم بك شيخ البلد منهم ولذلك فضل أن يعسكر فى بر الجيزة الغربى ونصب خيامه هناك وجعل الانجليز بين قواته وقوات العثمانيين ومن وقتها أخذ فى تحسين علاقاته بالانجليز لانهم فى اعتقاده أقل شرا عليه من العثمانيين وفى أثناء اتصاله بالانجليز اتهمه بعض اعوانه بالخيانة لاعتبارهم الانجليز اعداء الدين وخشيه أن يحكم رجال الدين عليهم بالخيانة لدولة الاسلام والرده ولكن الالفى بك كان يعتقد أن للانجليز الفضل الاكبر فى جلاء الفرنسيين ، وبدهاء ورغم عدم ثقته فى العثمانيين أمكنه رشوه الوزير العثمانى وكان يعتبره أقوى الامراء من المماليك فاصدر فرمانا وجعله اميرا على الصعيد واطلق له الاذن على أن يؤدى للدولة العثمانية الخراج .

الحمله على المماليك فى الوجه القبلى[1] :

استمرار مطاردة المماليك

أعد «محمد على» جيشا للقضاء على المماليك المسيطرين على الوجه القبلى ، وكان هذا الجيش مؤلفا من ثلاثة الاف من المشاه ومثلهم من الفرسان . سلكت هذه القوات طريقها على شاطىء النيل بينما كانت تصاحبها ست سفن مسلحة وثمانمائة مركبامحملة بالجنود والمعدات والمؤن والذخيرة ، وغادرت الحملة المكونة من هذه القوات القاهرة يوم ١٢

---

(١) عصر محمد علي للاستاذ الرافعى ص ٥١

فبراير ١٨٠٧ فى طريقها إلي المنيا حيث كانت قوات المماليك محتشدة هناك واستخدم معهم «محمد على» أسلوب الخداع بأن بعث إليهم برسل من العلماء متظاهرا بطلب الصلح ولكنه فى ذات الوقت تمكن من الاتفاق سرا مع قيادات الجنود العربان الموالين للماليك حيث استمالهم بالمال وكانوا مكلفين بحراسة قوات المماليك ، فقام هؤلاء الجنود العربان بارشاد قوات «محمد على» وتوصيلهم سرا أثناء الليل إلى داخل معسكرات المماليك الذين كانوا يغطون فى النوم مطمئنين وفاجأوهم وأوقعوا بهم واستولوا على كل مدافعهم وأسلحتهم ومعداتهم وأعملوا فيهم قتلا وذبحا وتعقبوا الفارين منهم حتى حدود الصحراء حيث تمت هزيمتهم بالقرب من أسيوط واحتل «محمد على» وقواته المدينة وأقام فيها معسكراته .

الحملة الانجليزية بقيادة «فريزر» على مصر (١٨٠٧)

فى نهاية عام ١٨٠٦ ، كان الخلاف قد دب بين الانجليز والاتراك[١] عندما انحازت تركيا إلي جانب فرنسا فعزمت إنجلترا على الانتقام من تركيا بالاعداد لغزو مصر وفى ذات الوقت لتحقيق أطماعها التاريخية فيها ، حيث وصلت إلى مصر معلومات من الآستانة فى شهر فبراير ١٨٠٧ بإعداد للحملة الانجليزية على مصر ..

تسببت هذه المعلومات عن الحملة الانجليزية فى الانزعاج والقلق فى نفوس الشعب المصرى وزعمائة ، فاجتمع الزعماء المصريون فى منزل «كتخدا بك» نائب «محمد على» وفى منزل الزعيم «عمر مكرم» حيث اتفقوا على إبلاغ «محمد على» بهذه المعلومات الذى كان يقوم بمطاردة فلول المماليك بالصعيد ، بينما شرع أهالى الاسكندرية - فى الحال - فى تحصين القلاع والابراج فى المدينة وفى ميناء أبى قير[٢] ، كما أمر «محمد على» ببناء قلعة البرلس ..

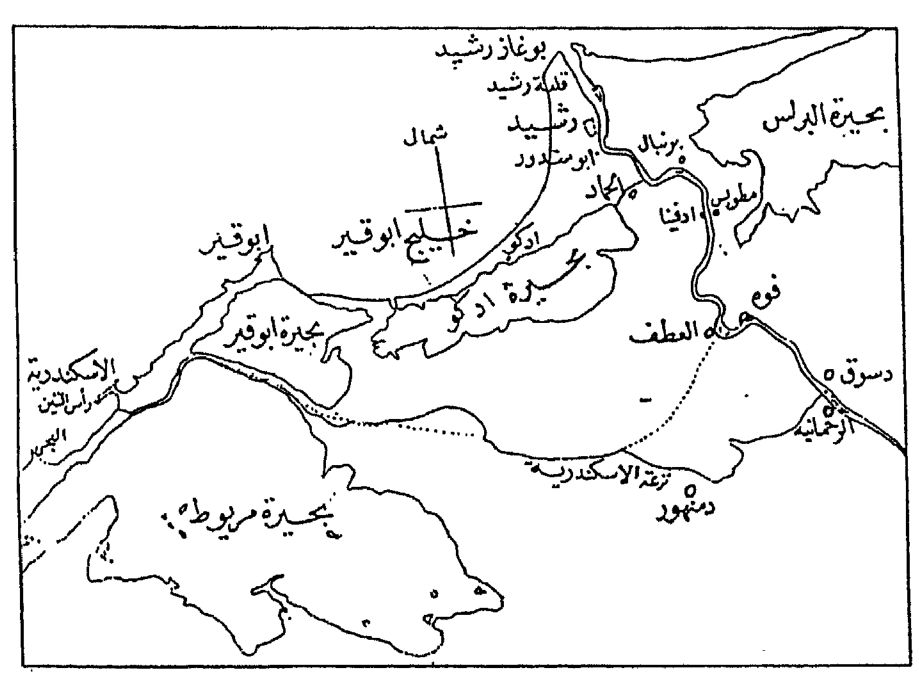
ووصل الاسطول الانجليزى إلى ميناء الاسكندرية فى ١٧ مارس ١٨٠٧ ، وكان الانجليز يتوقعون - عند وصولهم - أن يكون فى استقبالهم عميلهم وحليفهم الأمير الخائن[٣] «محمد الألفى بك» لينضم إليهم ويعاونهم بقواته فى الغزو ، ولكنه كان قد

(١) «تأملات في ثورات مصر» (الحملة الفرنسية) - للمؤلف ص ١٤٦

(٢) «الجبرتى» - جزء ٤ - ص ٢٣ ، ٢٩

(٣) «تأملات فى ثورات مصر» (الحملة الفرنسية) - للمؤلف ص ١٤٦

مات قبل أن يصل الانجليز إلى مياه الاسكندرية ، فاستعاض الانجليز عن «محمد الألفى» بخائن وعميل آخر هو «أمين أغا»[1] - محافظ الاسكندرية الذى كان متواطئا معهم من قبل ، فسهل للقوات الانجليزية عملية النزول إلى المدينة وسلمها لهم دون أية مقاومة نظير مبلغ من المال كرشوة وكان الوسيط فى هذه العملية هو قنصل إنجلترا فى الاسكندرية «الميجور ميست Miasset» ..



خريطة مواقع الحملة الإنجليزية سنة ١٨٠٧

وفى مساء ذات اليوم - ١٧ مارس ١٨٠٧ - نزلت جنود الحملة الانجليزية إلى شاطىء العجمى وإلى ميناء الاسكندرية حيث أقاموا معسكراتهم فيها وتوجهت قوات أخرى إلى ميناء أبى قير واحتلوا قلعتها ، وقام «أمين أغا» - محافظ الاسكندرية (الخائن) بتسليم نفسه ومعه حامية المدينة كأسرى حرب للقوات الانجليزية حيث بلغ عددهم ٣٠٠ خائن ، وبذلك تم احتلال الانجليز لمدينة الاسكندرية ليلة ٢١ مارس ١٨٠٧ ..

(١) «عصر محمد على» - للاستاذ / الرافعى - ص ٥٧ .

كانت الحملة الانجليزية مؤلفة من ٦٠٠٠ مقاتل بقيادة الجنرال «فريزر Fraser» مقسمة إلى فرقتين إحداهما بقيادة الجنرال «ستيوارت Steuart» والأخرى بقيادة الجنرال «ويكومب Wecomp» وعندما وصلت هذه الأنباء إلى القاهرة أحدثت إنزعاجا شديدا[١] بين أهلها خاصة حين علمهم بخيانة «أمين أغا» محافظ الاسكندرية ، وسارع الزعماء الدينيون وزعماء الطوائف الشعبية المصريون إلى إبلاغ هذه المعلومات إلى «محمد على» ويطالبونه بالحضور إلى القاهرة على وجه السرعة ومعه قواته حيث كان يطارد فلول المماليك بالصعيد ، لأن محاربة الانجليز الذين احتلوا الاسكندرية أحق وأولى بالاهتمام ..

الفصل الثانى ١٨٠٧ - ١٨٠٩

المقاومة الشعبية فى رشيد .

قام قائد الحملة الانجليزية بتوجيه جزء من قواته بلغ تعدادهم ٢٠٠٠ مقاتل إلى ميناء رشيد بقيادة الجنرال «ويكومب» يوم ٢٩ مارس ١٨٠٧ لاتخاذها قاعدة حربية للوثوب والزحف منها إلى داخل البلاد وتأهبت هذ القوة وأخذت استعدادها لدخول مدينة رشيد يوم ٣١ مارس ١٨٠٧ .

فقام «على بك السلانكلى»[١] - محافظ رشيد - بتوجيه الأوامر إلى قيادة حامية المدينة كما وجه النداء إلى الأهالى والأعيان ورجال الدين للاجتماع فورا على هيئة مؤسسة وطنية فاجمعت أراؤهم بعد التشاور على مقاومة هذا الغزو الانجليزى تحت قياد المحافظ الوطنى الشجاع ، فهب شعب رشيد بأكمله تتقدمه جنود الحامية المكونة من ٧٠٠ مقاتل حيث بدأت المقاومة الشعبية التى تولى قيادتها «على بك السلانكلى» بنفسه وكانوا جميعهم على مستوى المسئولية الوطنية .

قام المحافظ بتوزيع المقاومة الشعبية داخل المنازل خلف الأبواب والشابيك وخلف المتاريس التى أقاموها فوق الأسطح حتى يكونوا فى خفية عن أعين الأعداء ، كما أمر المحافظ كل أفراد المقاومة رجالا ونساءا وصبية وشيوخا بالتستر خلف هذه التحصينات انتظار لحين دخول الجنود الانجليز إلي شوارع المدينة الخالية بكامل عددهم[٢] ، وفى ذات الوقت أصدر المحافظ أوامره إلي جميع المراكب والمعديات المصرية بالعودة إلى البر الشرقى للنيل حتى لا يعتمد جنود الحامية إزاء المقاومة على وسيلة تؤدى إلى مجرد التفكير فى الانسحاب متمثلا بخطة القائد العربى الشجاع «طارق بن زياد» حيث كان العدو أمامهم والبحر من خلفهم ..

وانتظر المحافظ حتى تم دخول القوات الانجليزية كلها إلى داخل المدينة وانتشروا فى الطرق والأسواق مطمئنين وهم فى شدة الاعياء بعد طول المسافة التى قطعوها من

---

(١) «الجبرتى» -- جزء ٤ ص ٤٤ .

(٢) المصدر السابق - ص ٤٤ ، ٤٥

الاسكندرية إلى رشيد سيرا على الأقدام ، وهنا أصدر المحافظ الشجاع أوامره التى جاءت في الوقت المناسب تماما إلى قوات المقاومة الشعبية باطلاق النيران دفعة واحدة فأخذ الاعداء على غرة حيث انطلقت النيران من النوافذ ومن خلف الأبواب ومن فوق الأسطح فدب الذعر والرعب فى قلوب الجنود الانجليز الذين سقط منهم الكثير ما بين قتيل وجريح وقتل قائدهم الانجليزى الجنرال «ويكومب» كما قتل كثير من الضباط ، واستولى الذعر على الجنود الانجليز الناجين الذين لاذوا بالفرار ، وبذلك انتهت المعركة[1] بهزيمة القوات الانجليزية التى تقهقرت عائدة إلى الاسكندرية ، وكان ذلك بفضل الصحوة الشعبية المصرية والتى أحسن استخدامها محافظ رشيد الشجاع «على بك السلانكلى» دون أى مساعدة عسكرية ولو حتى من الوالى «محمد على» نفسه الذى كان - رغم وصول المعلومات مبكرا إليه بالصعيد عن هذا الغزو - لم يحضر فى الوقت المناسب ليقود المواجهة ضد الغزو ، حتى أن مندوب الوالى «سلمان أغا» - المكلف بتحصين القلاع والمواقع - عندما سأل أهالى رشيد عما إذا كانوا فى حاجة إلى جنود ليرسلهم إليهم لمساعدتهم ، أجابه أهالى[2] رشيد «بأن فيهم الكفاية ولايحتاجون إلى عساكر زيادة لأن العساكر إذا كثروا فى البلد نال منهم الفساد والافساد» ، وعندما وصلت أخبار هذا النصر مع جانب من الأسرى الانجليز إلى القاهرة أقيمت الاحتفالات بهذا النصر ..

وبعد ذلك وصلت إلى القاهرة معلومات من محافظ رشيد تفيد بأن الانجليز بدأوا يستعدون للانتقام ويحشدون قواتهم مرة أخرى لمقاومة قتال أهالى رشيد ، فقام الزعماء المصريون برئاسة «السيد عمر مكرم» باستنفار أهالى القاهرة للتطوع للقتال ، فدب النشاط الشعبى حيث هب الشعب المصرى عن بكرة أبيه يجمع الشباب والمؤن والاسلحة لتوصيلها إلي أهالى رشيد مما كان للصحوة الشعبية المصرية الفضل - أيضا - فى هذا التجاوب الفورى ..

---

(١) «الجبرتى» - جزء ٤ - ص ٤٧ .

(٢) المصدر السابق - ص ٤٤ ، ٤٧ .

وفى يوم ١١ أبريل ١٨٠٧[١] ، وصل خطاب من محافظ رشيد ومن «طاهر باشا» و«أحمد أغا» - الذى كان معروفا باسم «بونابرت» - إلى النقيب «عمر مكرم» يبلغونه فيه أن القوات الانجليزية استولت على موقعى (كوم الافراح) و (أبو مندور) وضمنوا خطابهم باستعجال النجدة ، وبعد ما يقرب من أسبوع وصل خطاب آخر من السيد «حسن كريت» - نقيب أشراف رشيد - ذكر فيه أن الانجليز أعادوا استعدادهم وحفروا المواقع ناحية (حماد) - قبلى رشيد - ومعهم مدافع هائلة العدد ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر إلى الجبل عرضا وطلب النجدة - أيضا - والامداد بالرجال والذخائر والاسلحة وعدم التوانى أو الاهمال .

وفى الحال تجاوب الشعب المصرى ممثلا فى المؤسسة الوطنية مع هذا الطلب ، فقام السيد «عمر مكرم»[٢] - فى الحال » وحث الأهالى والشباب للتأهب والخروج للجهاد ..

الاستعداد الشعبى المصرى للجهاد

استجابة لنداء الزعيم «عمر مكرم» ، امتثل وسارع الشعب المصرى إلى تكوين المقاومة الشعبية حاملين الاسلحة وانضم إليهم طائفة المغاربة وأتراك خان الخليلى والكثير من العدوية والاسيوطية وأولاد البلد ، وتوجه السيد «عمر مكرم» إلى «كتخدا بك» - نائب «محمد على» حيث أبلغه بهذا الاستعداد[٣] واستأذنه فى تحرك أفراد هذه المقاومة الشعبية الذين وصلوا فعلا إلى منطقة القتال - قرب رشيد - ليشاركوا شعب رشيد فى مقاومة الغزو الانجليزى الجديد ، وكانت القوات الانجليزية - هذه المرة - بقيادة الجنرال «ستيوارت Stewart» ..

أما «محمد على» فقد وصل من الوجه القبلى إلى القاهرة يوم ١٢ أبريل ١٨٠٧ وشرع فور وصوله فى إقامة الاستحكامات حول القاهرة واستعان بأفراد الشعب وزعمائه فى الاسراع بعمل هذه التجهيزات الدفاعية تحسبا لأى تقدم من جانب الانجليز نحو القاهرة

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق - ص ٥٠ .

(٣) «تأملات فى مقاومة الحملة الفرنسية» - للمؤلف - ص ١٥١ ، ١٥٢

كما أخذ فى تجهيز قوة كبيرة بمعاونة الزعيم «عمر مكرم» الذى قام بجمع الأموال والتبرعات الشعبية اللازمة لنفقات الجيش الذى كان وقتها أهالى رشيد يلحون فى طلبه لنجدتهم حيث تم تجهيز جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل من المشاة وألف وخمسمائة من الفرسان وأخذت هذه القوات طريقها إلى رشيد تحت قيادة «طبوز أوغلى» - (كتخدا بك) - نائب «محمد على» .

العمليات الحربية الانجليزية

أما جيش الجنرال «ستيوارت Stewart» فكان تعداده أربعة آلاف جندى وقد تمكن منذ أول أبريل ١٨٠٧ من احتلال (الحماد) - جنوب رشيد - لتطويق المدينة ومحاصرتها ثم قامت هذه القوات الانجليزية باحتلال مرتفعات (أبو مندور) ونصبوا عليها المدافع لضرب المدينة ..

وبدأ الانجليز فى ضرب مدينة رشيد بالمدافع فى اليوم السابع من شهر أبريل ووجه القائد الانجليزى إنذاراً إلى الأهالى بتسليم المدينة ولكن الأهالى رفضوا الاستسلام وصمدوا فى مواجهة الغزو وصمموا على المقاومة بالرغم مما أصابهم من خسائر جسيمة ، وكان عدد كبير من المجاهدين والفدائيين من شعب القاهرة وغيرها من الأقاليم قد اشتركوا مع شعب رشيد فى المقاومة حيث كانوا يخرجون من أن إلى آخر من المدينة لمقاومة القوات الانجليزية واستمر الحصار والالتحام نحو إثنى عشر يوما دون أن يحقق الانجليز أية بوادر للانتصار ، مما جعل الجنرال «ستيوارت» يرسل خطابا إلى قائده «فريزر» قال فيه : (لقد تبين لنا أن أعداءنا «شعب رشيد» لايكترثون بالمصائب التى تنزل بهم رغم أن أغلبهم من الأهالى المسلحين) ، وظل أهالى رشيد صامدين فى المقاومة حتى وصل إليهم الامداد العسكرى من «محمد على» و «عمر مكرم» صباح يوم ٢٠ أبريل ١٨٠٧ حيث وصلت طلائع من قوات الجيش المصرى من الفرسان بقيادة «حسن باشا» واتخذت طريقها فى إتجاه (الحماد) حيث مواقع القوات الانجليزية التى سارعت إلى الانسحاب من مواقعها بدون نظام وأحاطت بهم وحاصرتهم قوات الفرسان المصرية وأنزلت بهم خسائر جسيمة ، وعلى أثر ذلك وصلت إلى (الحماد) إمدادات للقوات الانجليزية إلاّ أنها لم تتمكن من الصمود

والتصدى لهجمات القوات المصرية المتفوقة عددا وعدة ، وكانت القوات الانجليزية تأمل فى وصول مدد آخر لهم من المماليك الخونة حسبما كان الاتفاق بينهما ..

وفى ذات اليوم - ٢٠ أبريل ١٨٠٧ - ليلاً تمكنت قوات كثيرة العدد بقيادة «طبوز أوغلى» - لاظ أوغلى - من الانضمام إلى القوات المصرية الأخرى بقيادة «حسن باشا» وأحكمت حصارها وانتشرت فى مواقع استراتيجية حول (الحماد) وعلي امتداد السهل الساحلى حيث كان صباح يوم ٢١ أبريل فوجىء الكولونيل (ماكلود) قائد القوات الانجليزية بأن القوات المصرية قد تزايد عددها بدرجة كبيرة وامتلأ السهل الساحلى برجالها فقام القائد الانجليزى (ماكلويد) بابلاغ هذه الأوضاع الجديدة إلى الجنرال «ستيوارت» الذى أمره بالانسحاب إلى مواقع الجيش الانجليزى المتمركزه حول رشيد ، ولكن قوات الفرسان المصرية انقضت عليهم على امتداد السهل الساحلى فقطعت بذلك عليهم خط الانسحاب بين الحماد ورشيد ، فسادت الفوضى والارتباك صفوف القوات الانجليزية ، وتمكنت قوات الفرسان المصرية من الفتك بهم بينما تمكنت قوات المشاة المصرية من احتلال الحماد واستردادها ، وكانت الخسائر فى صفوف القوات الانجليزية فادحة حيث قتل منهم الكثير كما قتل قائدهم «الكولونيل ماكلود» كما واصلت القوات المصرية مطاردتها لبقية القوات الانجليزية حيث قتلت منهم عددا كبيرا وقتل معهم «الكابتن ترلتون» وبذلك لم يتبق من قوات الجيش الانجليزى سوى خمسين جنديا وقعوا جميعهم فى الأسر وبذلك لم يكن أمام بقية القوات الانجليزية بقيادة «الميجور جلستين» سوى التسليم واستسلم فعلا هو وما تبقى معه من الجنود الانجليز ..

وبذلك كانت هذه هى خاتمة هذه المعركة ، فسارع «الجنرال ستيوارت Stewart» إلى رفع الحصار عن رشيد حيث بادر بالانسحاب قبل أن تنقض القوات المصرية المتقدمة على قواته ، ولكن الأهالى المصريين المجاهدين استمروا فى مطاردتهم للقوات الانجليزية المنسحبة حتي وصلت إلى أبى قير حيث بلغ بها الاجهاد أشده مما جعل «الجنرال ستيوارت» يسارع إلى سحب كل قواته الانجليزية السابق دفعها إلى رشيد والانسحاب بسفنها إلى ميناء الاسكندرية ..

جلاء الانجليز ١٩ سبتمبر سنة ١٨٠٧ :

فى هذا الوقت كان «محمد على» قد وصل إلى دمنهور علي رأس جيش مكون من ثلاثة آلاف مقاتل وألفا من الفرسان حيث تقابل هناك مع الجنرال «سيربروك» الذى كان مفوضا من الجنرال «فريزر» القائد الانجليزى - لابرام اتفاقية صلح وتم التوقيع على هذه المعاهدة يوم ١٤ سبتمبر ١٨٠٧ والتى نصت على جلاء الانجليز نهائيا عن الأراضى المصرية فى مقابل استرجاع الانجليز لكل أسراهم وجرحاهم ، وبالفعل تم الجلاء يوم ١٩ سبتمبر ١٨٠٧ ..

وبذلك كان الفضل الاكبر فى هذا النصر المبين راجعا إلى الصحوة الوطنية الشعبية المصرية وزعمائها الحكماء كما كانت قوات المجاهدين المتطوعين هى العامل الرئيسى لهذا النصر الذى تحقق بالصمود والتصدى للغزو الانجليزى البغيض الذى تخلصت منه مصر وهزمته الصحوة الشعبية المصرية ..

فقد فشلت حملة الجنرال «فريزر» فشلا ذريعا وانسحبت تجر أذيال الهزيمة والانكسار بعد أن مكثت قواتها بالأراضى المصرية ستة أشهر فقط ..

ومكث «محمد على» فى الاسكندرية بضعة أيام ثم غادرها بصحبة «حسن باشا» عن طريق رشيد متجها فى النيل إلى القاهرة فوصلها فى أكتوبر ١٨٠٧ حيث احتفلت القاهرة بعودته منتصرا على الانجليز واستمرت الاحتفالات ثلاثة أيام ، كما كان هذا الانتصار مبعث ابتهاج عظيم لدى السلطان التركى «محمود» لما كان بينه وبين الانجليز من عداء مستحكم ، فأرسل إلى «محمد على» رسولا حاملا الهدايا إظهارا لابتهاجه ، وكذلك أنعم السلطان على «إبراهيم بك وطوسون بك وحسن باشا وطاهر باشا والسيد عمر مكرم وعابدين بك و عمر بك وصالح قوش» بالرتب والنياشين ، كما قامت تركيا باعادة «إبراهيم باشا» - ابن «محمد على» - إلى مصر بعد أن كانت تتخذه كرهينه لتأدية الأربعة آلاف كيس من النقود التى كان قد التزم بأدائها «محمد على» للسلطان بالآستانة .

محمد على حاكما غير عادى

أسلوب «محمد على» بعد جلاء الانجليز

إن المحن المتمثلة فى المؤامرات المتوالية التى حيكت ضد «محمد على» - منذ ولايته على مصر التى تولاها بارادة الشعب المصرى وصحوته وبتزكية الزعماء المصريين وعلى رأسهم «السيد عمر مكرم» - والتى استمرت هذه المؤامرات تتوالى عليه حتى أكتوبر ١٨٠٧ وخروجه منها جميعا منتصرا ليس فقط على الانجليز بل وعلي الارادة السلطانية العثمانية فى الآستانة ، هذا الانتصار جعل من «محمد على» واليا تركيا غير عادى ، إذ أصبح «محمد على» حاكما لمصر مستقلا بها - تقريبا - عن الدولة العثمانية خاصة عندما قام الجانب البريطانى بالتفاوض مع «محمد على» كند لهم وفى غياب الجانب العثمانى .

كل ذلك أدى إلى تطلع «محمد على» إلى إمكان تكوين إمبراطورية مصرية مستقلة عن الدولة العثمانية التى أخذت طريقها إلى الضعف وأصبحت آيلة للسقوط ، فكان أمام «محمد على» - حتى هذا التاريخ - عدة مصاعب تغلب عليها أهمها :

(١) المماليك : الذين كانوا يمثلون تهديدا مستمرا له ، خاصة وأنه لم يكن قد تمكن من تطهير مناطق الوجه القبلى منهم رغم وفاة أميريهم «البرديسى» و«الألفى» ورغم الخلافات والتناحر بين أتباعهما ، كما أن هؤلاء المماليك كانوا هم حثالة الجنس البشرى الغير منتم إلا لمصالحه الشخصية .

(٢) الجنود الأتراك «الدلاة» : وهم الذين جبلوا على جنوحهم للسلب والنهب لأموال وممتلكات الأهالى المصريين وعدم الالتزام بالنظام العسكرى لتخلف مستواهم عن مستوى الجندية فى العالم المتقدم وبالذات الأوربيين الذين كانت كل مطامعهم متجهة إلى مصر وإلى الدولة العثمانية للسيطرة عليهما وتكررت محاولات تحقيق هذه المطامع - ولن تنتهى - فقد كان المثل الأقرب لذلك هو حملة «فريزر» الأخيرة ، وقد تأكد لدى «محمد على» عدم إمكانه الاعتماد فى صراعه المحتمل ضد العالم الغربى وأطماعه على مثل هؤلاء الجنود الأتراك المتخلفين ، إذ كانت أمام ناظرية تجاربه مع الشعب المصرى عندما انتظم أفراده فى صفوف المقاومة ضد الانجلز فى رشيد وفى باقى المعارك حيث أثبت الكفاءة والروح المعنوية العالية مما يمكنه من إمكان الاعتماد عليهم فى المستقبل.

(٣) الزعامات الوطنية المصرية : وكان «محمد على» كثيرا ما يرجع إليهم للتشاور بحكم الميثاق الذى كان مأخوذاً عليه بوجوب الرجوع للشعب فى المهام الحيوية وبما عودهم عليه «محمد على» بالاستعانة بهم دائما فى جمع الأموال الضرورية كضرائب لدفع مرتبات الجنود وما تتكلفه العمليات الحربية سواء لمطاردة المماليك أو لمواجهة الجنود العثمانيين فى بعض مواقف الصراع مع الدولة العثمانية . وفى متطلبات حملة فريزر .

(٤) الحالة المالية المتدهورة فى مصر : وكان ذلك ناشئا بحكم تحكم عناصر الملتزمين وجباة الأموال وفساد الادارة فى الحكومة المصرية بما ورثته من تخلف عثمانى ومملوكى ، كل ذلك رغم توافر عناصر الثروة وإمكان إستثمارها بتحديث الإدارة الحكومية فى مصر ومصادر إنتاجها من مياه وأرض وخيرات وأيدى عاملة نشيطة ومثابرة وصبر تحمل فى طياتها - بعد صحوتها عقب الحملة الفرنسية - معالم التقدم والحضارة لمسايرة الحياة العصرية فى الممالك المتقدمة .

«محمد على» يؤهل نفسه لحكم مصر والاستقلال بها[1] :

من المعروف أن «محمد على» نشأ نشأة متواضعة ، فكان أميا لم ينل حظه من التعليم ولو حتى مراحله الأولى ، ولكن كان يتمتع بقدر كبير من المواهب المتمثلة فى الذكاء الخارق وبعد النظر وسعة الحيلة الفطرية ، فقد جاء إلي مصر ضابطا صغيرا فى صفوف الحملة العثمانية التى جردتها تركيا لاخراج الفرنسيين من مصر وشهد انتهاء الحملة الفرنسية ورحيل الفرنسيين من مصر ، وقد لاحظ بقدراته الفطرية العظيمة التى كان يتمتع بها ما تحمله الأمة المصرية من نزوع إلى الحرية والاستقلال والصبر والذكاء مكنتها بفضل الصحوة الشعبية من تحقيق النصر على أعتى الدول الاستعمارية (فرنسا) ، حيث اتخذ من هذا الشعب سنداً له حتى استطاع أن يصل بهذا الشعب وزعاماته الوطنية الواعية إلي حكم البلاد المطلق وليس بارادة الانجليز أو الأتراك أو المماليك أو بأى عون من أى منهم ، ومن هنا بدأ «محمد على» يخطط ويرسم لنفسه خطة للاستقلال لمصر - بعد أن توطد مركزه واستتب له الأمر - فأخذ على عاتقه المضى قدما فى تشجيع وتقوية وتدعيم الصحوة الشعبية المصرية بنشر العلم والمعرفة فى كل ربوع وادى النيل على امتداد مصر ،

(١) «عصر محمد على» - للاستاذ / الرافعي - ص ٥٥٥ ، ٥٥٦

ولذلك وبدءاً من هذه المرحلة بدأ على الفور - وهو فى سن الأربعين - يتخطى مراحل نشأته الأولى حتى يكون على مستوى حكام الغرب ويحقق لنفسه مستوى الحكام العظام فى عصره ، فبدأ فى تعلم القراءة والكتابة .

تمرد الجنود الأتراك[1]

بعد أن تحقق النصر وتخلص «محمد على» من الحملة الانجليزية ، كان ينوى تجهيز حملة على معاقل المماليك المتمركزين والمنتشرين فى الوجه القبلى ، إلاَّ أنه فوجىء ببوادر تمرد الجنود الأتراك الذين دأبوا على اتباع أساليب النهب والسلب عقب كل حملة خاصة عندما يكونوا منتصرين وذلك لضآلة مرتباتهم وتآخر صرفها إليهم ، فآثر البدء بالتعامل بالحسم والحكمة مع هذه الفتنة الجديدة التى بدأت تتفشى بين صفوف جيشه حيث ضج الأهالى المصريون فى القاهرة وقرى الاقاليم بالشكوى من مسلك هؤلاء الجنود فى السلب والنهب وإخلالهم بالنظام والاستهانة بالأرواح والممتلكهات والأموال ، وكان أغلب هؤلاء الجنود المتمردون من غير النظاميين وبقيتهم من الدلاة الذين سبق لهم الانضمام إلى «محمد الألفى» تحت قيادة قائدهم المتقلب «إبراهيم أغا» الذى جاء إلى القاهرة وأخذ وجنوده يعيثون فيها فساداً بعد وفاة «محمد الألفى» .

وفى ٢٨ أكتوبر ١٨٠٧ اتخذ جميع الجنود المتمردون طريقهم إلى سراى الازبكية - التى كان يتخذها «محمد على» مقرا له - يضجون مطالبين برواتبهم المتأخرة وأخذوا يطلقون النيران على أبواب السراى حتى نفدت ذخيرتهم فانصرفوا ثم حضر بعدهم ببضع ساعات مجموعة أخرى من الجنود الدلاة الذين قاموا أيضا بالاعتداء على سراى الازبكية باطلاق النيران مما أدى إلى فزع الأهالى المصريين والرعب بينهم فتنبهوا إلى هذه الفتنة وإحتاطوا لها ، وبدأ «محمد على» التصرف بحكمة حيث تنبأ بتصاعد الموقف لدرجة إمكان الفتك به فى السراى ، فسارع إلى الانتقال سراً فى الليل من سراى الازبكية إلى سراى القلعة الحصينة حيث كانت سراى الازبكية مكشوفة ومن السهل اقتحامها ، فلما علم الجنود المتمردون فى اليوم التالى بانتقال «محمد على» إلى سراى القلعة الحصينة تصاعدوا فى تمردهم وأخذوا ينهبون ويسلبون سراى الازبكية وتفرقوا فى مناطق مختلفة

---

(١) المصدر السابق - ص ٧٨ .

. ـ ـه هر ، واسـتمروا فى نهب وسلب الأهالى والدكاكين والاعتداء على الأهالى واستمرت هذه
ـ ـ سنه ايـ ، حيث اضطربت القاهرة وكاد الأمن والنظام يفلتان ، وعند هذا الحد تدخل
ـ عـ ـ « عـمر مكرم » مع باقى الزعـمـاء والعلمـاء المصريين لإنقـاذ الموقف حيث اتصلوا
ـ بوالى « محمد على » فى القلعة وعرضوا عليه - إنقاذ للموقف - أن يجمعوا جزءاً من
ـ ن من الاهالى والتجار للحكومة يعادل جانبا من الرواتب المتأخرة لهؤلاء الجنود المتمردين
. فعلاً قـ ـ الزعمـاء المصريون بجمع الأموال وسلموا الجنود رواتبهم بعد أن تم إقناعهم
ـ ـ ـ الاخلاد إلى السكينة مقابل هذه الأموال التى بلغت خمسين كيسا ، واستتب الأمن
ـ ـكـ ـه مؤقتا ولكن كان ذلك على حساب الأهالى المصريين ، وبادر « محمد على »
ـ ـ ـد اجراءات تتسم بالحسم والتعقل إذ بدأ بالتخلص من الجنود المتمردين الدلاة بأن نفى
ـ ـ ـهم « إبراهيم أغا » الذى لم يذعن لهذا النفى إلاّ بعد توسط قادة الجنود التابعين للوالى
« محمد على » وهما « عمر بك » و« صالح بك قوش » ، ثم بدأ « محمد على » بعد ذلك
ـ ـ ـ مل بهدوء مع الجنود بعد نفى قائدهم ولكنه شرع - فى نفس الوقت - فى تكوين
جيش مصرى والتخلص من الجنود الغير نظاميين اقتناعا منه بأن أصوب الرأى أن يكون له
جيش جديدا أساسه الولاء والطاعة والنظام والامتثال للرؤساء لأنه طالما كان جيش الحكومة
يتكون من هذا الخليط من العناصر المعتادة على الاخلال بالنظام فلن يكون هناك أمن ولا
استقرار بالبلاد ولايمكن أن تستقيم شئونها ، وكانت هذه هى أساس فكرة « محمد على »
فى تكوين جيش مصرى بالتدريج تجنبا لنتائج حدة التغييرات الفجائية وخطورة الأمر من
جراء مثل هذه التغيرات ، فأخذ يتخلص تدريجيا من الجنود الأتراك والدلاة ممهدا لتأسيس
الجيش المصرى النظامى .

بداية نظام حكم مصر المستقر

بعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، عاد نظام الحكم الذى كان سائدا أيام المماليك وهو
النظام الذى كان قد وضعه السلطان سليم - العثمانى - حيث كان هذا النظام كالآتى :

(١) الوالى التركى :

وكان مقره القلعة ويعين بفرمان سلطانى ، وكان مكلفا بتنفيذ أوامر السلطان .

(٢) رؤساء الجند الأتراك (العثمانيون) :

وكانوا يرأسون فرق تسمى «الوجاقات» وكانت وظيفتهم حفظ النظام فى البلاد والدفاع عن الأراضى المصرية ، وكانوا يخضعون لأوامر الوالى فى هذه المجالات .

(٣) الأمراء المماليك :

وكان يصدر بشأن تعيينهم وتحديد مجالات أعمالهم مراسيم سلطانية ومنهم «السناجق» وهم مديرو المديريات الخمسة الكبرى ، و«الكشافة» وهم مديرو المديريات الصغرى وكان يصدر قرار تعيينهم من الوالى العثمانى من مقر ولايته فى القلعة ، وكان يرأس هؤلاء «الكشافة» أميراً مملوكيا يلقب «شيخ البلد» ، وكان الأمراء المماليك يباشرون سلطاتهم حسب نظام الحكم الذى كان يهدف لحفظ التوازن مع سلطات الوالى بحيث يمكنهم فى بعض الظروف وباجماع آرائهم عزل هذا الوالى وإبلاغ السلطان بذلك .

واستمر هذا النظام للحكم بعد حالة عدم الاستقرار التى أعقبت جلاء الحملة الفرنسية عن البلاد إلى أن تولى «محمد على باشا» الولاية باجماع إرادة الشعب المصرى بجميع زعمائة وطوائفه وبعد انتصار مصر على حملة «فريزر» الانجليزية ، وضع «محمد على باشا» نظاما جديداً لحكم مصر بديلا للنظام المملوكى التقليدى بما كان عليه من الفوضى والارتباك وعدم شعور المماليك بالولاء إلاَّ لأنفسهم ..

وضع نظام للحكم

وكان «محمد على» فى بادىء حكمه قد وضع نظاما يقضى بتكوين بعض[١] المجالس أو الدواوين التى كان يرجع إليها فى تسيير مختلف شئون البلاد وهى :

(١) مجلس «الديوان العالى» .. (أى مجلس الوزراء) :

وكان مقره القلعة حيث كان «محمد على باشا» يعقد الاجتماعات مع أعضاء هذا الديوان للتشاور فى الشئون المتعلقة بالحكومة قبل الشروع فى تنفيذها ، وكان رئيس هذا الديوان يلقب «كتخدا بك أو كتخدا باشا» ويمثل وكيل الوالى أو نائبه وله سلطة واسعة فى إدارة كافة شئون الحكومة أى أنه بمثابة رئيس وزراء بالإضافة إلى منصب وزير الضبطية (الداخلية) وكان من أكفأ وأشهر من تولى هذا المنصب هو «إبراهيم باشا» نجل «محمد

(١) عصر محمد على للاستاذ الرافعى من ص ٥١٥ إلى ص ٥٢٠ .

على باشا » .

(٢) الدواوين الفرعية .. (الوزارات) :

وكانت هذه المجالس بمثابة وزارات ، كل منها يختص بجانب من إدارة البلاد وكلها تتبع وتتفرع من الديوان العالى .. وهى :

(أ) ديوان الجهادية .. (الحربية) .

(ب) ديوان التجارة .

(جـ) ديوان الشئون الخارجية .

(د) ديوان المدارس (المعارف العمومية) .

(هـ) ديوان الأبنية .. (التعمير والإسكان) .

(و) ديوان الأشغال .

وكانت مهام هذه الدواوين تتمثل فيما يلى :

- ديوان الجهادية .. (الحربية) :

عندما جاءت الحملة الفرنسية وألغت نظام الفرق العسكرية (الدفاعات) ، ثم جاء «محمد على» فأنشأ ديوان الجهادية ليتولى كافة شئون القوات العسكرية والتى كانت تتألف من الجنود الأرناؤوط والأتراك والدلاة وبعض من فرسان العربان المصريين .

- أما ديوان الضبطية أو البوليس .. (الداخلية) :

فكان مسئولا عن الأمن وحفظ النظام وتحقيق الأمان فى جميع أنحاء مصر ، وهو الأمر الهام الذى حققه «محمد على» فى مصر بل وفى كل البلاد التى حكمها بعد ذلك ، وكان هذا الديوان يضم ضباطا موزعين فى أنحاء «القاهرة» - عاصمة البلاد - وفى سائر المديريات ، وكان واجبهم الأساسى هو حفظ الأمن وتحقيق الأمان والسلامة للأهالى فكانت أوامر هؤلاء الضباط وإجراءاتهم صارمة ، كما كان ضمن واجبات هذا الديوان أيضا مراقبة لأسواق التجارية وقد خصص لذلك موظفون يطلق عليهم «المحتسبون» .

- أما النظام القضائى :

فإنه على مدى حكم «محمد على باشا» للبلاد فلم يطرأ عليه ثمة تغيير عن النظام القضائى الذى كان ساريا منذ أيام المماليك سوى أن «محمد على» أعطى للديوان العام (رئيس الوزراء) حق الأشراف على هذا النظام القضائى .

- وأما النظام المالى والاقتصادى :

فقد استمر النظام المالى والاقتصادى فى مصر بداية عهد «محمد على باشا» على ما كان عليه أيام حكم المماليك ، حيث كانت الأراضى الزراعية موزعة بين الفلاحين والملتزمين والأوقاف ، إذ كان الفلاحون يمتلكون الجزء القليل من الأراضى الزراعية ينتفعون بها ويتوارثونها ماداموا يدفعون ما فرض عليهم من ضرائب وإتاوات التى كان يقوم بتحصيلها الملتزمون الذين كانوا يتحكمون ويسيطرون على القرى فى الأقاليم فيأخذونها التزاما ليتصرفوا فيها تصرف الملاك فى أملاكهم وذلك نظير التزامهم للحكومة بدفع مبالغ محددة من المال بصرف النظر عن المبالغ الطائلة التى كانوا يجمعونها بمعرفتهم وحسب أهوائهم دون رقابة أو متابعة أومساءلة من جانب الحكومة التى كانت تكتفى بالمبالغ المحددة التى تسلم إليها حسب الاتفاق مع الملتزم ، واستمر هذا النظام المالى - المملوكى - ساريا أيام حكم «محمد على» إلى أن تمكن من القضاء على المماليك فى مذبحة القلعة الشهيرة فى أول مارس ١٨١١ .

واستمر «محمد على باشا» فى حكم مصر على هذا النهج وبهذا النظام إلى أن تحقق الاستقرار للحكومة وتقدمت شئونها ثم إتسعت رقعة البلاد تحت حكم «محمد على باشا» بعد حرب الحجاز وبعد التوجه المصرى إلى السودان وحتى عام ١٨٢٩ .

وفى هذه الفترة قام محمد على بالقضاء على نظام الملتزمين حتى يمكنه جمع الضرائب بالكامل لحساب الحكومة ليتمكن من الصرف على تنمية البلاد .

تعامل «محمد على» مع الزعامة الشعبية (بعد إخفاق الحملة الانجليزية)

بعد إخفاق الحملة الانجليزية على مصر (١٨٠٧) ، بدأ «محمد على» يستشعر الاستقرار لحكمه وبصفة خاصة بعد تمكنه من التغلب على الفتنة التى افتعلها الجنود

«الارناؤود» و«الدلاة» ، ورغم أن الجانب الأكبر من هذا الاستقرار كان قد تحقق بفضل تكاتف وتضامن الزعامات الشعبية المصرية ووقوفهم صفا واحدا لمؤازرة «محمد على» . إلاّ أنه - وكمعظم الحكام الشرقيين فى ذلك الوقت حتى العظماء منهم فقد كانوا دائما أول ما يخشون على سلطانهم - بعد تغلبهم على أعدائهم - هى خشية العناصر التى سبق وأن ساعدتهم فى الوصول إلي كرسى الحكم والتى لها الفضل فى تثبيت حكمهم - وكقاعدة عامة - فإن أى حاكم فى مستوي ذكاء ودهاء ولماحة «محمد على» ، كان فى قرارة نفسه يحمل للزعامة الشعبية المصرية جانبا من التحفظ والتبرم لأنها كانت دائما تذكره بفضلها عليه بحكم تفوقها عنه فى القدرة علي امتلاك زمام الشعب إذ أنها وبكلمة منها كانت دائما قادرة على جمع كلمة الشعب ومساندة «محمد على» ووقوفها بجانبه ضد أعدائه حتى لمستوى التضحية بالنفس وبالمال لأجل تحقيق أهداف «محمد على» وإبعاد الأخطار عنه وكل ذلك طاعة وتنفيذ لتوجيهات الزعامات الوطنية المترفعة والزاهدة فى الدنيا ، وبذكائه الفطرى وبمقدرته الغير محدودة فى مراقبة الأمور والاستفادة منها لأقصى حد ، فإن «محمد على» لاحظ منذ أواخر عام ١٨٠٥ ، أنه كانت هناك بعض المآخذ على سلوك وتصرفات بعض الزعامات الدينية الوطنية المصرية ، كما أن الفرقة كانت قد بدأت وقتها تدب بين صفوف هذه الزعامات .

ففى نوفمبر ١٨٠٩[(١)] ، وقعت منافسات بين بعض رجال الأزهر وأدى احتدامها إلى أن انقسموا إلى حزبين أحدهما تزعمه الشيخ «عبد الله الشرقاوى» والاخر تزعمه الشيخ «محمد الأمير» وتميز الحزب الثانى بالأكثرية العددية مما مكنهم من تنصيب الشيخ «محمد الأمير» ناظرا على الجامع الأزهر حيث كانت النظارة شاغرة منذ أيام الحملة الفرنسية وكان يتقلد هذاالمنصب قبل ذلك أحد أمراء المماليك وبخروج المماليك من مصر صار هذا المنصب تابعاً لمشيخة الأزهر ، وكان «السيد عمر مكرم» ضمن الذين أيدوا الشيخ «محمد الأمير» ، وكان لهذه المشيخة الحق فى إدارة نظارة الجامع الأزهر وإدارة النظارة على أوقاف الأزهر الغنية .

وحتى بعد فوز الشيخ «محمد الأمير» وتنصيبه ناظراً على الجامع الأزهر وأوقافه ،

---

(١) الجبرتى - جزء ٤ - ص ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧

إلاَّ أن الخلاف استمر واستشرى مما إضطر أحد العلماء من المشايخ الأجلاء وهو العالم الشيخ «السجينى» إلى محاولة رأب الصدع وتحقيق الصلح والوفاق بين الفريقين وقد تم ذلك فعلا إلاَّ أن ذلك كان ظاهريا ..

ولم يخف هذا الأمر على «محمد على» واستثمر هذا التنافس والخلاف بين الزعامات الدينية فعمل على تغذية واستشراء غريزة الضعف البشرى أمام العنصر المادى التى دبت بين صفوف هؤلاء العلماء المشايخ ، إذ أنه بينما كان يعد ويستعد لوضع قواعد ثابتة تضمن حصول الحكومة على أكبر جانب ممكن من الأموال وليتمكن من تحقيق وإتمام الاصلاحات الواجب القيام بها لصالح الأهالى ، فقد قام «محمد على» بفرض ضريبة[1] المال الميرى على الأراضى الموقوفة وهى المعروفة «بالرزق الأحباسية» - أى المخصصة للصرف على المساجد والسبائل والخيرات وكذلك على أطيان «الأوسية» التى كانت ملكا خاصا للملتزمين نظير قيامهم بجمع الضرائب (وكانت كلها ، معفاه من الضرائب قبل ذلك) ..

وحتى يتمكن من ضبط حسابات الضرائب الأميرية ، أمر «محمد على» بفحص الحجج الخاصة بكل هذه الأطيان وحصرها لدقة تحصيل الضرائب التى فرضها عليها حيث لم يكن قد تم حصرها إطلاقا من قبل مما قد كان يشجع على التهرب من دفع هذه الضرائب كما أمر «محمد على» بالاستيلاء على جميع الأراضى التى لم يظهر لها حجج بوقفها ، وإضافة إلى ذلك كلة قررت الحكومة إلزام جميع الملتزمين بأن يؤدوا إليها نصف الفائض مما يجمعوه من أموال والتى كانت هى إيرادهم من الأطيان الداخلة فى التزامهم وكانت حقا خالصا لهم .

ومع كل هذه الإجراءات ، فقد تعمد «محمد على» إعفاء الشيوخ العلماء من هذه الضرائب - لغرض فى نفسه وهو ضمان تأييدهم وعدم معارضته - فأعفى أملاكهم وضياعهم وما دخل فى التزامهم من دفع ضريبة (الفائض) وكذلك أعفى كل من ينتمون إليهم وذلك مراعاة لارضاء هؤلاء المشايخ ، وقد كان القرار بهذا الاعفاء - فى أول الأمر - بغرض الحصول على تأييدهم له والوقوف دائما فى صفه لمواجهة أعدائه ، إلاَّ أنه بعد ذلك جعل من هذا الإعفاء سلاحا ضدهم ليظهر جشعهم أمام الشعب عند اللزوم - أى عندما

---

(١) « عصر محمد على» - للاستاذ / الرافعي - ص ٨٦ .

يسقط فى يدهم ويضطرون للوقوف فى وجهه إلى جانب الشعب عندما يتظلم الشعب من الوالى نفسه (محمد على) - «مالك الذهب والسيف» ..

ولم يكن من بين زعماء الشعب من كان «محمد على» يحسب له حسابا كبيرا إلاّ «السيد عمر مكرم» - نقيب الأشراف - ، فقد كان يتمثل فيه دائما تاريخ الثورة ضد الحملة الفرنسية ولم يتطلع أبداً للمنافع الشخصية أو المغريات المادية الدنيوية فلم تزعزعه الكوارث والملمات ولم تفت فى عضده التهديدات فقد ظل مثلا للنزاهة والاستقامة حتى آخر حياته وكان يؤيده بعض المشايخ العلماء ولكن أغلبهم تحت مغريات محمد على المادية انصرفوا عنه وانفضوا من حوله سعيا وراء المنافع الشخصية الدنيوية من جانب ولممالأة الوالى - «محمد على» - من جانب آخر بعد أن تملكوا الكثير من الضياع والديار والقصور وتعودوا على حياة الرفاهية والبذخ ومعيشة الأثرياء والمماليك البكوات ..

ومن هنا تحققت غلبة «محمد على» على هذه الزعامات إلاّ الزعامة الأصيلة زعامة «السيد عمر مكرم» النزيهة المترفعة عن الصغار .

وفى آخر اكتوبر ١٨٠٧ ، أصدر «محمد على» أوامره بإبطال الامتياز الذى كان قد سبق أن منحه للمشايخ بإعفائهم من الضرائب وقرر أن يقوموا بأداء هذه الضرائب العقارية على كافة ممتلكاتهم أسوة بباقى طوائف الشعب .

القحط الذى أصاب مصر عام ١٨٠٨

فى أغسطس ١٨٠٨ ، جاء فيضان النيل منخفضا فنقص منسوب المياه نقصا شديداً لم يكن كافيا للزراعة وغيرها من الاستخدامات ، فارتفعت أسعار المحاصيل الزراعية خاصة الغلال التى قلت فى الأسواق واشتد الغلاء ، فلجأ الأهالى - كعادتهم - إلى المشايخ العلماء الذين توسطوا - بدورهم - لدى «محمد على» بالشكوى من كثرة الضرائب وطلبوا رفع هذه المظالم إليه ليخفف عنهم أعباءها ..

بداية الخلاف بين «محمد على» والمشايخ العلماء[1]

ففى عام (١٢٢٤هـ - ١٨٠٩م) ، كان «محمد على» قد قرر فرض هذه الضرائب

(١) «الجبرتى» - جزء ٤ - ص ٩٥ - ٩٦ ، ٩٧ .

بغرض تحسين أحوال مصر والارتفاع بمستواها وتوفير أسباب المنعة والقوة للبلاد – رغم حالة القحط التي ألمت بالبلاد ، وفى نفس الوقت الذى كان «محمد على» قد راعى خواطر هؤلاء المشايخ العلماء باعفائهم من هذه الضرائب – لغرض فى نفسه – حيث كان من وجهة نظره أنه من الواجب أن يتحمل الجميع هذه الأزمة – حكاما ومحكومين على اختلاف مواقعهم – فقد غضب «محمد على» من مطالب العلماء غضبا شديدا ونسب إليهم وفى مواجهتهم ظلم الأهالى أفراد الشعب بمقولة أنه عندما قرر إعفاء العلماء من الضرائب على أطيانهم كانوا يلتفون من ورائة ويقومون بتحصيلها من الفلاحين ظلما ، فكانت هذه هى الفرصة التى استغلها «محمد على» ضد المشايخ والعلماء ، كما أنه كان قد بدأ يتبرم من كثرة تدخلاتهم فى شئون الحكم رغم محاباته لهم وتقريبه إليهم ، وطلب منهم – فى بادىء الأمر – أن يؤموا الاهالى فى المساجد والكنائس لأداء صلاة الاستسقاء تضرعا إلى الله لرفع الغمة بهطول الأمطار فترتوى الأرض وينبت الزرع فقام «السيد عمر مكرم» بمشاركة المشايخ والعلماء فى إمامة أفراد الشعب لأداء هذه الصلاة فى جامع عمرو بن العاصى ، فكان أن استجاب الله لصلاتهم ودعائهم فهطلت الأمطار ورغم ذلك لم تنته أزمة القحط وبالتالى أزمة الغلاء[1] ، فلجأت الحكومة فى عام ١٨٠٩ إلى زيادة الضرائب المفروضة ، فساد التبرم جماهير الملاك ونظار الأوقاف والمستحقين والملتزمين كما تبرم عامة الأهالى من أفراد الشعب وهم الغالبية من حالة الغلاء فلجأوا إلى شيوخهم باعتبارهم ملجأ المظلومين فى ذلك العصر ، ولكن الشيوخ أنفسهم كانوا هم أنفسهم بل وعلى قمة المتضررين من فرض هذه الزيادة فى الضرائب عليهم وكان تضرر هؤلاء الشيوخ عن غير حق إذ كانوا قبل ذلك مميزين عن بقية فئات الشعب باعفائهم من هذه الضرائب أصلا ..

وفى أتون هذه الأحداث فى ذلك الوقت ، تصادف أن اعتقلت قوات الشرطة طالبا من طلاب الأزهر يمت بصلة القربى إلى أحد العلماء «الشيخ حسن البقلى» ، فتشفع العلماء لدى قوات الشرطة لاطلاق سراح هذا الطالب إلاّ أن شفاعتهم قوبلت بالرفض بل وقامت الشرطة بترحيله إلى معتقل القلعة ، فتسببت هذه الواقعة فى مزيد من إثارة الخواطر بالإضافة إلى حالة التذمر من الضرائب المتزايدة وتفشى الغلاء ..

(١) «عصر محمد على» للاستاذ الرافعي – ص ٨٩ .

فأقبل الأهالى من عامة الشعب على العلماء بالأزهر - رجالا ونساء - وبينهم أهل الطالب المعتقل يصرخون ويستغيثون وعطلت الدراسة فى الأزهر ، وأخذ الأهالى يتوافدون فى أفواج وأرسلوا فى طلب حضور «السيد عمر مكرم» رغم غيرة الشيوخ والعلماء منه وحسدهم له وحقدهم عليه لتميزه عنهم فى عفة النفس ولمكانته العالية لدى الوالى ، فلما جاء إليهم اشترك معهم وأيدهم فى ضرورة الدفاع عن مطالب الشعب وأجمعوا على الاعتراض على فرض الضرائب الجديدة والمغارم والضرائب على الأطيان الموقوفة[١] وأطيان الوسية ومعاش الحكومة للملتزمين وضريبة التمغة على المنسوجات والمصوغات والأراضى وكذلك الاحتجاج على اعتقال الطالب الأزهرى بغير ذنب جناه وحبسه بالقلعة ، وكانت هذه الاحتجاجات تحمل فى مضمونها ما يعبر بشكل أو بآخر عما تناولته قرارات «محمد على باشا» الضريبية من مساس بمصالح أغلب هؤلاء الشيوخ والعلماء وبخاصة بالنسبة للضريبة على أطيانهم التى كانت معفاه من قبل ..

وبناء على إجماع آراء الشيوخ ومعهم «السيد عمر مكرم» قرروا إرسال قراراتهم - على شكل عريضة - إلى «محمد على باشا» ولم يذهبوا إليه ليقدموها له فى مواجهته أو يتلونها عليه شفويا - ليكون ذلك بمثابة احتجاج على تصرفاته ، فغضب «محمد على» من هذا الاسلوب واعتبر هذا التصرف من جانب الشيوخ والعلماء بمثابة إعلان للشعب بأنهم غاضبون ممن أجلسوه على كرسى الحكم لأنه خالف الشروط التى بايعوه عليها ويحمل ذلك معنى التهديد الصريح إلى «محمد على» لكى يجيبهم إلى مطالبهم ..

وأرسل «محمد على» فى استدعاء الشيوخ للمثول أمامه - وكان الاتفاق[٢] بين الشيوخ ومعهم «عمر مكرم» هو التضامن وعدم الخروج على رأى الجماعة بأى حال والتمسك بمطالبهم فى مواجهة الوالى «محمد على» والاكتفاء بتبليغه قراراتهم مكتوبة ، وانتهزها «محمد على» فرصة للإيقاع بين الشيوخ وبعضهم البعض هادفا - من وراء ذلك وبصفة رئيسية - افتعال القطيعة بينه وبين الزعيم «عمر مكرم»[٣] ، فأخذ «محمد على»

---

(١) «الجبرتى» - جزء ٤ - ص ٩٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

- بمكره ودهائه - في استمالة البعض من هؤلاء الشيوخ الحاسدين للسيد «عمر مكرم» والمعروفين لديه بضعف نفوسهم ومنهم الشيخين «محمد المهدى ومحمد الدواخلى» وكان الوسيط هو «محمد افندى طبل» ناظر المهمات ، فرسموا خطة الايقاع بالسيد «عمر مكرم» بأن ذهب الشيخان «المهدى والدواخلى» إلى «عمر مكرم» وعرضا عليه - فى خبث - إمكان التفاهم مع «محمد على» بالحضور أمامه ، وكان «محمد على» نفسه يعلم تماما أن «عمر مكرم» سيرفض تماما هذا العرض ، وبذلك تتحقق أهداف «محمد على» بافتعال أسباب لقطع علاقات الود والتفاهم مع «عمر مكرم» ، وكان إتقان «محمد على» فى تدبير هذا المخطط معتمدا على طبيعة ضعف الجنس البشرى متمثلا فى هذين الشيخين واستسلامهما لارادة ورغبات «محمد على» الذى كان يعلم تماماً أن هذين الشيخين كانا يضمران فى نفسيهما أن يخذلا السيد «عمر مكرم» رغم تعهد جميع الشيوخ بالاخلاص لبعضهم والتمسك بما يتخذونه من قرارات ، ولكن هذان الشيخان خذلا «عمر مكرم» بأن نقلا إلى «محمد على» رفض «عمر مكرم» المثول أمامه بأى حال إلا إذا تراجع «محمد على» بإلغاء قراراته الضريبية الجديدة ، وتحققت بذلك الوقيعة بين الوالى «محمد على» والسيد عمر مكرم» نجاحا للخطة التى دبرها «محمد على» .

وبدهاء ومكر آخرين ، فقد عكف «محمد على» على تكرار محاولاته باستخدام باقى الشيوخ كل واحد منهم تلو الآخر فى محاولة استدراج «عمر مكرم» حتى ينزل عن كبريائه ويوافق على لقاء «محمد على» فتكرر الرفض من جانب السيد «عمر مكرم» وبنفس شروطه المتمثلة فى ضرورة تراجع «محمد على» عن قراراته بالكامل ، وكان محمد على» فى كل مرة يتنازل عن جزء من قراراته ولايتراجع عنها بالكامل ..

وكان الشيوخ الذين نجح «محمد على» فى استمالتهم واستخدامهم فى الوساطة بينه وبين السيد «عمر مكرم» لم يكونوا أمناء فى هذه الوساطة بل استخدموا أسلوب النفاق والرياء ، فقد كانوا عندما ينقلون إلى «محمد على» أحاديث السيد «عمر مكرم» وطلباته لاينقلونها طبقا لأصلها بل كانوا يضيفون إليها من عندهم الكثير من الكلمات والألفاظ التى تزيد الإساءة والتوتر فى العلاقة بين الوالى «محمد على» والسيد «عمر مكرم» ، وكانت هذه الكلمات والألفاظ من صياغة المشايخ الحاقدين والمتآمرين ضد السيد «عمر

مكرم» وقد كانوا يعتقدون - ينفوسهم المريضة - أنهم بذلك يسعون إلى تحطيم الزعيم «عمر مكرم» ولم يكونوا يدركون أنهم فى واقع الأمر وحقيقته إنما يسعون بل ويسرعون إلى تحطيم أنفسهم واقتراب نهايتهم .

وفى مقابل ذلك وعلى عكسه ، كان هناك مشايخ أجلاء يتميزون باحترام المبادىء والأخلاق والاعتزاز بأنفسهم لمكانة رسالتهم ومراكزهم الأدبية ، فترفعوا ونأوا بأنفسهم عن هذه الوساطات وكان على رأسهم الشيخ «محمد الأمير» ..

وكان السهم الأخير من أسهم «محمد على» ، أنه أعد بيانا ليرسلة إلي الحكومة التركية يعدد فيه ما أنفقه فى مصر من الخراج وقدره نحو أربعة آلاف كيس (ألكيس ٥٠٠ قرشا) مدعياً أنها صرفت فى مهام تختص بشئون البلاد ، وعلى سبيل المثال ما صرف فى سد ترعة الفرعونية وما صرف على الحملات العسكرية لمحاربة المماليك وما أنفق على تعمير القلعة وترميم المرافق وحفر الترع وأوضح «محمد على» فى بيانه أن (الميرى) - إيرادات الحكومة - قد نقص بسبب (الشراقى) - انخفاض فيضان النيل - ، وقام بارسال هذا البيان إلى السيد «عمر مكرم» لاقراره بالتوقيع عليه ، فامتنع «عمر مكرم» عن التوقيع على البيان وأظهر الشك فى محتوياته حيث قال للرسول الذى حمل البيان إليه: «أما ما صرفه على سد ترعة الفرعونية ، فإن الذى جمعه وجباه من أهالى البلاد يزيد على ما صرفه أضعافا كثيرة .. ، وأما غير ذلك فكله كذب لا أصل له ، وإن وجد من يحاسبه على ما أخذه وجباه من القطر المصرى من الفروض والمظالم لما وسعته الدفاتر» ..

وكان هذا الرد من جانب السيد «عمر مكرم» - رغم صراحته - فى غاية الجفاء وشديد اللهجة ، فاشتد حنق «محمد على» وغضبه مما حدث من «عمر مكرم» ، ورغم ذلك أرسل «محمد على» إلى «عمر مكرم» للقائه إلاّ أن «عمر مكرم» أصر على الامتناع عن المقابلة ، ولما كرر «محمد على» طلب اللقاء اشترط «عمر مكرم» فى النهاية أن يكون اللقاء بينه وبين «محمد على» فى منزل «الشيخ السادات» - حيث قال : «أما طلوعى إليه فى القلعة فلا يكون» ، فلما بلغ هذا الجواب إلى «محمد على» ازداد غضبه وكبر

عليه أن يشترط «عمر مكرم» أن تكون المقابلة فى دار غير مقر حكمه وصمم على البطش به ، رغم أن «محمد على» كان دائما يعمل حسابا كبيرا لمكانة السيد «عمر مكرم» لدى جماهير الشعب وعلمائه ومشايخه ..

نفى السيد «عمر مكرم» إلى دمياط

قام «محمد على» - بمكره المعهود - بدعوة السيد «عمر مكرم» للاحتكام فيما شجر بينهما من الخلاف إلى القاضى والشيوخ حيث كان «محمد على» مطمئنا إلى حكمهم لصالحه وواثقا من تحيزهم له ، وفى المقابل - وبنفس القدر من الذكاء - كان «عمر مكرم» نفسه واثقاً من أنه مستدرج إلى كمين منصوب من القاضى والشيوخ المنحازين إلى «محمد على»» وأنهم فى النهاية - وبغير شك - سيحكمون زورا لصالح «محمد على» ..

وفى صباح يوم التاسع من أغسطس ١٨٠٩ ، نزل «محمد على» من القلعة إلى منزل ابنه «إبراهيم بك» فى الأزبكية ، وطلب حضور القاضى والمشايخ كما بعث رسولاً فى طلب حضور «عمر مكرم» ، فرفض «عمر مكرم» لتأكده من أنه من العبث أن يذهب إلى محكمة يعلم - مقدما - رأى وحكم أعضائها المنحاز زوراً إلى جانب «محمد على» المتواطىء معهم فاعتذر متعللا بالمرض ، فلم يكن من «محمد على باشا» - فى النهاية- إلاّ أن أصدر أمرا - فى حضور القاضى والشيوخ - بعزل السيد «عمر مكرم» من نقابة الأشراف ونفيه من مصر وأن ينفذ هذا الأمر فورا ، وفى نفس الوقت أسند إلى الشيخ السيد «محمد السادات» منصب نقيب الأشراف ..

قابل السيد «عمر مكرم» هذه المحنة بالثبات ورباطة الجأش ، وطلب أن يكون نفيه إلى جهة ليست تحت حكم وولاية «محمد على» واختار (الطور) أو (درنة) إحدى المدن الليبية ، ورفض «محمد على» هذا الطلب وقرر نفيه إلى (دمياط) ، ورحل «عمر مكرم» إلى منفاه فى دمياط حيث غادر القاهرة فى مشهد جماهيرى مؤثر حيث ودعته جماهير الشعب بوجوه تعبر عن الكآبة والحزن .

وبتخلص «محمد على» من الزعيم السيد «عمر مكرم» يكون بذلك قد استكمل حلقات تخلصه نهائيا من سيطرة الزعامة الدينية على جماهير الشعب المصرى ، لأن مكانة وسمعة المشايخ - المتآمرين والذين كان لهم عظيم الشأن عندما كانوا يدا واحدة وعصبة متماسكة مع زعيمهم السيد «عمر مكرم» - قد زالت مكانتهم بين جماهير الشعب نفسه

حيث فقدوا مكانتهم بل زاد احتقار الأهالى لهم ولم يعد لهم ثمة وجود مؤثر أو حتى غير مؤثر وبصفة خاصة لأن الزعيم الروحى لمصر كلها وللمؤسسة الدينية أصبح لا حول له ولا قوة لوجوده بالمنفى مراقبا ومقيد الحرية ، وبذلك خلا الجو «لمحمد على باشا» ليكون المتصرف الأوحد فى مصر وشئونها دون مراجعة أو رقابة من أحد ، وكان هذا الوضع هو السائد والطبيعى لجميع حكام بلاد الشرق فى ذلك الوقت ..

ومن تسلسل هذه الوقائع ، قد ثبت أن المشايخ الذين تآمروا للاطاحة بالسيد «عمر مكرم» وتحطيم مكانته ، لم يكونوا قد اشتركوا وتآمروا - فى نفس الوقت - إلاَّ فى تحطيم مكانتهم ، لأنهم رغم نجاحهم فى اكتساب البعض من أفراد الشعب إلى صفوفهم ، إلاَّ إنهم قد حازوا احتقار وازدراء «محمد على باشا» لهم ، وأثبتت الأيام أنه رغم التصرفات الظالمة والمواقف المتعنتة التى تعامل بها «محمد على» مع الزعيم «عمر مكرم» ، فقد كان «محمد على» - حتى آخر أيامه - لا يكن للزعيم «عمر مكرم» إلاَّ كل التقدير وغاية الاحترام ، وقد أثبت ذلك له كتابة[1] فى أواخر أيام الزعيم «عمر مكرم» .

تخلص «محمد على» من المماليك نهائيا

عندما وصلت حملة «فريزر» إلى الأراضى المصرية لم يكن «محمد على» قد أحرز أى نصر حاسم ضد قوات المماليك الذين كانوا مسيطرين على الوجه القبلى ، مما اضطره إلى وقف العمليات الحربية ضدهم حيث كانت مقاومتهم عنيفة ضد قوات «محمد على» ، ورغم ذلك لم يهمل «محمد على التفكير فى مخطط للخلاص منهم والقضاء عليهم ..

فمنذ عام ١٨٠٧ كان «محمد على» قد بدأ فى اتباع سياسة المهادنة والتظاهر بالصلح معهم ، فبدأ باستمالة «شاهين بك» - خليفة «محمد الألفى بك» - حيث جعله يطمئن إليه ويعود مع بعض من أمرائه وأتباعه للاقامة فى القاهرة ، وبالغ «محمد على» فى التودد إليه وفى معاملته معاملة حسنة ، حيث خصص له إيرادات إقليم الفيوم وثلاثين قرية فى إقليم البهنسا وعشر قرى فى الجيزة وضم له كشوف (حكم) البحيرة بتمامها حتى الاسكندرية بل وكتب له الحجة الرسمية بذلك ، وحذا كثير من أتباع «شاهين بك» من أمراء المماليك حذوه عام ١٨٠٨ ، أما الأميران «إبراهيم بك» و«عثمان بك حسن» - وهما

(١) «عصر محمد على» - للاستاذ / الرافعى - (خطاب «محمد على» إلى السيد «عمر مكرم» - ص ٩٩ .

كبيرا المماليك المعترف لهما بالزعامة بعد «الألفى بك» . فرغم شيخوختهما فى هذا الوقت إلاّ أنهما لم يتنازلا عن الكراهية «لمحمد على» وعدم الثقة به فلم يستجيبا لرسلة الحاملين دعوته لهما للاتفاق والتصالح ، فتجاهلهما «محمد على» حيث إتجه سعيا نحو استمالة صغار البكوات من أتباع هذين الأميرين إمعانا منه فى إختراق صفوفهم واحداث الخلاف بينهم ، ورغم ذلك حاول «محمد على» إثبات حسن نيته تجاه «إبراهيم بك» بأن قام بتعيين ابنه حاكما على (جرجا) ، ومع ذلك استمر الوجه القبلى تحت مطلق سيطرتهم واستمروا فى رفض تحكم الولاة الأتراك فيهم – كسابق عهدهم- محتفظين باستقلالهم فى اختيار زعمائهم فلم يقوموا بأداء الأموال الأميرية المفروضة علي البلاد التى يسيطرون عليها واستمروا فى رفضهم حتى شهر سبتمبر ١٨٠٩ حيث جرد عليهم «محمد على» جيشا لإخضاعهم واستخلاص الوجه القبلى من أيديهم ، فانسحبوا متجهين للجبال الغربية من جرجا وأسيوط .

وفى شهر اكتوبر ١٨٠٩ قاد «محمد على» جيشا بلغ تعداده ستة آلاف مقاتل ، وعندما بلغ مدينة أسيوط فوجىء بمبادرة من المماليك يطلبون الصلح فطلب منهم «محمد على» الرحيل من الوجه القبلى للاقامة بالقاهرة على أن يخصص لهم بعض الجهات يستغلونها على أن يدفعوا إليه ما هو مفروض عليها من أموال أميرية وضرائب ، إلاّ أن هؤلاء المماليك استمروا فى عدم اطمئنانهم إلى «محمد على» حيث رفضوا شروطه وانسحبوا جميعهم مع أميرهم «شاهين بك» إلى عمق الصعيد مرة أخرى ، فاستاء «محمد على» من ذلك واستمر فى قتالهم حيث انتصر عليهم فى البهنسا واللاهون فانسحبوا فرارا إلى أسوان منهكين من ضراوة القتال وعناء السير لمسافات طويلة ..

وفى شهر أكتوبر ١٨١٠ عاد «شاهين بك» ومعه عدد من الأمراء للاقامة بالقاهرة وأعلنوا ولائهم «لمحمد على» الذى قرر فى نفسه الفتك بهم هذه المرة ليلقوا جزاء صنيعهم بعد أن تكررت منهم المتاعب ونقضهم الاتفاقات ، فأعلن «محمد على» إخضاع الصعيد والوجه القبلى كله لحكمه ..

كان «محمد على» يعلم جيدا – بحكم ممارسته التعامل مع هؤلاء المماليك – أنهم دائمى الغدر والتنكر للمبادىء والتنصل من الاتفاقات ، فتمادى فى تظاهره بمعاملتهم

المعاملة الحسنة إلى أن شرع فى الاعداد للحملة على بلاد الحجاز إلا أنه توجس منهم خيفة إذا تركهم فى القاهرة إذ خشى أنه إذا غادر الجيش مصر وضعفت القوات الحربية أن يعودوا إلى مناوأته فصمم على التخلص من البقية الباقية منهم قبل شروعه فى الحملة على الحجاز - استجابة لطلب حكومة الآستانة - ، وهنا كانت بداية تدبيره لاغتيالهم والتخلص منهم مرة واحدة وكان ذلك بالمؤامرة المعروفة «بمذبحة القلعة» .

تركيا تطلب من «محمد على» إعلان الحرب على الحجاز

فى أواخر شهر ديسمبر ١٨٠٧ كانت الحكومة التركية فى الآستانة قد طلبت من «محمد على» التدخل عسكريا مع الطائفة الوهابية فى الحجاز والتى كانت تسبب تهديدا للسيادة التركية على الحجاز ولما ارتكبته من عنف ارتكبته فى الأراضى المقدسة وتهديد حجاج بيت الله الحرام الذين يفدون من أنحاء الدول الاسلامية فامتنعوا عن الحج وكان ذلك بعد أن تزعزعت هيبة تركيا فى بلاد الحجاز .

إلاّ أن «محمد على» اعتذر لانشغاله فى محاربة ومطاردة المماليك داخل مصر والذين كانوا مسيطرين على كل الوجه القبلى تقريبا مما كان يمثل تهديدا لحكم «محمد على» من وقت لآخر بالاضافة إلى استمرار التمرد والفتنة بين الجنود الأتراك فى القاهرة ..

وفى عام ١٨٠٨ . عندما تزايدت أعمال العنف والارهاب من جانب الطائفة الوهابية فى مختلف مناطق بلاد الحجاز - كررت الحكومية التركية طلبها من «محمد على» العمل للقضاء على الحركة الوهابية ، ومرة أخرى اعتذر «محمد على» لأنه كان فى قمة التفرغ لمحاربة ومطاردة المماليك فى مصر إلي جانب أنه لم يكن مطمئنا لكفاءة قواته لخوض هذه الحرب خاصة فى بلاد بعيدة عن قواعدها يفصل بينها وبين مصر من البحار والقفار ..

ولكن عندما تأزمت أحوال الولاية التركية فى الحجاز وتمادت وتوسعت الطائفة الوهابية فى غاراتها واعتداءاتها فى بلاد الحجاز ، أعادت الحكومة التركية طلبها من «محمد على» فى عام ١٨٠٩ التدخل عسكريا ، إلاّ أنه - وللمرة الثالثة - اعتذر طالبا تأجيل القيام بهذه الحملة إلى أن يتمكن من التخلص من تهديد المماليك والقضاء عليهم كلية .

الاعداد لتشكيل قوة قتالية قادرة على محاربة الوهابيين

توقع «محمد على» بناء على ما وصله من أخبار عن استفحال أعمال العنف والسلب والنهب وتهديد هيبة الحكومة التركية لدرجة فقدانها السيطرة على ولاية الحجاز - أنه لا محالة سوف يقوم بهذه المهمة فى المستقبل القريب ، فوجد أنه إذا تم له إعداد الجند القوات والاسلحة والمعدات اللازمة للحملة على الحجاز ، فإنه بلاشك سيكون فى حاجة إلى نقل كل قواته وأسلحتها ومعداتها الضخمة بحرا من الموانىء المصرية إلى موانى الحجاز ..

ولذلك؛ فقد شرع «محمد على» - منذ أوائل سبتمبر[1] ١٨١٠ - فى إنشاء ترسانة بحرية فى شاطىء (بولاق) على النيل لتجهيز لوازم السفن ، كما قام بانشاء ترسانة بحرية أخرى فى ميناء (السويس) لتجميع وتركيب السفن البحرية ، وخطط لذلك التخطيط المحكم فوفر العمال الفنيين المهرة كما وفر المواد والخامات والأخشاب والآلات والصناعات المتممة لهذه الصناعة وجهز قطيع ضخم من الإبل لنقل كل تلك المهمات مفككة من شاطىء بولاق على النيل إلى ميناء السويس على أن يتم صناعة وتجميع العدد الكافى من هذه السفن هناك فى أسرع وقت ممكن .

استجابة «محمد على» لطلب الحكومة التركية (سبتمبر ١٨١٠)

فى أوائل سبتمبر ١٨١٠ ، جاء إلى «محمد على» مبعوثا من الحكومة التركية فى الآستانة حاملا إليه رسالة جديدة تتضمن تكليفه بالاسراع فى تجهيز جيش لمحاربة الوهابيين المسيطرين على بلاد الحجاز خاصة بعد استيلائهم على الحرمين الشريفين وما انتهكوه من حرمات وارتكبوه من إعتداءات وحشية على الحجاج بالاضافة إلى تهديدهم لبعض الولايات العُمانية المجاورة ..

فاستجاب «محمدعلى» لهذا المطلب التركى الجديد ، لأنه كان قد أعد العدة من الناحية العسكرية بما في ذلك وسائل نقل جنوده بعد إعداد وتجهيز الجيش الضخم اللازم

---

(١) «عصر محمد على» - للاستاذ / الرافعى - ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ . والجبرتى - ص ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٤

لهذه المهمة ونقل كل ذلك من الموانىء المصرية إلى موانىء الحجاز ، ولكن كانت العقبة الوحيدة الباقية التى كانت تؤرقة كانت هى المخاطر التى قد تترتب عن ترك مصر مهددة من جانب المماليك وأمرائهم المتربصيين «لمحمد على» - أثناء حملته على بلاد الحجاز - بما جبلوا عليه من عدم الالتزام بالوعود والمواثيق ولا بالشرف ولسابق تكرارهم الغدر به حتى لمستوى خيانة البلاد التى آوتهم وساندتهم وآزرتهم فى مواجهة الغزاة الأجانب (الفرنسيين والانجليز) ، ومن هنا كان تفكير «محمد على» فى وضع خطة وتنفيذ مذبحة لهم فى القلعة ..

مذبحة القلعة (أول مارس ١٨١١)

تمت هذه المذبحة فى القلعة التى يسكنها الوالى «محمد على» ، والقلعة مكان حصين مرتفع تطل على ميدان فسيح وكان يسمى فى ذلك الوقت (ميدان الرميلة) وعلى ارتفاع كبير باب ضخم هو الباب الرئيس للقلعة ويؤدىء إلى هذا الباب طريق وعر متعرج منحوتا فى الصخر الذى يؤدى إلى رحبة القلعة ثم إلى جامع «محمد على» ثم إلى قصره الضخم والفخم ..

وفى أول مارس ١٨١١ - بعد أن قام «محمد على» بتجهيز الجيش اللازم لمحاربة الوهابيين فى بلاد الحجاز تلبيه لطلب الحكومة التركية لقمع الحركة الوهابية هناك المارقة على الحكومة التركيُة - حدد «محمد على» يوم الأول من شهر مارس ١٨١١ موعدا للاحتفال بتولى ابنه «طوسون» قيادة جيش الحملة ، ووجه «محمد على» الدعوة إلى كبار رجال الدولة ، وكذلك إلى جميع الأمراء المماليك والبكوات والكشاف المماليك وأعوانهم وكل أتباعهم ، ورحب المماليك بهذه الدعوة حيث اعتبروها علامة الرضا عنهم من جانب «محمد على باشا» وحضروا جميعهم مرتدين أفخم وأجمل الثياب وتزينوا أجمل زينة وامتطوا صهوات خيرما عندهم من الجياد ، واستقبلهم «محمد على» بالبشر والترحاب والحفاوة وعرض عليهم تشريف ابنه «طوسون» بسيرهم فى موكبه فأجابوه بالشكر ، وبعد قليل أذن مؤذن الرحيل فقرعت الطبول وصدحت الموسيقات وكان ذلك إعلانا ببدء تحرك الموكب حيث سار أمراء المماليك جميعهم آخذين مكانهم فى الموكب حيث كان نظام ترتيب الموكب أن تتقدمه طليعة من الفرسان (الدلاة) يقودها ضابطهم «أوزون على» يتبعها والى

الشرطة ثم محافظ المدينة (الأغا) والمحتسب ويليهم «الوجاقلية» وهى فرقة عسكرية تركية ثم كوكبة من الجنود الأرناؤوط يقودهم «صالح أق قوش» ثم يلى كل ذلك أمراء المماليك يتقدمهم «سليمان بك البواب» ومن بعدهم بقية الجنود الأرناؤود من الفرسان والمشاة ومن ورائهم كبار المدعوين ذوى المناصب ..

وسار الموكب على هذا النظام والترتيب مجتازا الطريق المنحدر نحو باب العزب (باب القلعة الرئيسى المطل على ميدان الرميلة) ، وما أن اجتازت طليعة الموكب ثم رئيس الشرطة ثم المحافظ ومن معه ثم الوجاقلية وفرقة الأرناؤود ، ثم أمراء المماليك وفجأة أغلق الباب من الخارج غلقا محكما فى وجه المماليك الذين كانت من ورائهم فرقة أخرى من الجنود الأرناؤود كانت قد صدرت إليهم الأوامر أنه بمجرد أن يغلق باب العزب كان ذلك إشارة لهم فتحولوا عن الطريق فى صمت وسكون وتسلقوا الصخور التى تكتنف الطريق الوعر المتعرج يمينا ويسارا واتخذوا مواقع مشرفة على هذا الطريق ومحكمة تماما حيث يتكدس المماليك فيه ، وفى بادىء الأمر لم يتنبه المماليك لهذه التحركات المفاجئة ولم يفطنوا إلى أن الباب قد أغلق فاستمروا فى سيرهم نحوه فتلاحقت صفوفهم وتلاحقت وأبصروا الجنود الأرناؤود يتسلقون الصخور المشرفة عليهم فتوقفوا عن السير ، وفجأة أطلق الرصاص من إحدى نوافذ الثكنات وكان هذا إيذانا بتنفيذ المؤامرة حيث إنهال الرصاص دفعة واحدة وفجأة على المماليك وهم محاصرين فى هذا الطريق الغائر فى الأرض الصخرية فالباب الضخم موصد فى وجوههم والجنود الأرناؤود يحاصرونهم من خلفهم ومن يمينهم ويسارهم ومن فوق الأسوار يمطرونهم بالرصاص فلم يستطع المماليك الدفاع عن انفسهم إذ لم يكونوا قادرين على الحركة أو التقهقر أو حتى الترجل عن جيادهم لضيق المكان المحاصرين فيه وقد جاءوا إلى الاحتفال بدون أسلحة نارية ولا يحملون سوى سيوفهم التى لاتجدى مع الرصاص الذى حصدتهم طلقاته فحل عليهم الموت المؤكد فسقطوا جميعهم يتخبطون غارقين فى دمائهم وحاول بعضهم تسلق الصخور المحيطة لكن طلقات الرصاص كانت تتلقفهم كلما حاولوا وكان منهم «شاهين بك الالفى» الذى تسلق مع بعض أعوانه هذه الأسوار ومعهم «سليمان بك البواب» الذى كان نصيبه قطع رأسه ، واستمر إطلاق الرصاص إلى أن تم القضاء على كل من دخل القلعة من المماليك الذين بلغ عددهم

أربعمائة وسبعون من الأمراء وأتباعهم ، ولم ينج منهم إلاَّ الأمير «أمين بك» الذى صعد بجواده إلى مكان يطل على الطريق وبلغ سور القلعة ولم يجد مفرا إلاَّ أن يلقى بنفسه من أعلى السور إلي خارج القلعة وكان السور يعلو عن الأرض بمسافة ستين قدما وقفز وهو ممتطيا صهوة جواده من هذا الارتفاع الشاهق مفضلا الموت منتحراً على الموت قتلاً ، فلكز جوادة وقفزيه فلما صار على مقربة من الأرض قفز هو مترجلا تاركا جوادة يتلقى الصدمة حيث تهشم الجواد فور ارتطامه بالأرض ، ونجى «أمين بك» من الموت وأخذ يعدو فى الصحراء حيث تنكر بعد ذلك وواصل الهروب حتى وصل إلى جنوب سوريا ..

لم يكن قد وقف على سر هذه المؤامرة سوى أربعة أشخاص هم «حسن باشا» قائد عام الجنود الأرناؤود و «الكتخدابك محمد لاظ أوغلى» المحافظ و «صالح قوش» قائد فرقة الجنود الأرناؤود فى الاحتفال (الموكب) و«إبراهيم أغا» حارس باب العزب ، وكان الذى أعطى الاشارة إلى رجاله باطلاق الرصاص وتنفيذ المذبحة هو «صالح قوش» ..

كان «محمد على باشا» فى انتظار بدء تنفيذ المذبحة فى قاعة الاستقبال جالساً يحوطة أمناؤه الثلاثة وكان هادئا حتى أن بدأ الموكب فى التحرك ساوره القلق حين ساد القلعة صمت عميق وحين سماعة صوت انطلاق الرصاصة الأولى - إيذانا ببدء المذبحة - انتصب واقفا منفعلا واصفر وجهه ولما بدأ يسمع دوى طلقات الرصاص وصرخات وصيحات الاستغاثة الصادرة من الضحايا المماليك ظل صامتا حتى بدأ دوى الرصاص يتضائل ويخفت علامة على انتهاء المؤامرة سارع إلى طلب قدح من الماء ليروى به جفاف حلقه ..

أما أهالى القاهرة فقد بلغتهم أخبار المذبحة من الجماهير التى كانت تحتشد فى ميدان الرميلة وعلى جانبى الشوارع التى كانت محددة لسير الموكب ، فبعد مرور طليعة الموكب أمامهم أخذوا ينرقبون بتلهف مرور باقى صفوف الموكب ولكن فجأة انقطع تلاحق الصفوف فتعجب الأهالى وأخذوا يتساءلون عن السبب إلى أن فوجىء المحتشدون فى الميدان بدوى طلقات الرصاص بعد أن آغلق باب العزب وعندئذ بلغهم خبر المذبحة عندما صاح أحد الأشخاص قائلا : قتل «شاهين بك» وذاع الخبر بسرعة إلى مختلف أنحاء القاهرة ، واستولى على الجماهير الذهول حيث تفرقوا فى الطرقات وأغلقت الدكاكين وهرع الناس إلي منازلهم فخلت الشوارع من المارة خشية ما يعقب مثل هذه الأحداث الدامية من شرور

تنال الشعب بالمخاطر ، وبالفعل فقد حدث عقب ذلك أن قامت مجموعات من الجنود الأرناؤود بمهاجمة قصور المماليك ومنازلهم ومنازل أتباعهم ومعاونيهم واقتحموها وأخذوا يفتكون بمن فيها من المماليك وأتباعهم وأسرهم وقتل أطفالهم واغتصاب نسائهم وينهبون الجواهر والأموال : ولم يكتفوا بالفتك بالمماليك وأتباعهم وأعوانهم بل اقترفوا كثيرا من الفظائع حيث تمادوا فى الفتك بكل من يلقونه فى بيوت الأهالى المجاورة لمنازل المماليك حيث بلغ تعداد ما نهبوه من منازل ما يزيد عن خمسمائة منزلا واستمروا فى عمليات السلب والنهب إلى اليوم التالى ..

حينئذ ومنعا لاستفحال الفوضى - اضطر «محمد على باشا» وابنه إلى النزول من القلعة إلى الاحياء التى وقعت بها أحداث الشغب حيث أصدر أوامره بقطع رقاب كل من استمر فى السلب والنهب ، ولم ينج من بقية المماليك وأسرهم إلاّ من استطاع الهرب من القاهرة مختفيا فى ظلام الليل إلى الوجه القبلى حيث بلغ تعداد الذين لقوا حتفهم ما يزيد عن ألف شخص ..

لم يتبق من الأمراء المماليك إلاّ «إبراهيم بك الكبير» و «عثمان حسن بك» - اللذان فضلا البقاء فى الصعيد لعدم اطمئنانهما «لمحمد على» فلما بلغهما نبأ مذبحة القلعة سارعا إلى الهرب إلى ما بعد أسوان مع الهاربين من القاهرة ثم توغلوا جميعهم إلى إقليم النوبة ثم دنقلة كما استطاع ما يقرب من سبعين مملوكا الهرب إلى سوريا ..

وهكذا تم القضاء علي المماليك واستتب الأمر فى مصر وأصبح «محمد على باشا» فى مأمن منهم .



بداية التنمية

أولا : اساليب محمد على فى توفير المال

بعد أن هدأت الأحوال الداخلية عقب مذبحة القلعة والقضاء على متاعب المماليك ويعد أن كررت تركيا طلبها من محمد على لتأديب الحركة الوهابية فى الحجاز والتى أخذت تهدد الوجود التركى فى الحجاز ، وفى مواجهة التدهور الاقتصادى للبلاد ونتيجة سوء حكم المماليك والولاه الاتراك ونتيجة للظروف التى مهدت لامكانية استقلال محمد على بمصر وامكان توسعاته فى المستقبل عن طريق التعمير وتحقيق الاكتفاء الذاتى بحسن استخدام امكانيات مصر والتى بلماحته وذكائه الفطرى تبين له إمكان تحقيق التقدم والقوة التى كان دائم التطلع إليها ، فقد بادر بعد إعادة تنظيم الحكم والحكومة بالاسلوب الحديث أن وضع نظاما ماليا يحقق السيطرة الكاملة على امكانيات مصر من ناحية التنمية والتعمير وتحسين وسائل الانتاج الزراعى من إقامة المشاريع المائية لتوفير الماء لتحسين الانتاج وبصفة رئيسية تكوين جيش قوى بما يحتاجه من امكانيات مادية وقاعدة صناعية كل ذلك كان يحتاج إلى أموال طائلة أمكنه بواسطة احاطة نفسه بمستشارين أكفاء أجانب ومحليين ويدأ فورا حتى من قبل مذبحة القلعة بالغاء نظام الالتزام الذى كان يحقق للملتزمين تحقيق دخول كبيرة لانفسهم مما جعلهم تقريبا هم طبقة الملاك الحقيقيين للعقارات الزراعية .

ثانيا : إلغاء نظام الالتزام

عمل محمد على إلى امتلاك أراضى الفلاحين التى كانت تحت أيدى الملتزمين[1] المماليك واستخلصها لنفسه ونزع الأراضى منهم والتى كان الفلاحون يزرعونها ويدفعون ضريبتها لهم ويستولى الملتزمون على الجانب الأكبر من الدخل لانفسهم ويدفعون للوالى وللسلطان الجانب البسيط وقام محمد على باعادة توزيع الاراضى الزراعية على الفلاحين بمعدل ثلاثة أو أربعة أو خمسة أفدنه لكل مستأجر حسب قدرته على العمل وبذلك آلت له حقوق الملتزمين وسلطتهم وصارت علاقة الفلاحين بالحكومة مباشرة وبادر بذلك إلى إلغاء الالتزام وقام بضم الأراضي الموقوفة على المساجد ومعاهد العلم والخيرات إلى املاك

---

(١) الجبرتى جزء ٤ ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٨ ، ١٣٩ ، ١٥٢ ، ١٨٤ حتي ٢٠٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٩١ حتي ٣٠١ مشاريع مصر العمرانية .

الحكومة فى نظير أن تقوم الحكومة بالصرف على المساجد والمعاهد والمؤسسات الخيرية مع توفير معاشات سنوية لمن يديروفها .

ثالثا : الابعاديات والشفالك :

استثنى محمد على من مصادرة الاطيان ما يخص طبقة اعيان البلاد ورجال الجهادية والموطنين بمساحات من الأراضى البور يعمرونها والانتفاع بها وبذلك يتسع العمران للبلاد وأعفاها من الضرائب وسميت أباعد أو ابعاديات لانها كانت مستبعده من الأراضى المصادرة السابق ذكرها ومنعهم من تأجيرها حتى يحثهم على تعميرها بأنفسهم وكذلك خص أفراد أسرته بجانب من هذه الأبعاديات سميت (جفالك) أو (شفالك) وأصدر لكل ذلك حججا تحرر وتوثق فى المحاكم الشرعية .

رابعا :اعادة مسح الاراضى الزراعية [1]

قام محمد على باعادة قياس ومسح الأراضى الزراعية بمصر لحصرها وفرض ضرائب مضبوطة وثابتة سنوية عليها وعهد بذلك سنة ١٨١٣ إلى ابنه إبراهيم باشا ومعه المعلم غالى بصفته رئيس المساحة ونظمت الدفاتر التى صار تسجيل أراضى مصر كلها فيها وبذلك ضمن دخلا ماليا كبيرا وثانيا نتيجة ربط الضرائب الثابتة والمرتفعة علهيا بالاضافة إلى رسوم المسح والتسجيل الكبيرة والتي أضيفت لاموال الدولة وبذلك يحقق دخلا كبيرا للحكومة جعل يوجهها للتعمير وتقوية المجتمع وتقدمه وانشاء جيش وبحرية قوية يحقق امان واستقرار للبلاد وحمايتها - وانشأ دارا لحفظ هذه المستندات بالقلعة (الدفتر خان) .

خامسا: الضرائب [2]

بعد أن قام محمد على بمسح أراضى مصر أخذ يفرض الضرائب اللازمة لاى مشروع كلما احتاج إلى المال وبه تجمع" الضرائب اللازمة للصرف على الحملة على الوهابيين وعندما تعاظم احتياجه للمال بعد أن طالت الحملة مع الوهابيين وفرض ضريبة على (الأراضى الرزق) وهى الاراضى التى كانت معفاه من المال قبل ذلك .

---

(١) الجبرتى جزء ٤ ص ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٢٤

(٢) الجبرتى جزء ٤ ص ١٣٢ ، ١٥٢ ، ٢١٠

(أ) تم لجأ إلى نظام العهد (جمع عهده) .

وذلك بان عـهد إلى بعض الاعيـان والمأمـورين ورجال الجـهادية أن يكون فى عـدتهم جباية ضرائب بلاد باكـملها على أن يكونوا مسئولين عن الدفع مقدما للحكومة من اموالهم الخاصة وكان ذلك يمثل عودة إلى نظام الملتزمين إلى حد بعيد ولكنه كان محدد به حدود اختصاصهم فيحقق لمحمد على وحكومته جمع المال اللازم لسد حاجات الحرب والتعمير الملحة فى بعض الظروف الصعبة .

(ب) الضريبة على الرؤوس (ضريبة الدخل) :

ضريبة فرضها محمد على على الذكور كافة عند بلوغ سن الثامنة عشر من عمرهم وتختلف تبعا لتفاوت الثروة للناس وكانت تتراوح بين ١٥ قرشا إلى ٥٠٠ قرش فى السنة وتجبى فى المدن عن النفوس وفى القرى عن المنازل وكان الدخل من هذه الضرائب يعادل سدس ايراد الحكومة .

(جـ) ضرائب أخرى :

طبق محمد على أيضا ضرائب أخرى تجبى على الماشية والبقر والجاموس عشرون قرشا للرأس الواحدة فى السنة وسبعون قرشا إذا بيعت للجزارين للذبح على أن تبقى جلودها حقا وملكا للحكومة والجمال والنعاج بدفع عن كل رأس أربعة قروش وضرائب على قوارب النقل بمعدل ٢٠٠ قرش عن كل قارب والنخيل يدفع عنه ضريبة حسب صنف المحصول ومتوسطها قرش ونصف عن كل نخلة وكذلك عن قوارب الصيد

سادسا : مقدم الاحتكار للحاصلات الزراعية واحتكار الصناعة :

انشأ محمد على فى المديريات شونا (مخازن) تحفظ فيها الحاصلات التى ينتجها الفلاحين ويشتريها منهم باسعار بسيطة بعد خصم إيجار الأرض والضرائب وتحتفظ بهذه الحاصلات من غلال وخلافة ثم تتولى الحكومة بيع هذه الحاصلات للاهالى وتجار الحملة أو بصدرها للخارج لحساب الحكومة باسعار مرتفعة وبذلك صارت الحكومة مالكة لمعظم حاصلات مصر الزراعية وربحت من ذلك أرباحا طائلة وشجعت هذه الأرباح الحكومة لاحتكار هذه الحاصلات والاتجار بها . وحظر على الفلاحين المنتجين أن يبيعوا محاصيلهم إلى التجار بل يبيعونها للحكومة فقط وصارت بذلك هى المالكة للارض والمحتكرة لحاصلاتها جميعاً .

وكان يسرى ذلك على القطن والارز والغلال والقمح والنيلة والسكر والافيون وغير ذلك وفى نفس الوقت كانت كذلك تحصل على الحاصلات الزراعية التى تستخدم كخامات للصناعات بارخص الاسعار ليعيد بيعها والتصرف فيها بعد التصنيع محليا أو تصديريا للخارج باعلى الاسعار وبذلك تحقق للحكومة الحصول على الأموال والميزانيات الكافية لسد حاجة تمويل الصناعة والتعمير ومشاريع الزراعة الكبيرة والتسليح وتشكيل الجيوش وبناء الاساطيل وتسليحها وصناعة الاسلحة والذخائر وشجع ذلك أيضا الحكومة على احتكار الصناعة .

سابعا : التجارة :

حقق احتكار الاراضي الزراعية والاتجار فى المحاصيل وكذلك فى الانتاج الصناعى واحتكار الحكومة لجميع عناصر الانتاج إلى اتساع نطاق تجارة مصر الخارجية وخاصة فى القطن وقد ربحت الحكومة منها ارباحا طائلة وقد ساعد فى انشاء الاسطول التجارى فى البحر الأحمر والبحر الأبيض على توسيع نطاق المواصلات البحرية بين مصر والبلدان الأخرى وبعد أن قام محمد علي باصلاح ميناء الاسكندرية نشطت التجارة الخارجية نشاطا عظيما كما أن الاسطول التجارى فى البحر الأحمر اعاد النشاط التجارى بين الهند وأوربا عن طريق مصر وقد قام لأجل تأمين هذا النشاط بتطهير البحر الأحمر من القرصان الذين كانوا يهددون السفن التجارية كما قام بتمهيد طريق لسير القوافل التجارية بين السويس والقاهرة وانشأ به محطات للأمن والراحة لتأمين القوافل وأنشأ لكل ذلك ديوانا سمى بديوان المرور كان مقره الازبكية ثم يعاد نقل هذه البضائع للتصدير من الاسكندرية وحقق بذلك دخلا كبيرا للخزانة المصرية وبعد ذيوع خبر هذا الطريق الآمن عالميا شجع ذلك الدول الاوربية فاتفقت مع الحكومة المصرية على نقل طرود البريد والمسافرين عن طريق السويس بدلا عن الطريق الطويل من طريق رأس الرجاء الصالح وأمكن بموجب هذا الاتفاق تسيير السفن التجارية من بمباى بالهند إلى السويس ثم ينتقل البريد والبضائع والسياح إلى الاسكندرية عن طريق القاهرة الاسكندرية إلي مرسيليا بحرا ومنها إلى انجلترا

تأمل فى عناصر التنمية :

رغم أن هذه الاصلاحات كانت محل انتقاد من المؤرخين والكتاب على اعتبار أنها كانت تتسم بالفردية واحتكار الانتاج الزراعى والصناعى والتجارى إلا أن معظم الدول المتقدمة فى فى هذا العهد كانت تتسم هى الأخرى بهذا الأسلوب الذى كان تحت مظلة الديمقراطية بعمل أساسا لمصلحة الرأسماليين والرأسمال وبأسلوب احتكارى أيضا وقد حقق هذا الأسلوب لمصر الرفاهية والتقدم ولذلك أيده المجتمع المصرى .



الفصل الثالث (١٨١١ - ١٨١٩)

حروب محمد على وتجاوب الشعب المصرى :

الحرب الوهابية (١٨١١ - ١٨١٩) .

سميت هذه الحرب التى شنتها مصر على الحجاز نسبة[١] إلى الطائفة أو الطريقة الوهابية الصوفية ، وكانت هذه الطائفة أو الطريقة تتبنى دعوة أطلق عليها «الدعوة الوهابية» منتسبة إلى شيخ هذه الطريقة يدعى «محمد بن عبد الوهاب» ، وكانت دعوته قد بدأت فى الظهور على يديه فى الجزيرة العربية ونسبت إليه وأطلق على أتباعه وأنصاره لقب «الوهابيين» ، وقد كانت بلاد الحجاز وقتها ولاية تركية يحكمها والى تركى وتخضع للحكومة التركية العثمانية ..

فى عام ١٧٠٣ ولد الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» فى بلدة (العُيَيْنَة) إحدى بلاد (نجد) فى الجزيرة العربية ، ونشأ بها وحفظ القرآن الكريم وتلقى العلم عن أبيه الذى كان قاضيا ، وفى شبابه توجه إلى المدينة المنورة للحج وأقام بها نحو شهرين ثم عاد إلى موطنة حيث عمل على دراسة الفقة على مذهب الامام «أحمد بن حنبل» وكان شديد الذكاء سريع الادراك والحفظ ، ورحل إلى الحجاز ثم إلى البصرة فى العراق طلبا للعلم وهناك قرأ كثيرا من كتب الحديث والفقة واللغة ثم عاد مرة أخرى إلى موطنه الأصلى ، وكان يميل إلى التشدد فى التعاليم الدينية واستنكار كثيرا من البدع التى كانت شائعة ومتفشية بين المسلمين وقتها حيث رأى فيها شركا بالله وأمعن فى تنقية الدين مما دخله من البدع ودعا قومه إلى ذلك وقام بتأليف كتاب فى (التوحيد) رجع فيه بالدين إلى فطرته داعيا لنبذ ما لم يرد فى القرآن والسنة من أحكام وتعاليم الدين الاسلامى فكانت دعوته مستمده من أسلوب ومنهج «ابن تيمية» الذى كان يتخذ مذهبه فى الأصل من المذهب «الحنبلى» ، فكانت دعوته في جوهرها ومجملها دعوة إصلاحية إلاَّ إنه كان فيها كثير من المغالاة لدرجة تكفير كل من لا يأخذ بتعاليمه بل واعتباره مشركا بالله حيث أطلق على من يخالفون دعوته بالمشركين ، ولقيت دعوته استجابه فى هذه النواحى بالذات لما فطر عليه أهل هذه البلاد من الحياة البدوية التى تتسم بالخشونة ، فكان من تعاليمه تحريم إرتداء

---

(١) عصر محمد على للاستاذ الرافعى من ص ١٢١ إلى ص ١٢٢

الملابس الحريرية والتدخين بنوعيه كالتمباك والدخان وكذلك تحريم إقامة المزارات وإنشاء القباب فوق قبور الموتى والمساجد بل والدعوة إلى هدم ما يكون قد بنى منها ، وهذه المبالغات لم تسيء إلى الدعوة الوهابية بقدر ما أساء إليها إسراف أنصارها فى القسوة وارتكابهم الفظائع مع كل من يخالفهم فى المذهب أو يعترض على عقيدتهم ، وخلال عدة سنوات حازت دعوته نجاحا وانتشارا بين أهل (نجد) فى الجزيرة العربية دون أن تأبه له الحكومة العثمانية إلى أن حدث أن قدم إليه أتباعه إمرأة متهمة بارتكاب جريمة الزنا ثابتة عليها التهمة ، فكان أن أمر برجمها فقتلت على الفور ، ولم تكن هذه العقوبة مما تستسيغة النفوس وقتها ونتج عنها استياءً شديدا حيث أبلغ هذا الأمر إلى حاكم (الحسا) - التركى - وكانت (العُيَيْنَة) تحت سلطته ، فأرسل إلى الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» من يهدده بالقتل إذا لم يتراجع عن مذهبه وطريقته ويتوقف عن الدعوة إليهما ، وإنقاذا له عرض عليه أنصاره أن ينزل بينهم للاقامة معهم حتى يكون فى حمايتهم ، فرحل إلى مدينة (الدرعية) - وهى أكبر مدن (نجد) وكان أميرها فى هذا الوقت هو «محمد بن سعود» الذى أعجب ورحب بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» فاعتنق مذهبه ..

وأقام الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» بمدينة (الدرعية) وأعلن الأمير «محمد بن سعود) مناصرته للدعوة ولتعاليم المذهب الوهابى بحد السيف ، وقاما كليهما بنشر الدعوة فأخذ الشيخ «ابن عبد الوهاب» يوفد مبعوثية إلى البلاد والمدن لنشر دعوته ودعا القبائل فيها للأخذ بهذه الدعوة واعتناقها أو يقاتلهم مما أدى إلى أن عمت الدعوة معظم بلاد (نجد) ، وقام الأمير «محمد بن سعود» من جانبه بمحاربه عدة قبائل كانت تناوؤه إلى أن توفى عام ١٧٦٥ وتولى من بعده ابنه الأمير «عبد العزيز بن سعود» الذى كان من أشد أنصار الدعوة الوهابية مما أدى إلى نمو وانتشار هذه الدعوة التى عمت أنحاء بلاد الجزيرة العربية بل امتدت حتى تجاوزت حدود (العراق) ، وفى عام ١٧٩٢ توفى الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» ، وكان «شريف مكة» - المعين من قبل الحكومة التركية - قد حاول أن يقاوم الدعوة الوهابية ويحد من نفوذ الوهابيين بحد السيف فزحف بقواته حتى بلغ بلاد (نجد) وظل يقاتل لكنه انهزم أمام قوات الأمير «عبد العزيز بن سعود» فعاد إلى «مكة» .

امتدت دعوة الوهابيين إلى العراق حيث وصلوا إلى (البصرة) وزحفوا إلى (كربلاء) التى استولوا عليها بحد السيف بأن أمعنوا فى أهلها قتلا وفى ديارهم نهبا ، حتي أنهم

هدموا مسجد «الحسين بن على بن أبى طالب» - رضى الله عنهما - وهدموا قبه المسجد ونهبوا نفائس المسجد وقبته مما أدى إلى أن ضج المسلمون فى سائر الأقطار الاسلامية من هذا الارهاب ، فقام أحد العراقيين من (الشيعة) بالتوجه إلى (الدرعية) متنكرا وتسلل إلى مسجد هذه البلدة وانتظر حتى حضر الأمير «عبد العزيز بن سعود» إلى المسجد فقام باغتياله وهو قائم يصلى - انتقاما منه - وخلفه ابنه الأمير «سعود بن عبد العزيز» ..

ولم يستطع الولاة الأتراك التغلب على الوهابيين ، حيث كان «سلمان باشا» - الوالى التركى على العراق - قد فأرسل بحملة إلى (الحسا) لمحاربة الوهابيين فعادت مدحورة ، وواصل الأمير «سعود بن عبد العزيز» - بعد اغتيال أبيه - فتوحاته حتى بلغ حدود (مسقط) بل وامتد فى فتوحاته إلى شواطىء الخليج الفارسى حيث بسط نفوذه ، ثم اعتزم فتح بلاد (الحجاز) فأرسل جيوشه التى زحفت إلى مدينة (الطائف) - وهى مفتاح الطريق إلى (مكة) - وكان ذلك فى عام ١٨٠٢ ، وتمكن الأمير «سعود بن عبد العزيز» من الاستيلاء على مدينة (الطائف) ثم وصل إلى (مكة) ظافرا واستولى عليها فاضطر الشريف «غالب» إلى الجلاء عن (الطائف) إلى (جدة) عام ١٨٠٣ ..

وكتب «سعود بن عبد العزيز» إلى السلطان «سليم الثالث» فى تركيا ينبئه بهذا الفتح وبأنه استولى على بلاد (الحجاز) وأخبره بأنه قد هدم القباب التى فوق القبور والمساجد ويطلب إليه التوقف عن إرسال (المحمل) - موكب الكسوة للكعبة المشرفة - من دمشق أو القاهرة لأنه ليس من الدين فى شىء ، ولم يكتف بذلك بل قام بطرد وترحيل كل من كان فى (مكة) من الأتراك ..

وفى عام ١٨٠٤ استولى الوهابيون على (المدينة المنورة) - بعد فتحهم (مكة) بعامين وقاموا بنهب الحرم النبوى واستولوا على ما فيه من جواهر ونفائس ثمينه تقدر بأثمان باهظة ، وامتدت دعوة الوهابيين وسيطرتهم إلى (العسير) - فى اليمن جنوبا - واستمروا في زحفهم شمالا فى إتجاه الشام حتى وصلوا إلى حدود (فلسطين) و (سوريا) ، إلا أن دعوتهم لم تلق استجابة فى (سوريا) نظرا لما ارتكبوه فى كل الولايات الخاضعة للحكومة التركية من قسوة وفظائع ونهب وسلب وبصفة خاصة لمنعهم (المحمل) القادم من بلاد الشام إلى (مكة) من دخولها بل قاموا بقتل الجنود المرافقين للمحمل ونهب الحجاج وسلب أمتعتهم وتعطيل بل ومنع قوافل الحج السنوية ..

واضطرت تركيا إلى القضاء على هذه الدعوة الوهابية المتشددة لدرجة تكفيرها لكل من لا يتبع تعاليم دعوتهم ويخالف مبادئهم واستيلائهم على الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة المنورة ومنعهم الحجاج الذين لا يتبعون تعاليمهم من أداء فريضة الحج بل ونهبهم وسلبهم ، حتى كان أوائل عام ١٨١١ حيث بلغ نفوذ الوهابيين أقصى مداه فكانت قد تمت سيطرتهم على امتداد الجزيرة العربية من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها .

أسباب استجابة «محمد على» لطلب الحكومة التركية

بعد أن تكرر طلب الحكومة التركية من «محمد على» محاربة الوهابين الذين سيطروا على بلاد الجزيرة العربية ، كانت استجابة «محمد على» لأسباب أربعة هى :

أولا : أنه بعد أن استفحلت الدعوة الوهابية وقام الوهابيون بتعطيل شعائر الحج وأصبحوا يشكلون تهديدا مستمرا لحجاج المسلمين مالم يستجيبوا لدعوتهم ويعتنقون مبادئهم المتشددة ، وبعد تكرار هزائم الولاة الأتراك على أيدى الوهابيين الذين ارتكبوا المذابح وجرائم السلب والنهب فى الولايات التركية وفشل الولاة الأتراك فى مواجهتها ، فقد اعتبر «محمدعلى» أن تدخله العسكرى فى هذه المرحلة هو جهاد واجب لنجدة الاسلام والمسلمين .

ثانيا : أنه إذا حقق نصرا على هؤلاء الوهابيين ، فسيكون ذلك إعلاء لشأنه بين الولاة الأتراك حيث يكون قد نجح فيما فشل فيه غيره من الولاة جميعا .

ثالثا : أنه بتحقيق النصر على هذه الفئة يكون ذلك تحقيق للأمن والأمان فى البلاد المقدسة وفى ذلك إعلاء لمكانته بين سائر البلاد الاسلامية .

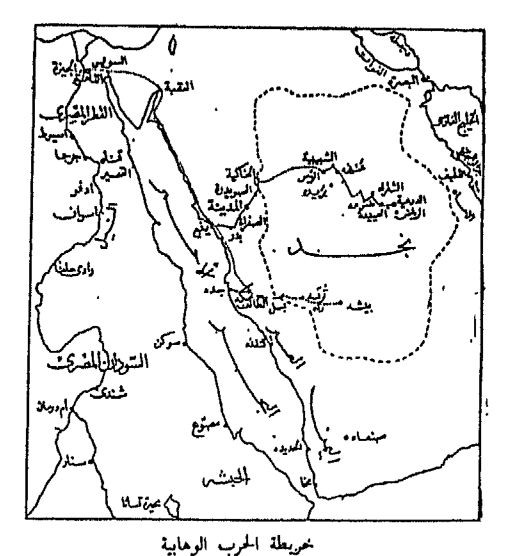
رابعا : أنه بتحقيق النصر فى الحملة على الوهابيين يجعل لمصر مكانة خاصة بين باقى الولايات العثمانية التركية واعترافا لمصر بالمنعة والقوة الجديرين بإمكان تحقيق استقلالها الفعلى وبالتالى استقلال «محمد على» بحكم مصر بعيدا عن سيطرة الحكومة التركية وقطع خط الرجعة على تآمرها ضده ..

معدات الحملة

اتخذ «محمد على» من حى (القبة) معسكراً أساسياً لتجميع قوات الحملة التى ستقوم بمحاربة الوهابيين فى بلاد الحجاز ، وسلم قيادة هذه الحملة إلى ابنه «أحمد طوسون باشا»

ورتب للاحتفال بذلك يوم أول مارس ١٨١١ - احتفالا باسناد قيادة الحملة إلى ابنه - ، إلا أن هذا الاحتفال أرجىء تنفيذه إلى يوم الثلاثين من مارس ١٨١١[1] ، ذلك لأن «محمد على باشا» قرر فى نفسه - وبدهائه وذكائه المعهودين فيه - قرر تنفيذ مذبحة القلعة التى تخلص فيها نهائياً من المماليك وأمرائهم حتى تم له ما أراد ، وبسبب هذه المذبحة قرر «محمد على باشا» إرجاء حفل تسليم قيادة الحملة إلى ابنه إلى يوم الثلاثين من مارس ١٨١١ ..

وفى هذا اليوم - ٣٠ مارس ١٨١١ - تحرك موكب الاحتفال باسناد قيادة الحملة إلى حى (القبة) وهو مقر المعسكر الذى خصص لتجهيز الحملة ، وأخذ «أحمد طوسون باشا» فى تجهيزها حيث مكث فى ذلك مدة ستة شهور وبلغ تعداد قواتها ٨٠٠٠ مقاتل منهم ستة آلاف من المشاة وألفين من قوات الفرسان.من بينهم كثير من فرسان البدو - العارفين بدروب الصحراء ومسالكها - وقد أسند «أحمد طوسون باشا» إلى السيد «محمد المحروقى» - كبير تجار مصر وابن السيد أحمد المحروقى الذى قام بتجهيز الحملة والاشراف المالى والإدارى عليها .



خريطة الحرب الوهابية

وفيها بيان المواقع

(١) «عصر محمد على» الحبرى ص ٣٦٣

قام «أحمد طوسون باشا» بالزحف بقوات الحملة المصرية فى إتجاه وادى (الصفراء) وكانت الحملة بكامل قوامها ثمانية آلاف مقاتل ، فلما صاروا فى درب ضيق يطل عليهم الوهابيون من أعلى المرتفعات المحيطة به ، انهالت قذائف الوهابيين على القوات المصرية فجأة وفتكت بهم ، فكانت الهزيمة لتشتت جنود الحملة المصرية وانسحابهم فى غير نظام تاركين وراءهم أسلحتهم ومدافعهم وذخائرهم ومعداتهم ومؤنهم ولاذوا بالفرار فى إتجاه ساحل البحر الأحمر ، فكانت هزيمة قاسية وكبيرة فقدت[1] فيها الحملة المصرية كثيرا من القتلى ومعظم مدافعها وأسلحتها وذخيرتها ومؤونتها حيث قتل منهم عدة آلاف من الجنود فى حالة الانسحاب ولم يتبق من جنود الحملة المصرية عند وصولهم إلي ميناء (ينبع) سوى ثلاثة آلاف جندى ..

وصلت هذه الأنباء السيئة إلى «محمد على باشا» ، ولما كان أكثر الضباط والجنود الهاربين من (الأرناؤود) ، كان تأثر «محمد على باشا» شديدا حيث قام فور وصولهم إلى مصر بمحاكمتهم خاصة المقصرين منهم فأقصاهم عن مراكزهم ثم نفاهم بعيدا عن مصر وكان بينهم «صالح قوش»[2] ..

ومن هنا أخذ «محمد على يفكر فى عدم الاعتماد فى حروبه مستقبلا على الجنود الغير نظاميين ، ولذلك عندما طلب «طوسون باشا» المدد كان «محمد على» - فى ذات الوقت - مصمما على النصر حيث قابل[3] هذه الهزيمة بالجلد والثبات فاستمر فى تجهيز حملة جديدة جمع لها الأموال اللازمة بكل الطرق والوسائل ..

أما الوهابيون فلم يقوموا بمطاردة قوات الحملة المصرية ولم يهاجموها فى (ينبع) بل اكتفوا بتحصين (المدينة المنورة) وفى انتظار وصول المدد من مصر استطاع «طوسون باشا» أن يقوم باستمالة القبائل العربية المتناثرة بين ميناء (ينبع) و (المدينة المنورة) بأن أغدق عليهم المال والهدايا فانضموا إليه وانقلبوا ضد الوهابيين وكان ذلك مما مهد له السبيل للتغلب على الوهابيين فيما بعد ..

---

(١) «عصر محمد على» - الجبرتى - ص ١٢٧ .

(٢) «صالح قوش» - القائد الأرناؤودى منفذ مذبحة القلعة ضد المماليك

(٣) «عصر محمد على» - الجبرتى - ص ١٢٧

احتلال وادى «الصفراء» (اكتوبر ١٨١٢)

فى أول أكتوبر ١٨١٢ بعد وصول المدد من مصر مكونا من الجنود بمعداتهم وأسلحتهم وذخائرهم والمؤن والأموال وانضم إليهم عدد كبير من القبائل من أعراب (جهينة) و (حرب) ، قام «طوسون باشا» بالزحف إلى وادى «الصفراء» حيث احتل الوادى بدون مقاومة ..

احتلال «المدينة المنورة» (آخر ديسمبر ١٨١٢)

تابعت قوات الحملة المصرية زحفها حتى وصلت إلى أسوار (المدينة المنورة) حيث كانت رحلة شاقة لبعد المسافات واشتداد حرارة الجو ، فكان الجنود يزحفون ليلا ويستريحون نهاراً حتى وصلوا إلى سور المدينة فضربوا حولها حصارا واكتفوا بأن وضعوا لغما كبيرا تحت السور فى منطقة تبعد بمسافة كافية عن الحرم النبوى الشريف وحذروا أهالى المدينة حتى لا يصيبهم مكروه وقاموا باشعال اللغم وتفجيره وبذلك تم نسف جزء كبير من السور كان كافيا لفتح ثغرة دخل منها جنود الحملة المصرية وتغلبوا على قوات الحامية الوهابية فأحدثوا بينهم الخسائر الجسيمة ، وتم بذلك احتلال (المدينة المنورة) فى آخر ديسمبر ١٨١٢ - فى عيد الأضحى (١٠ ذى الحجة ١٢٢٧ هـ) ، وعندما وصلت أنباء هذا النصر إلى «محمد على باشا» اغتبط كثيرا وأمر باقامة الاحتفالات ، إلاَّ أنه وبعد فترة قليلة قضاها جنود الحملة المصرية للراحة ، عاودوا تقدمهم حيث احتلوا بلدة (الحتاكية) شمالى (المدينة المنورة) ..

فتح مكة (يناير ١٨١٣) ثم الطائف (٢٩ يناير ١٨١٣)

عاد «طوسون باشا» إلى ميناء (ينبع) حيث أقلع منها إلى ميناء (جدة) واحتلها وتقابل هناك مع «الشريف غالب» واتجه منها صوب (مكة) واحتلها - دون قتال - فى يناير ١٨١٣ ، ومنها تقدم الجيش المصرى إلى مدينة (الطائف) التى تم احتلالها فى ٢٩ يناير ١٨١٣ ، ووصلت أنباء هذه الانتصارات إلى مصر فى ٩ فبراير ١٨١٣ فأقيمت الاحتفالات بهذه الانتصارات لمدة خمسة أيام ..

مخطط الوهابيين وتحرج موقف المصريين

كان الأمير «سعود بن عبد العزيز» يتمتع بالقدر الكبير من الحنكة والكفاءة بمكان حيث تعمد ألاَّ يخاطر باستخدام كل قواته فى معركة واحدة مع الجيش المصرى ، فاحتفظ بقواته الأساسية حتى دخلت قوات الجيش المصرى (مكة) ووصلت إلى (الطائف) ، وكان يراقب تطور القتال ويدرس أسلوب الجيش المصرى فى القتال ، إذ عمل على أن يقوم أتباعه وأنصاره من الوهابيين بالاشتباك مع قوات الجيش المصرى فى معظم المعارك محتفظا بقواته الأساسية سليمة وكاملة حتى يستخدمها بتركيز فى الوقت والمكان المناسبين له ، وأخذ يستعد ويخطط لذلك حتى بلغه نبأ احتلال الجيش المصرى لمدينة (الطائف) ، فأصدر أوامره إلى قواته بالزحف بعد أن قسمها إلى جيشين حيث قام هو بقيادة الجيش الأول بنفسه بينما أسند قيادة الجيش الثانى إلى ابنه «فيصل» وزحف الجيشان فى إتجاه (مكة) و(المدينة) فى الوقت الذى أخذت قوات القبائل الوهابية يقومون بقطع خطوط المواصلات والاتصالات على الجيش المصرى بين المدينتين مما أدى إلى تبدل ميزان الموقف العسكرى مرة واحدة ، وهنا فطن وأدرك ذلك «طوسون باشا» فبادر بالخروج لملاقاة قوات الأمير «سعود» حيث هاجم مراكز احتشاد قواته ..

هزيمة الجيش المصرى فى (تَرَبَة) و(الجناكية)

كانت القوات التى يقودها الأمير «فيصل بن سعود» متمركزة فى مدينة (تَرَبَةْ) التى أحاطها بالخنادق ، فى الوقت الذى قامت فيه القوات المصرية بقيادة (مصطفى بك» بالشروع فى مهاجمة قاعدة (تَرَبَةْ) وفجأة باغتت وانقضت القوات الوهابية على القوات المصرية وكانت القوات الوهابية بقيادة سيدة من نبيلات القبائل الوهابية تدعى «غالية» التى أثارت الحماس والحمية فى صفوف قواتها فاشتد القتال إلى أن تمت هزيمة الجيش المصرى وقد انسحبت قواته – بغير نظام – إلى مدينة (الطائف) مخلفة وراءها مدافعها وأسلحتها وذخيرتها غنيمة للوهابيين ..

وفى ذات الوقت كان الجانب الآخر من قوات الجيش المصرى ترابط فى (الحناكية) بقيادة «عثمان بك الكاشف» ، قام «الأمير سعود» يقود قوات تقدر بعشرين ألف مقاتل بمهاجمة (الحناكية) التى تبعد عن (المدينة) بنحو عشرين ميلا ، إلاَّ إنه ورغم الدفاع

المستميت عن (المدينة) ، اضطرت القوات المصرية إلى الاستسلام أمام الجموع الغفيرة من قوات الوهابيين الذين احتلوا (الحناكية) واستأنفوا التقدم والزحف صوب (المدينة) ، وهنا وبسقوط (تربة) و (الحناكية) فى أيدى الوهابيين رجحت كفتهم فأخذوا يواصلون انتصارهمَ باستمرار الزحف ومهاجمة المواقع الأمامية للجيش المصرى دون هوادة ، ولسوء حظ الجيش المصرى أن انتشرت بين صفوف قواته الأمراض لما أصابهم من إعياء شديد نتج عن شدة ارتفاع درجة حرارة الجو فى الصحراء ورداءة الطقس وقلة المؤن والمياه إلى جانب عدم مصاحبة العدد الكافى من الأطباء لهذه القوات ففتكت بهم الأمراض وكانت خسائر القتال من جانب والأمراض من جانب آخر خسائر فادحة إذ هلك نحو ثمانية آلاف من جنود الجيش المصرى كما نفق ما يزيد عن ألف رأس من الابل والماشية ، وقد بلغت تكاليف هذه الحملة حتى هذا التاريخ أكثر من ٣٥٠٠٠ كيس[(١)] بما يعادل مبلغ ١٧٥٠٠٠ جنيه ، مما اضطر معه «طوسون باشا» إلى الالتزام بخطة دفاع فاعتصم بما تبقي معه من قوات فى (مكة) و(المدينة) و(ينبع) وأرسل إلى مصر طالبا المدد ..

سفر «محمد على» إلى الحجاز (أغسطس ١٨١٣)

بعد تحرج موقف الجيش المصرى نتيجة الهزيمة فى (تربة والحناكية) ، سارع «محمد على» إلى حشد قوات جديدة قادها وسافر بها إلى الحجاز فى شهر أغسطس ١٨١٣ متمسكا بعناد القائد المحنك مصمما على ضرورة تحقيق النصر على الوهابيين مهما كلفه ذلك ، وبوصوله مع قواته إلى ميناء (جدة) ارتفعت الروح المعنوية فمكث فيها يدرس الموقف وحالة القوات بحنكة المقاتل العنيد ، ومضى بقواته قاصدا (مكة) حيث أدى هناك مناسك الحج وتلقب بلقب (الحاج محمد على) وهناك بادر باعتقال «الشريف غالب»[(٢)] شريف (مكة) لارتيابه في إخلاصه وأرسله إلى مصر - فى نوفمبر ١٨١٣ - وولى بدلا منه «الشريف يحى بن سرور» .

أعاد «محمد على» تخطيط الدفاعات عن (مكة) بحيث أصبحت محصنة تماما وفى غاية المناعة وعهد إلى ابنه «طوسون» بالتقدم من (الطائف) فى إتجاه (تربة) بهدف الاستيلاء عليها وقام بمحاصرتها إلاَّ أن مؤونة جيشه نفدت فساءت حالة قواته مما اضطر

(١) الكيس = ٥٠٠ قرش .

(٢) بعد أن وصل «الشريف غالب» إلى القاهرة ثم نقله إلى (سالونيك) حيث توفى هناك ١٨١٦

معه «طوسون» إلى رفع الحصار عن (تربة) والارتداد منسحبا بقواته يتعقبهم الوهابيون حتى عاد «طوسون» بقواته إلى (الطائف) دون إحراز تقدم أو نجاح ..

في ذات الوقت كان «محمد على» قد أرسل حملة إلى ميناء (قنفذة) حيث احتلت المدينة وأبقى بها قوة قوامها ألف ومائتي جندى وجعل منها حامية ، إلا أنه فات قائد الحامية الاستيلاء على عين الماء الوحيدة (البئر) التى تستقى منها البلدة فاستولى عليها العربان الذين قاموا بقطع المياه عن الحامية المصرية ، وعندما أرسل قائد الحامية قوة لمحاولة السيطرة واستخلاص البئر هاجمهم الأعراب وتغلبوا على القوة المصرية مما اضطر قائد الحامية إلى الانسحاب إلى (جدة) وتمكن الوهابيون من الفتك بالكثير من جنود الحامية المصرية أثناء انسحابهم ، وبذلك فشلت - أيضا - الحملة على (قنفذة) ..

محمد على يعيد تنظيم قواته

بعد أن فشل الجيش المصرى على استعادة الاستيلاء على (تربة والحناكية وقنفذة) ، رأى «محمد على» أن يتوقف لفترة عن خوض أية عمليات عسكرية لالتقاط الأنفاس وإعادة دراسة الموقف على ضوء ما لحق بقواته من هزائم آخذا فى الوقت نفسه فى إعادة تنظيم قواته خاصة بعد أن وصله مدد آخر من مصر قوامه سبعة آلاف[1] مقاتل من مختلف طبقات وطوائف الشعب المصرى من المتطوعين الراغبين فى الجهاد والذين كانوا يشكلون خليطا من المغاربة والصعايدة والفلاحين وكانت هذه أول تجربة ولأول مرة يعتمد فيها «محمد على» على تجنيد المصريين - ووصل المدد من المتطوعين والأموال إلى «محمد على» فى (جدة) قبل منتصف عام ١٨١٤ ..

فى شهر أبريل ١٨١٤ ، توفى الأمير «سعود بن عبد العزيز» فى مدينة (الدرعية) وكان قائد الوهابيين المقتدر وخلفه نجله الأمير «عبد الله بن سعود» - الذى لم يكن فى كفاءة أبية - مما كان يعد من حسن حظ «محمد على» ..

بعد تولى «الأمير عبد الله بن سعود» ، قام الوهابيون بمهاجمة أحد المواقع المصرية فى (وادى زهران) - على الحدود الفاصلة بين اليمن والحجاز - فانسحب الجنود المصريون من الموقع حيث تعقبهم الوهابيون حتى (الطائف) وحاصروهم وكان بها «طوسون باشا» ..

---

(١) عصر محمد على للاستاذ الرافعى ص ٤٣٥ ، ص ٣٢٢

خطط «محمد على بمكر ودهاء فرسم خطة كلها خداع ، فأرسل بأحد الاسرى يحمل رسالة يقوم بتوصيلها إلى «طوسون باشا» - المحاصر بالطائف - يبلغه بمعلومات، خادعة مفادها أن «محمد على» قادم بقوات ضخمة وكافية لانقاذ «طوسون باشا» وفك الحصار عنه ، وكان «محمد على» متأكدا من أن الأسير سيسقط ومعه الرسالة فى أيدى الوهابيين المحاصرين للطائف الذين انخدعوا وتوهموا قدوم قوات مصرية ضخمة ، فانسحب الوهابيون ورفع بذلك الحصار عن الطائف ، وعاد «محمد على» ومعه ابنه «طوسون» إلى (مكة) فى يونية ١٨١٤ ومنها عادوا إلى (جدة) ..

بذل «محمد على» جهدا كبيرا فى تدريب جنوده المصريين المتطوعين حتى أنه إستطاع بواسطتهم من إخماد ثورة كانت قد نشبت بين رؤساء القبائل المتناثرة بين (ينبع) و (المدينة) ضد حاكم (المدينة) لتعسفه معهم وظلمه لهم ، فوعد «محمدعلى» رؤساء القبائل الثائرين بعقاب هذا الحاكم بل وقتله ، مما أدى إلى هدوء واستقرار الأحوال واستتباب الأمن فما كان من القبائل ورؤسائهم إلاً إعلان تأييدهم للقوات المصرية مما تحقق معه تأمين قوافل الحج فى هذا العام كما قام «محمد على» بأداء مناسك الحج للمرة الثانية فذاعت شهرته بين سائر بلاد المسلمين مما أدى إلى تبدل الموقف لصالح القوات المصرية ..

تبدل الموقف إلى الأحسن لصالح «محمد على» والقوات المصرية (يناير ١٨١٥)

بعد انتهاء موسم الحج مباشرة وعودة قوافل الحجاج كل إلى بلاده ، كانت القوات المصرية بقيادة «محمد على» قد أتمت تدريباتها واستعداداتها ، فاستأنف «محمد على» الحرب على الوهابيين إذ زحف بقوات قوامها أربعة آلاف مقاتل على موقع (بل) الذى يحتله الوهابيون ودارت المعركة بين الفريقين إلى أن انتهت بهزيمة الوهابيين ، وكانت هذه المعركة من أهم المعارك فى الحرب الوهابية إذ على إثر هذا النصر الذى حققة المصريون تابعوا زحفهم حيث أمكنهم استعادة (تربة) ثم احتلوا (رنية) و (بيشه) ، ويرجع الفضل فى هذه الانتصارات إلى «محمد على» نفسه وأسلوبه المعنوى فى القيادة إذ شارك جنوده شظف العيش واكتفى بغذاء التمر فقط إسوة بجنوده ، واستمر «محمد على» فى زحفه بقواته حتى استعاد ميناء (قنفذة) وعاد إلى (جدة) ومنها إلى (مكة) ظافرا غانما .

أما «طوسون» فقد زحف بقواته من (المدينة) حتى شمال (نجد) وتمكن من احتلال

(الرَّس) وهى من المدن الهامة ثم احتل (الشبيبية) الواقعة على الطريق المؤدى إلى (الدرعية) - عاصمة الوهابيين ومقر تمركزهم ، وهنا تأهب الجيشان المصرى والوهابى للمعركة الفاصلة ..

الوهابيون يطلبون الصلح

فى ذلك الوقت كان لدى الوهابيين نحو عشرين ألف مقاتل بقيادة الأمير «فيصل بن سعود» عدا نحو عشرة آلاف مقاتل احتياطيين ، وبعد معركة (الشبيبية) قرر «طوسون باشا) التريث لالتقاط الأنفاس وتنظيم صفوف قواته تأهبا لاستئناف العمليات الحربية لأنه كان إزاء جيش يفوقه عددا وعدة وعتادا ، إلاّ إنه - فجأة وبمبادرة لم تكن متوقعة - فوجىء «طوسون باشا» بوصول رسول من الامير «عبد الله بن سعود) يعرض عليه الصلح ، فرجع «طوسون» إلى أبيه «محمد على باشا» يعرض عليه الأمر فوافق وعقدت الهدنة فتوقفت العمليات الحربية بين الجيشين واحتفظ كل جيش بمواقعه حتى تنتهى الهدنة ..

عودة «محمد على» إلى مصر

وفجأة - أيضا - وبعد أن عقدت الهدنة عاد[1] «محمد على باشا» إلى (القاهرة) على أثر إبلاغه أنباء عن مؤامرة دبرها «لطيف بك» وهو شاب من المماليك كان «محمد على» قد قربه إليه وجعله أمينا على خزائنه وبعث به إلى تركيا لينقل إلى السلطان بشرى الانتصارات التى حققها الجيش المصرى على الوهابيين فى بلاد الحجاز ، فأنعم عليه السلطان برتبة «المير ميران» ولقب (باشا) ، ولم يكن السلطان ينعم بهذه الرتبة وهذا اللقب إلاّ على أبناء «محمد على باشا» فقط ، مما جعل الشك يتسرب إلى نفس «محمد على» بأن هذا الإنعام فى مقابل شىء يدبر ضده بين «لطيف باشا» والحكومة التركية ، وكذلك نقم عليه «كتخدا محمد على» - «محمد لاظ أوغلى» - لكرهه الشديد لجنس المماليك ، ففى أثناء وجود «محمد على باشا» فى بلاد الحجاز ، لفق «محمد لاظ أوغلى» إلى «لطيف باشا» تهمة التآمر على «محمد على باشا» لحساب الحكومة التركية - كذبا وزورا - وعندما حاول القبض عليه لمحاكمته هرب «لطيف باشا» ولكن رجال الكتخدا «محمد لاظ أوغلى» تعقبوه حتى قتلوه وادعوا لدى «محمد على باشا» أنه كان يتآمر ضده ..

---

(١) «عصر محمد على» - الجبرتى جزء ٤ - ص ٣٢٢ .

عودة إلى الصحوة :

محاولة «محمد على» تحديث الجيش المصرى اعتمادا على الجنود المصريين[1]

بعد نجاح تجربة استخدام «محمد على» للمتطوعين المصريين في حرب الحجاز وثبوت جدارتهم وإخلاصهم فى القتال ، حاول «محمد على» تنفيذ فكرة إنشاء وتكوين جيش مصرى حديث وعدم الاعتماد على الجنود الغير نظاميين وبخاصة بعد عودته من الحجاز عام ١٨١٥ على أثر الهدنة مع الوهابيين ، فبدأ بتدريب فرقة من الجنود التابعين لابنه «إسماعيل باشا» على النظام الحديث وأعلن عن رغبته فى تعميم النظام الحديث فى صفوف الجيش المصرى وبدأ فى تنفيذ ذلك فى شهر أغسطس ١٨١٥ ..

تآمر الجنود الأتراك

حتى ذلك الحين كان معظم جنود الجيش من الأتراك المعتادين على عدم النظام ، وعندما شرع «محمد على باشا» فى تحديث الجيش أنذر الجنود الأتراك بأن من لايذعن لنظام الجيش الجديد سيعاقب بتهمة التمرد ، إلاَّ أن بعض رؤساء الجنود الأتراك المتعودين على الفوضى قاموا بتدبير مؤامرة ضد «محمد على» لخلعه إلاَّ أنه تمكن من إحباط تلك المؤامرة التى أبلغه بتفاصيلها «عابدين بك» - أحد رؤساء الجنود الأرناؤود الذى عاد مريضا من الحجاز حيث توسم فيه المتآمرون موافقته على الانضمام إليهم فى مؤامرتهم التى تقضى بمهاجمة «محمد على» وخلعه ، فلما علم بتفاصيل المؤامرة بارح «محمد على» قصر الأزبكية سرا فى منتصف الليل حيث توجه إلى القلعة ، فلما توافد المتآمرون إلى ميدان الأزبكية - مقر الوالى «محمد على» ، وكانت فتنة خطيرة - لأنهم لما لم يجدوا بغيتهم بالقصر توجهوا إلى ميدان الرميلة (القلعة) وهاجموا فى طريقهم الأسواق فأخذوا ينهبونها ويسلبونها ، ورغم ذلك عالج «محمد على» هذه الفتنة بالحكمة حتى أخمدها وأرجأ تنفيذ النظام الجديد لتحديث الجيش إلى وقت آخر ..

انتهاء الهدنة مع الوهابيين

قبل مغادرة «محمد على باشا» بلاد الحجاز عائدا إلى مصر ، ترك لابنه «طوسون باشا» توصية بالمبادرة بالزحف بقواته إلى (الدرعية) معقل الوهابيين ومقر تمركزهم للقضاء عليهم ، فأرسل «طوسون باشا» إلى الأمير «عبد الله بن سعود» يخبره بامكان قبول

---

(٢) المصدر السابق .

الصلح بشروط قاسية كان أشدها أن تحتل الجيوش المصرية مدينة (الدرعية) وأن يعيد «عبد الله بن سعود» جميع ما استولى عليه الوهابيون من نفائس وجواهر الحرم النبوى الشريف التى نهبوها ، وأن يكون الأمير «عبد الله بن سعود» رهن أوامر «طوسون باشا» وأن يؤمن طرق الحج أمام قوافل الحجاج ، وأرسل «طوسون باشا» مبعوثا يعرض على أبيه «محمد على باشا» - فى مصر - هذه الشروط للحصول على موافقته ، وفى ذات الوقت أرسل الأمير «عبد الله بن سعود» وفدا إلى مصر - فى سبتمبر ١٨١٥ - عارضا الصلح مباشرة على «محمد على باشا» .

إلاَّ أن «محمد على باشا» لم يوافق على شروط الصلح التى اقترحها عليه ابنه «طوسون باشا» وأظهر تشددا بأن صمم على معاملة أمير الوهابيين معاملة الخوارج العصاة هادفا بذلك إلي القضاء نهائيا على الدولة الوهابية والتخلص كلية من الوهابيين المنتشرين فى الجزيرة العربية وأن يعتبر أمير الوهابيين أسيراً ويعامل وأتباعه معاملة الأسرى بل وأصر «محمد على باشا» على أن يحضر الأمير «عبد الله بن سعود» شخصيا إلى مصر لاعلان الاستسلام ويتوجه إلي الآستانة مقر الحاكم التركى ليكون رهن أوامر السلطان ، إلاَّ أن الأمير «عبد الله بن سعود» رفض الشروط التى أملاها عليه «محمد على باشا» لأنه فى حالة تنفيذها سيكون فيها نهاية دولته بل ونهاية حياته هو شخصيا إذا ما سلم نفسه إلى السلطان التركى فهو بذلك يكون قد سلم رقبته إليه ، فأرسل إليه «محمد على باشا» يهدده باستئناف الحرب وبذلك أخفقت مفاوضات الصلح وتأهب الأمير «عبد الله بن سعود» للحرب ..

وعلى إثر ذلك قام «محمد على باشا» بتجهيز حملة جديدة بقيادة أكبر أبنائه[1] «إبراهيم باشا» تضم عددا كبيرا من الجنود المقاتلين الذين تم تدريبهم تدريبا جيدا ومزودين بالعدة والعتاد والاسلحة والذخيرة والمؤن الكافية لخوض الحرب ..

عودة «طوسون باشا» إلى مصر (٨ نوفمبر ١٨١٥)

عندما علم «طوسون باشا» بأخبار الفتنة والمؤامرة التى دبرها الجنود الأرناؤود وقيامهم بالتآمر على أبيه الوالى «محمد على باشا» لخلعة من الولاية ، فانزعج وصمم

(١) «عصر محمد على» - الجبرتى ٤ - ص ٣٢٣

على العودة إلى مصر فغادر بلاد الحجاز حيث وصل إلى مصر فى ٨ نوفمبر ١٨١٥ للوقوف إلى جانب أبيه بعد وصول أخيه الأكبر «إبراهيم باشا» بالحملة الجديدة لمحاربة الوهابيين .

(عودة إلى التنمية المصرية)

- بداية النهوض بالمجتمع المصرى..

كان «محمد على باشا» - رغم مشاغله المتعددة - قد نال قسطا من التعليم ، وبعد عودته منتصرا من حرب الوهابيين - فى عام ١٨١٦ - ونتيجة تجربته فى استخدام المصريين لأول مرة في الحرب ضد الوهابيين ، فقد لاحظ أثناء التحضير والتجهيز للحملات العسكرية أن البلاد فى حاجة إلى مهندسين متخصصين فى مختلف المجالات ليعهد إليهم بالعمل فى مجالات التصنيع والعمران لزوما لتدعيم الحرب وبداية للتنمية صناعيا وعمرانيا على أسس علمية ..

ففى عام ١٨١٦ ، بدأ «محمد على باشا» بإنشاء مدرسة لتعليم الهندسة بعد أن قدم له أحد أبناء البلد المصريين يدعى «حسين شلبى عجوة» نموذجا لآلة من اختراعه لضرب الأرز[١] وتبييضه ، فأعجب بها «محمد على باشا» وأنعم على مخترعها بمكافأة وأمره بتركيب مثيلها فى (دمياط) وأخرى فى (رشيد) لشهرتها فى إنتاج الأرز والإتجار فيه .

فكان هذا الاختراع باعثا لتوجيه فكر «محمد على باشا» إلى إنشاء مدرسة للهندسة فتم إنشاؤها فى القلعة خاصة بعد أن تأكد من أن أبناء مصر لديهم الاستعداد والقابلية للمعرفة والعلم حيث أنشئت هذه المدرسة[٢] في حوش القصر بالقلعة ، وألحق بها عددا من أولاد البلد المصريين وبعض مماليكه وقام بتعيين «حسن أفندى» - المعروف بالدرويش الموصلى - معلما لهم ، وتقرر البدء بتدريس قواعد الحساب والهندسة وعلوم المقادير القياسات والارتفاعات واستخراج المجهولات - أى التنقيب عن الثروات فى باطن الأرض من معادن وخلافه ، وقام «روح الدين أفندى» - وهو شخص (رومى / تركى) ومعه أشخاص آخرين من الافرنج استقدمهم من خارج البلاد - لمعاونة «حسن أفندى- الدرويش الموصلى» وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من صناعة الانجليز تستخدم فى قياس الأبعاد والارتفاعات والمساحات ، وخصص «محمد على باشا» رواتب شهرية وكساوى سنوية

---

(١) «حوادث ١٢٣١هـ / ١٨١٦م - للجبرتى جزء ٤ ص ٢٤٢ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢

للدارسين والملتحقين للتعلم فى هذه المدرسة حيث سميت (المهندسخانة) وكان نظام التعليم فيها فى كل يوم من الصباح الباكر إلى ما بعد الظهر ..

وبذلك كانت هذه المدرسة هى أول مدرسة للهندسة وكانت تعتبر مدرسة عالية أنشئت في عصر «محمد على باشا» وهى باكورة أعمال النهوض بالمجتمع المصرى التى وضع أسسها «محمد على باشا» لتعليم أبناء الشعب المصرى للاعتماد عليهم فى كل مرافق الدولة المصرية الفتية الناهضة ..

بداية النهوض العمراني فى مصر (١٨١٧)

بعد أن عاد «محمد على باشا» من حرب الوهابيين ، وجد - بثاقب فكرة - أن المجتمع المصرى مادام مشغولا في حرب خارجية فإنه تحتاج إلى تمويل لايقدر عليه ولايحققه إلاّ مجتمع عامر بالانتاج فلابد من توفير عناصر هذا الانتاج حتى لا يكون الاعتماد - بصفة رئيسية في تمويل الحرب والحروب المستقبلية على إرهاق الشعب بفرض الإتاوات والضرائب ، ومن هنا بدأ تفكير «محمد على» فى التخطيط لتعمير البلاد وتنميتها فبدأ فى التخطيط للنهوض بالزراعة أولا حيث هى أهم عناصر الانتاج فى مصر لتوفير القوت والغذاء للشعب.

فكان أن بادر في عام ١٨١٧ بالبدء فى حفر ترعة المحمودية[١] (وكانت تسمى ترعة الاسكندرية القديمة أو خليج الأشرفية التى كان إنشاؤها بغرض الرى لإحياء الأراضى الزراعية فى مديرية البحيرة وفى نفس الوقت لاستخدامها كطريق مواصلات نهرية عبر النيل بين الاسكندرية وباقى البلاد المصرية لنقل الحاصلات الزراعية والواردات ، حيث كانت الطريق الوحيد لذلك عن طريق رشيد ، إذ كانت تتعطل المواصلات فى هذه الطريق لصعوبة اجتياز البوغاز ، فأصبحت ترعة المحمودية بعد إتمام حفرها واستخدامها سببا فى النهوض والعمران بالبلاد التى تمر بها وقد تم حفرها وافتتاحها فى عام ١٨١٩ ..

كذلك كان من الأعمال الجليلة التى قام بها «محمد على باشا» للنهوض بعمران مصر قبل شق ترعة المحمودية ، هو قيامه بسد وردم ترعة (الفرعونية) فيما بين عامى ١٨٠٦ / ١٨٠٩ ، حيث كانت هذه الترعة تصل بين فرعى (دمياط) و (رشيد) مرورا ببلدة (منوف) وكان الغرض منها تغذية فرع رشيد من فرع دمياط ، إلاّ أنها كانت تشكل إضراراً بأراضى

البلاد الواقعة على فرع دمياط خاصة (المنصورة) وما يليها شمالا حيث كانت هذه الترعة تستنفد الكميات الكبيرة من المياه من فرع دمياط فتقل فيه المياه النيلية وتطغى عليه مياه البحر الأبيض المالحة فتختلط بمياه النيل فتزيد ملوحتها فتفسدها وتفسد زراعة الأرز فى البلاد المارة بها حتى (فارسكور) ، وبعد أن قام «محمد على باشا» بسدها وردمها بالحجارة وتوقف إنسياب المياه من فرع (دمياط) كان لذلك فوائد عظيمة أدت إلى زيادة وجودة إنتاجية الأراضى التى كانت تمر بها هذه الترعة خاصة بعد إنشاء ترع أخرى تعوض هذه الأراضى مغذية لها بالمياه العذبة بدلا من المياه المرتفعة الملوحة ..

عودة إلى الحرب الوهابية :

استئناف الحرب بقيادة «إبراهيم باشا»

أقلعت المراكب محملة بالجنود والمؤونة والمدافع والذخائر والمهمات عبر نهر النيل من بولاق إلى قنا ومنها تم نقل الحمولات بالطريق البرى إلى ميناء (القصير) حيث أعيد تحميلها على السفن الكبيرة التي أقلعت إلى ميناء (ينبع) عبر البحر الأحمر ، وقد بدأ تحرك هذه الحملة يوم الخامس من سبتمبر ١٨١٦ من بولاق ، وفى أسيوط قام «إبراهيم باشا» بتجنيد حوالى ألفين من الفلاحين الصعايدة المصريين لينضموا إلي الحملة وكانت هذه هي التجربة الثانية التى نجح فيها «محمد على باشا» فى تجنيد الفلاحين المصريين والحاقهم بفواته العسكرية بعد تدريبهم وإعدادهم إعدادا جيدا للقتال كما قدم «العبابدة» إلى «إبراهيم باشا» حوالى ستة آلاف من الجمال اللازمة للحملة عبر الصحراء فى الجزيرة العربية ، ووصلت الحملة إلى مىناء (ينبع) فى اليوم التاسع والعشرين من سبتمبر ١٨١٦ ، وكان «إبراهيم باشا» قد اصطحب معه الضابط الفرنسى «مسيو فيسير Vaissere» وطبيب وجراحان وصيدلى من الايطاليين لمرافقة الحملة والاشراف عليها صحيا ..

وإتجه «إبراهيم باشا» بقوات جيشه من ميناء (ينبع) إلى (المدينة) حيث قام بتأدية مناسك العمرة بزيارة الروضة النبوية الشريفة ، وبعد ذلك استعد للزحف والقتال متجها بقواته نحو (نجد) وكان فى تقدمه قد خصص ألفين من جنوده لمحاربة القبائل الموالية للوهابيين المتناثرة فى بعض المناطق وأوقعت بهم الهزيمة مما جعل أفراد هذه القبائل تعلن ولاءها للجانب المصرى خاصة عندما تخلى عنهم الوهابيون ولم يمدوا لهم يد العون والمساعدة ، وتعهدت القبائل بأن تقدم مايطلبه منهم «إبراهيم باشا» من الابل وغيرها ،

واستأنف «إبراهيم باشا» الزحف بقواته من قاعدة فى (الصويدرة) - شمال المدينة - ثم إتجه منها إلى (الحناكية) واتخذ منها قاعدة لزحفه نحو (الرس) التى كان بها معسكر الأمير «عبد الله بن سعود» ..

وفاة «طوسون باشا» (٢٩ سبتمبر ١٨١٦)

بعد وصول «طوسون باشا» إلى مصر، استقبله والده «محمد على باشا» استقبالا حارا وأمر باقامة الاحتفالات كما عينه قائدا للقوات المرابطة على فرع (رشيد)، وكان «محمد على» منذ أحداث الفتنة التى أثارها الجنود الأرناؤود قد شرع فى توزيع الجنود الأتراك فى مختلف أنحاء الوجه البحرى ليتفادى إمكان تجمعهم في العاصمة (القاهرة) تأمينا للنظام وحفاظا على الأمن وتعمد لبث الطمأنينة فى نفوس الجنود الأتراك أن قام بتعيين بعض من أبنائه على رأس كل قوة والبعض الآخر من رؤساء الجند الخاضعين له ..

وبعد تعيينه فى موقعة الجديد، بدأ «طوسون باشا» في الانغماس فى اللهو والملذات حيث جلب إلى مقر قيادته مجموعة من الموسيقيين والراقصيين والراقصات والمغنيات للترويح عن نفسه والراحة بعد ما عاناه فى حرب الحجاز، واستمر في لهوه وملذاته إلى أن عاجلته المنية فى ليلة ٢٩ ستبمبر ١٨١٦، وكان فى مقتبل الشباب.

الحرب تحت قيادة «إبراهيم باشا»

انتصرت طلائع الجيش المصرى على الوهابيين فى معركة بالقرب من (الرس) حيث انسحب الوهابيون واتخذوا من (الرس) قاعدة لهم فتحصنوا بها، فحاصرهم «إبراهيم باشا» بقواته وأخذ يطلق نيران مدافعه عليهم واستمر الحصار لمدة تزيد على ثلاثة شهور دون تحقيق أى تقدم لقوة دفاعات وحصون الوهابيين ورغم تسليح الجيش المصرى تسليحا حديثا مما كبد المصريين خسائر كبيرة إذ قتل منهم حوالى ٢٤٠٠ جنديا بينما قتل من الوهابيين ١٦٠ مقاتلا وهابيا فقط ..

وبعد الثلاثة شهور اضطر «إبراهيم باشا» إلى رفع الحصار عن (الرس) وعرض على الأمير «عبد الله بن سعود» شروطا لوقف القتال كانت كلها لصالح الأمير «عبد الله بن سعود» وكانت هذه الشروط تتمثل فى رفع الحصار عن «الرس» وحياد سكانها - أهلها الاصليين وعدم دخول أى جندى مصرى إليها وعدم إجبار الأهالى على تقديم أى شىء من

المؤونة للجيش المصرى ، وأنه إذا تمكن الجيش المصرى من الاستيلاء على مدينة (عنيزة) يتسلم الجيش المصرى قاعدة (الرس) بدون قتال أو مقاومة وفى حالة عدم تمكن الجيش المصرى من الاستيلاء على (عنيزة) يستأنف القتال مرة أخرى ..

قام «إبراهيم باشا» بالزحف بقواته فى اتجاه (عنيزة) واحتل فى طريقه مدينة (الخبراء) وبمجرد وصول الجيش المصرى إلى (عنيزة) ومحاصرتها قام حاكمها «محمد بن حسن» بتسليم البلدة بشرط أن يسمح «إبراهيم باشا» لقوات الحامية الوهابيين المتمركزة فى (الخبراء) بأن يرحلوا عنها إلى أى مكان وعدم أسر أى فرد منهم بعد تسليم أسلحتها وذخائرها ومؤونتها للجيش المصرى ..

وعندما وصل «إبراهيم باشا» إلى (عنيزة) أرسل كتيبة مصرية لاحتلالها طبقا للشروط المتفق عليها سابقا مع الأمير «عبد الله بن سعود» وكانت (عنيزة) من أهم المواقع فى (نجد) فتراجع الأمير «عبد الله بن سعود» إلى (الشقراء) وقام بتحصين مدينة (الدرعية) وقامت قبائل (القصيم) النجدية بالتسليم «لابراهيم باشا» خوفا من بطشه)، واستمر «إبراهيم باشا» فى الزحف حيث احتل (المدينة) ومكث بقواته فيها لمدة شهرين حيث وصله المدد من مصر ، وفى آخر ديسمبر ١٨١٧ تقدم «إبراهيم باشا» بقواته فى إتجاه (الشقراء) - أقوى بلاد (نجد) - حيث بلغها فى ١٣ يناير ١٨١٨ فبدأ حصارها وداوم ضربها بالمدافع حتى استسلم له أهلها فى ٢٢ يناير ١٨١٨ واتفق معهم على عدم أخذ أسرى منهم وسمح لهم بالرحيل[١] بعد تسليمهم أسلحتهم وهدد من يرتد منهم بالقتل ..

وابتجهت (القاهرة) بسقوط (الشقراء)[٢] فى أيدى الجيش المصرى ، وأصبحت (الدرعية) قريبة إذ تبعد عن (المدينة) بحوالى ٤٠٠ ميل وعلى مسافة يومين ، وكان اجتياز هذه المسافات الشاسعة كان سببا فى تحمل القوات المصرية المشاق والارهاق ..

واستأنف «إبراهيم باشا» التقدم إلى (الدرعية) حيث استولى وهو فى طريقه إليها على (ضرمة) وبقي فيها شهرين لشدة الامطار وسوء حالة الطقس حيث غادرها فى ٢٢

---

(١) «عصر محمد على» - الجبرتى جزء ٤ ص ٢٧٦ - للاستاذ الرافعى ص ١٤٢ إلي ص ١٤٩

(٢) الجبرتى جزء ص ٢٧٦

مارس ١٨١٨ قاصدا (الدرعية) - عاصمة الوهابيين - فى جيش مؤلف من خمسة آلاف مقاتل يتسلحون باثنى عشر مدفعا وكانت محصنة تحصينا منيعا ومزودة ببعض المدافع ، وبدأ «إبراهيم باشا» بضرب (الدرعية) بالمدافع ودافع الوهابيون عنها بعناد ، واستمر الحصار أكثر من شهرين تكبد فيها المصريون خسائر جسيمة خاصة بعد أن هبت عاصفة صحراوية شديدة على معسكرات الجيش المصرى يوم ٢١ يونية ١٨١٨ فتسببت فى اشتعال النيران فى مخازن الذخيرة ففقد الجيش المصرى نصف ذخيرته ، ورغم ذلك تذرع «إبراهيم باشا» بالصبر ورباطة الجأش فأخذ يشجع جنوده ويبث فيهم الحماس قائلا لهم : (لقد فقدنا كل شيء ولم يبق لنا إلاَّ شجاعتنا فلنتذرع بها ونهاجم عدونا حتى بالسلاح الأبيض) ..

انتهز الوهابيون[1] حالة نقص الذخيرة لدى الجيش المصرى فقاموا بالهجوم على قواته فى اليوم التالى لاندلاع الحرائق ، إلاَّ أن «إبراهيم باشا» - بحكمته - أمر جنوده بالاستماتة والاقتصاد إلى أقصى حد فى استخدام الذخيرة ورد الوهابيون على أعقابهم ، واستمرت المعارك فترة من الوقت إلى أن وصلت إليه الذخائر من المواقع المصرية الأخرى المتناثرة والمتمركزة فى البلاد القريبة منها البعيدة عن (الدرعية) ..

عندما بلغت «محمد على باشا» أنباء هذه المعارك التى أصبحت غير متكافئة ، بادر بتجهيز وارسال مدد قوامه ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة «خليل باشا» ، ولما كانت (الدرعية) مقسمة إلى خمسة قرى منفصلة عن بعضها وكانت كل قرية تمثل موقعا دفاعيا حصينا ، فقد أخذ «إبراهيم باشا» بضربها بالمدفعية المكثفة كل موقع على حدة ودام هذا الحصار والضرب لمدة خمسة شهور مما ألحق بالوهابيين وأصابهم بخسائر فادحة ، فبادر الامير «عبد الله بن سعود» أخيرا عارضا الصلح على «إبراهيم باشا» ، حيث أرسل إليه مبعوثا يطلب وقف القتال حتى يتم الاتفاق على الصلح ..

وفى يوم ٩ سبتمبر ١٨١٨ ، توجه الأمير «عبد الله بن سعود» بنفسه للقاء «إبراهيم باشا» الذى تلقاه بالحفاوة والتكريم ، وتم الاتفاق بينهما على أن تسلم (الدرعية) للجيش المصرى فى مقابل أن يتعهد «إبراهيم باشا» بالحفاظ عليها وعلى ألاّ ينال الوهابيين أية أضرار وأن يتوجه الأمير «عبد الله بن سعود» إلى مصر لمقابلة «محمد على باشا» ثم إلى

---

(١) عصر محمد على للاستاذ الرافعى ص ١٤٤ إلى ص ١٤٩

الآستانة كرغبة السلطان ..

وبذلك استولى الجيش المصرى على (الدرعية) كما تابعت باقى المدن على امتداد صحراء (نجد) التسليم والاستسلام وخضعت بذلك (نجد) كلها للقائد «إبراهيم باشا» ..

وكان «محمد على باشا» فى غاية القلق طوال مدة الحصار والقتال واشتداد المعارك ، إلاً إنه حين جاءته - أخيرا أنباء انتصار الجيش المصرى بقيادة ابنه «إبراهيم باشا» ، ابتهج ابتهاجا شديدا وغمره السرور العظيم ، وأعلن عن ابتهاجه وسروره بهذا النصر المبين بأن أمر باطلاق المدافع من القلعة ، وكان ذلك يوم الثامن والعشرين من اكتوبر ١٨١٨ ..

بعد أن تم استسلام (الدرعية) وتسليمها للجيش المصرى ، قام «إبراهيم باشا» بهدم حصونها وأسوارها وتخريب منازلها بأوامر من والده «محمد على باشا» الذي كان يضمر فى نفسه رغبة الإنتقام من الوهابيين لما تحمله وتحملته مصر من ضحايا ونفقات باهظة ولما تخلل المعارك من مصاعب وهزائم كادت تقضى على الحملة المصرية خاصة في هزيمة موقعة (الصفراء) الأولى وحصار (الرس والدرعية) وأيضا لما فقدته الحملة المصرية من ذخائر عندما إلتهمتها النيران تحت أسوار (الدرعية) ..

كان من أهم الأسباب التى أدت إلى إنهيار الدولة الوهابية هى ضعف شخصية الأمير «عبد الله بن سعود» - بعكس شخصية والده - وإلى السمعة السيئة لتصرفات القوات الوهابية المتشددة التى أدت فى كثير من المواقف إلى استخدام أساليب العنف والسلب والنهب وتكفير كل من يخالف الدعوة إلي العقيدة الوهابية المتشددة والمتطرفة ، مما أدى فى المقام الأول إلى إنصراف الكثير من القبائل العربية عن هذه الدعوة إلى تلك العقيدة وتحولها إلى تأييد الجيش المصرى الذى أجزل لأفراد هذه القبائل ورؤسائها الهدايا والمساعدات فأدى ذلك إلى تأمين طرق ومواصلات الحملة المصرية الشاقة وعدم انقطاعها مما مكن مصر من بسط نفوذها وسيطرتها على الجزيرة العربية ، كما أدى ذلك بالتالى إلى إتساع نطاق سمعة مصر وذاع صيتها في ربوع وعلى امتداد العالم الاسلامى لاعادتها الأمن والطمأنينة لقوافل حجاج بيت الله الحرام ..

مقتل الأمير «عبد الله بن سعود» فى الآستانة (١٦ فبراير ١٨١٩)

عندما جاء الأمير «عبد الله بن سعود» إلى العاصمة المصرية (القاهرة) ، رحب به وأكرم ضيافته «محمد على باشا» ثم قام بإرساله إلى الإستانة كطلب السلطان التركى لمقابلته ولكنه أمر بقتله فقتل هناك فى ١٦ فبراير ١٨١٩ .

عودة «إبراهيم باشا» من الحجاز إلى مصر (٩ ديسمبر ١٨١٩)

بعد أن مكث «إبراهيم باشا» عدة شهور فى بلاد الحجاز لتوطيد النفوذ المصرى وتدعيم الاستقرار هناك ، عاد إلى مصر فى ٩ ديسمبر ١٨١٩ ، حيث أقيمت الاحتفالات العظيمة وسار فى موكب مهيب وتزينت مدينة القاهرة واستمرت الأفراح والاحتفالات على مدى سبعة أيام ابتهاجا وفرحا بعودته ظافرا منتصرا .

استمرار السيادة المصرية فى الحجاز

بعد أن تم فتح الحجاز حرص محمد على على استبقاء بسط نفوذه وسلطته هناك لما كان فى ذلك من إعلاء لهيبته فى أنحاء العالم الاسلامى باعتباره حاميا للحرمين ولذلك استمر فى الحرص على توطيد مركزه فى ربوع الحجاز وفى شبه جزيرة العرب وبإسناد تركيا ولاية جدة لابنه إبراهيم باشا واستمرت القوات الحربية المصرية هناك رغم أنها كانت عرضه دائما لاغارات القبائل التى استمرت فى منازعته فى بسط نفوذه بجانب محاولات السياسة البريطانية الاستعمارية منذ أن وضعت يدها فى المنطقة على عدن حيث كانت دائما تنظر متوجسة إلى وجود القوات المصرية مجاورة لها خاصة بعد أن وطد محمد على علاقات الود والصداقة مع إمام مسقط وبقيت القوات المصرية محتلة الحجاز ومعظم جزيرة العرب مدى عشرين عاما تخللها ثورات عدة بذلت مصر فى سبيل اخمادها متاعب ونفقات طائلة - ففى عام ١٨٢٤ ثار الوهابيون فى بعض البلدان واشتبكوا مع القوات المصرية هناك حتى تغلبت عليهم .

وفى ١٨٢٧ نشبت ثورة فى مكة حيث قتل الشريف يحى ابن أخيه لاتهامه بالتآمر عليه والتواطؤ فى ذلك مع أحمد باشا يكن الوالى المصرى على الحجاز وخوفا من انتقام

مصر غادر مكة ولجأ إلى قبيلة حرب واستعداها على الحكم المصرى فثارت فى وجه السلطة المصرية وقام أحمد يكن باشا بمحاربتها ولكنه انهزم بالقرب من جبل عرفات وشجع ذلك بعض القبائل فانضمت إلى الثوار وأرسل محمد على مدداً للحجاز من خمس أورط من الجنود النظامية وألف من الفرسان وعين الشريف محمد بن عون الذى كان يقيم بالقاهرة شريفا على مكة بدلا من الشريف يحى الثائر وانضم المدد إلى قوات أحمد باشا يكن بالحجاز وضرب الحصار على الطائف وحرضها الشريف الثائر وتعقبه الفرسان المصريون حتى وقع أسيراً مع ثلاثة آخرين من الأشراف الذين ناصروه واستبقاهم محمد على بمصر ضمانا لاستمرار الأمن فى الحجاز .

وفى سنة ١٨٢٩ ثارت هناك بعض القبائل وتوقفت عن دفع الضرائب السنوية ومقدارها ١٢٠٠ قنطار وأرسل محمد على إلى جدة قوة إضافية أعادت النظام .

وفى سنة ١٨٣٢ أثناء انشغال محمد على باشا بالحرب فى الشام شبت فتنة عسكرية فى جدة من بعض الضباط الغير نظاميين من بقايا جيش مصر القديم وكان والى الحجاز هو خورشيد بك وكان معظمهم من الارناؤود والترك وطالبه المتمردون برواتبهم المتأخرة ، وساروا إلى مكة خلف زعيمهم (زنار أغا) (وتركى يلماز) وتوسط شريف مكه بين خورشيد بك والمتمردين وأتفق على عودتهم إلى جدة وقاتلهم هناك خورشيد بك ولما وصل إليهم أسروه ونادوا (تركى يلماز) واليا على الحجاز وانضم أهالى مكة إلى المتمردين نكاية بالسلطات المصرية ونشب القتال بين المتمردبن والحامية المصرية هناك وردتهم الحامية على أعقابهم .

وفى هذه الأثناء وردت الأخبار إلى مكة باستيلاء الجيش المصرى على عكا وساعد هذا النبأ السار على اخماد جذوة ثورة المتمردين ولكن لما علم الباب العالى بالفتنة فى الحجاز ابتهج لذلك ونكاية فى محمد على باشا أسرع وأرسل فرمانا إلى المتمرد (تركى يلماز) يقره واليا على الحجاز - وبادر محمد على وأسرع فى إرسال قوة من ٤٠٠٠ جندى منهم ١٥٠٠ فرسان وكلهم من القوات النظامية المصرية تحت قيادة أحمد باشا يكن رئيس عسكر الحجاز وقامت القوة المصرية باحتلال جدة بعد أن انسحب منها تركى يلماز إلى (قنفذه) واشتبكت معه الحامية المصرية هناك وتغلبت عليه فتابع انسحابه إلى (الحديدة) من ثغور اليمن ثم استقر فى مخا باليمن ولم تتمكن إمام

صنعاء من صده وقام أحمد باشا يكن بمطاردته وسار إليه فى ١٨٣٣ فى قوة من ١٥٠٠٠ خمسة عشر ألف مقاتل وحاصر مخا[1] حتى فتحها ولكن شيخ العسير نهب (مخا) نهبا كاملا وكانت مستودعات لمتاجر الهند وبارت التجارة مع الهند لسنين عدة . واستأنف أحمد باشا يكن تقدمه واحتمل جنوده مشقات هائلة لوعورة الطرق وقلة الماء وتعرضت القوة لمناوشات مع القبائل اليمينة وانهزم الجيش المصرى أمام البدو وحلت به الخسائر الجسيمة ورجع إبراهيم باشا يكن بباقى القوات إلى الحجاز ثم استأنف الزحف على اليمن مرة ثانية وامكن احتلال بعض الثغور وبعض المواقع داخل اليمن . وانتهى الأمر بأن عهد محمد على بقيادة الجند فى الحجاز إلى خورشيد بك الوالى السابق التى حدثت فى عهده فتنة (تركى يلماز) وكانت الهزائم التى حلت بالجيش المصرى فى اليمن قد شجعت الوهابيين بالقتال مرة أخرى فى نجد فاتجه لهم خورشيد بك شمالا ووصل إلى الدرعية وزحف على الاحساء حتى وصل إلى شاطىء الخليج الفارسى واحتل جزائر البحرين فى الخليج ولما شعرت القبائل المتمردة بقوة الزحف قدمت الطاعة لخورشيد باشا وامتدت بذلك سلطة مصر فى الجزيرة العربية إلى الخليج الفارسى القريب من الهند وبذلك تفتحت عيون وعقول السياسة البريطانية الاستعمارية إلى خطورة قوات مصر التى امتدت جنوبا حتى اقتربت من مستعمراتها الغنية فى الهند وكذلك امتدت شمالا حتى سيطرت على طريق الهند من ناحية نهر الفرات بعد فتوحات الشام والاناضول ومن هنا بدأت انجلترا تلتفت إلى مصر وتعمل جاهده للقضاء على هذه القوة الصاعدة والمقاومة للنفوذ البريطانى .

عودة إلى الصحوة المصرية :

«محمد على باشا» وتجربة الاعتماد على الجندى المصرى فى الحرب

بعد تكرار تمرد الجنود الاتراك والأرناؤود والغير نظاميين ، عمل «محمد على باشا» على التخلص تدريجيا منهم ، فاستخدمهم فى حروبه فى الحجاز ثم فى السودان حتى يضحى بأكبر عدد ممكن منهم .

ثم بدأ مبكرا فى تجربة العنصر المصرى فى الحرب ، فاستخدمهم للمرة

(١) «مخا مدينة باليمن وهو مشهورة بتجارة البن اليمنى More Coffee .

الأولى[١] عندما فتح باب التطوع للشباب المصريين من مختلف الطبقات من الفلاحين والأعراب والمغاربة ليندرجوا في سلك الجندية للجهاد في الحرب الحجازية بحجة أنها حرب مقدسة يخوضها لنصرة الاسلام وتمكن بذلك من تجميع سبعة آلاف منهم تم إرسالهم - بعد تدريبهم تدريبا جيدا - وقام «محمد على باشا» بإرسالهم كمدد إلى «إبراهيم باشا» في الحجاز في مارس ١٨١٤ .

وللمرة الثانية[٢] قام «إبراهيم باشا» وهو في طريقه قائدا للحملة في الحجاز بتجنيد ألفين من الفلاحين عند مروره بأسيوط ومتجها إلى قنا لينضموا إلى الحملة .

وبعد أن ثبت لدى «محمد على باشا» نجاح تجربة العنصر المصرى في الحرب والقتال بدأ يفكر جيدا وجديا - بعد إنتهاء الحرب الوهابية - في تأسيس وتكوين جيش مصرى خالص على النظام الحديث وصولا إلى تخريج النواة الأولى من الضباط حتى يقوموا بعد ذلك بتغليم الجنود المصريين وتدريبهم على أساليب الحرب الحديثة ، واستخدم لمشروعه هذا ضابطا فرنسيا من ضباط الامبراطورية النابليونية هو الكولونيل «سيف Sives»[٣] ، الذى عرف فيما بعد اسم سليمان باشا الفرنساوى» وقام «محمد على باشا» - بمعاونة الكولونيل «سيف» - بانشاء أول مدرسة حربية في أسوان عام ١٨٢٠ .

---

(١) «عصر محمد على» - الجبرتى - ص ١٣٤ .

(٢) المصدر السابق - ص ١٤٢ .

(٣) الكولونيل «سيف Sives» وهو فرنسى الأصل ولد فى مدينة (ليون) ١٧٧٨ وكان أبوه صاحب مصنع ، والتحق «سيف» بخدمة القوات البحرية الفرنسية وشارك فى معركة (الطرف الأغر) ثم انتظم فى خدمة الجيش الفرنسى فشارك فى الحروب والحملات التى خاضها «نابليون» ووصل إلى رتبة كولونيل (أمير آلاى) ، وبعد إنتهاء حروب «نابليون» تفرغ للتجارة والزراعة ، ثم توسط له صديق هو الكونت «دى سيجور» لدى (العجم) ليعمل فى تنظيم الجيش الفارسى، ولكنه نصحه بالتوجه إلى مصر حيث حضر إليها عام ١٨١٩ وتقابل مع «محمد على باشا» الذى أعجب به وعهد إليه بتنظيم الجيش المصرى وتدريب القوات المصرية على أساليب الحرب الحديثة ، وقد اعتنق الاسلام واختار لنفسه اسم «سليمان الفرنساوى» ، وقد اشترك فى حرب (المورة) ثم فى حرب الشام والاناضول ، وأنعم عليه «محمد =



الفصل الرابع ١٨١٠ - ١٨٢٠

- فتح واحة «سيوة» واخضاعها للسيادة المصرية (فبراير ١٨٢٠)

حتى عام ١٨٢٠ كانت (واحة سيوة) داخل خط الطول الذى يحد حدود مصر الغربية ، ونظرا لبعد المسافة بين وادى النيل وواحة سيوة فلم يكن لمصر أى وجود إدارى بها ، فأراد «محمد على باشا» أن يوطد دعائم نفوذه فى تلك الجهات تأكيد للسيادة المصرية عليها وجعلها من تخوم الديار المصرية ، فجهز حملة قوامها ألف وثلاثمائة جندى بقيادة «حسن بك الشماشرجى» لفتح (واحة سيوة) .

وصلت قوات الحملة إلى الواحة ونشب قتال بين القوات وأهالى (سيوة) دام حوالى ثلاث ساعات ، قام بعدها الأهالى بالاستسلام والتسليم للقوات المصرية وأعلنوا طاعتهم وولاءهم للحكومة المصرية فى فبراير ١٨٢٠ ، وبذلك تمكن «محمد على باشا» من تأمين حدود مصر الغربية .

وكان هذا التاريخ - فبراير ١٨٢٠ - بداية انتظام شئون (واحة سيوة) الإدارية والعمرانية مما ساعد على المضى قدما لاكتشاف كنوز مصر مما تحوية الصحراء الغربية من آثار وما تطويه مناجمها بما يعنى تقدما على طريق ازدهار الحضارة المصرية ، كما كان هذا التاريخ ممهدا لقيام الحملة المصرية لفتح السودان الواقعة على حدود مصر الجنوبية وبداية لتوحيد دولتى «وادى النيل» بين مصر شمالا والسودان جنوبا .

توجه محمد على لفتح السودان (١٨٢٠ - ١٨٢٢)

(ثانيا) التحرك إلى السودان :

بنفس تفكير محمد على لفتح سيوه قام بعدها مباشرة بالتوجه إلى السودان وكانت أسباب فتح السودان هى :

= على باشا» برتبة الباشوية عام ١٨٣٤ عقب الحرب السورية الأولى ثم اشترك فى الحرب السورية الثانية ثم صار تعيينه رئيسا لرجال الجهادية (قائد للجيش المصرى) وظل يشغل هذا المنصب حتى عهد «سعيد باشا» حيث توفى عام ١٨٦٠ .

«عصر محمد على» - الجبرتى - ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

١ - أن يحسم الموقف بالنسبة لحدود مصر الجنوبية التى لم تكن محدده حتى ذلك الوقت .

٢ - جعل السودان من تخوم الديار المصرية والوصول إلى حدودها الجنوبية وبذلك يضيف السودان إلى مناطق نفوذه وذلك كهدف لتحقيق القوة والمنعة لصالح شعبى مصر والسودان .

٣ - إمكان تكوين إمبراطورية إسلامية[١] بديلا عن الامبراطورية العثمانية الآخذه فى الأفول وبخاصة بعد أن حقق الأمن فى الأراضى الحجازية والقضاء على الوهابيين الذين كانوا يهددون حجاج المسلمين وبذلك انتشرت سمعته الطيبة فى العالم الاسلامى .

٤ - تطلع محمدعلى للحصول على مناجم الذهب التى أشيع وجودها فى بعض نواحى السودان .

٥ - امكان تجنيد شباب السودان ويضيف بذلك قوة على قدراته العسكرية بعد تجربته تجنيد شباب المصريين وتجريبهم فى حرب الوهابيين .

٦ - توقع محمد على تأييد شعب السودان لقواته بمجرد وصولها نظرا للتكوين البشرى للسودانيين وانتماء غالبيتهم إلى أجناس من أصول عربية وأنه بذلك سوف لا يقابل بمقاومات عنيفة من شعب السودان باعتباره وأفراد جيشه مسلمين . ونظرا لنظام السودان القبلى والطائفى[٢] فقد اصطحب مع قواته ثلاثة من علماء الدين الاسلامى من مختلف المذاهب هم الشيخ أحمد البقلى (الشافعى المذهب) ، الشيخ السلاوى المغربى (مالكى المذهب) والشيخ محمد الأسيوطى (الحنفى المذهب) وكانت مهمتهم هى الاتصال بزعماء القبائل ومشايخ الطرق الصوفية السودانية لتسهيل عملية الاندماج السريع بين السودانيين والمصريين وسهولة

---

(١) كتاب «الشرق والغرب» من الحروب الصليبية إلى حرب السويس للاستاذ محمد على الغتيت ص ١٦٧ نقلا عن قول المؤرخ . «دريو» بأن الشعور الوطنى والدينى لمحمد على اصبحت وقتها تهدد مصالح الغرب فى كل مكان » .

(٢) كتاب المؤلف (مصر والسودان بين الوئام والخصام) ص ٤٢ ، ص ٤٣

التأثير على باقى المجتمع السودانى من الأصول الزنجية المتعطشة للدخول فى حظيرة الاسلام .

٧ - تحقيق الانتعاش الاقتصادى لمصر والسودان عن طريق التبادل التجارى وبالتالى تحقيق الاكتفاء الذاتى لحد بعيد .

٨ - مطاردة المماليك الهاربين إلى السودان والذين دأبوا على تسبب حالة من الفوضى والقلق وعدم الأمان فى مصر .

٩ - تطلع محمد على لعمل استكشافات داخلية فى السودان تؤدى للكشف عن منابع النيل .

- التجهيز للحملة

قام محمد على بحشد قواته فى مصر القديمة فأعد الوسائل لنقل الجنود والمعدات والأسلحة والذخائر عبر النيل حيث بلغت تلك الوسائل فى بعض المراحل ثلاثة آلاف مركب لعبور النيل حتى (اسنا) حيث تم هناك حشد ثلاثة آلاف من الأبل للسير منها بالطريق البرى .

وكانت هذه القوات تتألف من :

٤٠٠٠ مقاتل منهم ١٢٠٠ من فرسان العثمانيين ، ٤٠٠ من فرسان العرب والمغاربة ٦٠٠ من المشاه العثمانيين ، ٨٠٠ من المشاه العرب والمغاربة ، ٣٠٠ من رجال المدفعية ، ٦٠٠ من العرب العبابدة ، واثناء التقدم تلقت هذه القوات مددا مكونا من ١٤٠٠ مقاتل ، ٥٤٠٠ آخرين مجهزين بأربعة وعشرين مدفعا وكانت كل هذه القوات تحت قيادة إسماعيل باشا «ابن محمد على» .

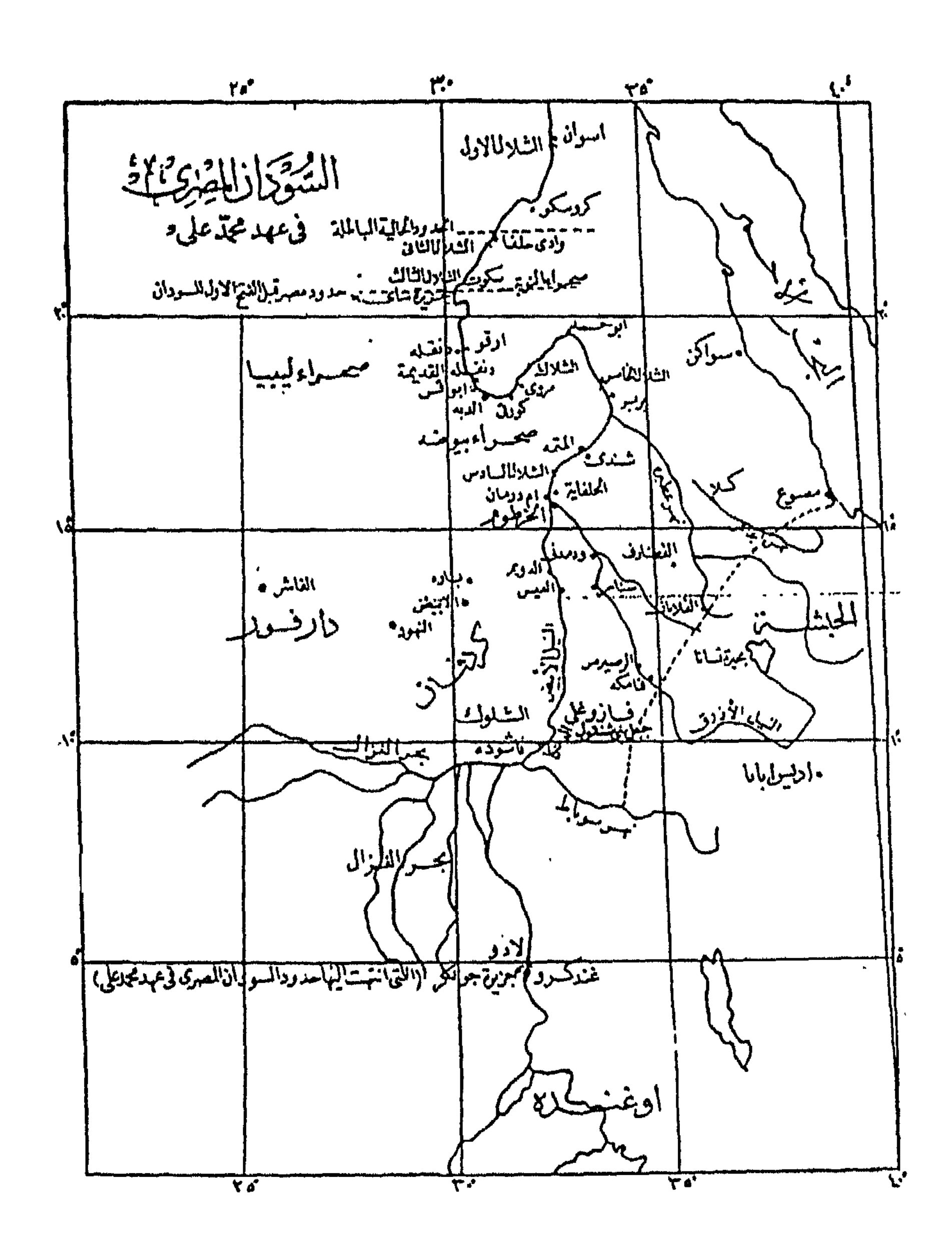
كما أعد محمد على أيضا جيشا آخر مكونا من ٤٠٠٠ جندى مجهزين بعشرة مدافع بقيادة صهره «محمد بك الدفتردار» للدخول بهم إلى كردفان غرب السودان وبلغ بذلك مجموع الجيش عشرة آلاف مقاتل .

وبالتـأمـل فـى هـذا التكوين للقـوات المصرية نجد أن جانبا كبيـرا من قـوات هذا الزحف اعـتـمـد فـيـه مـحـمـد على على العنصر العربى المصرى (٤٠٠ من فـرسان العـرب والمغـاربة (أى المغـاربة المقيـمين بمصـر) ، ٨٠٠ من المشـاه العـرب والمغـاربـة ، ٦٠٠ مـن عـرب العبابدة المصريين وكانـت هـذه هى المرة الثانية التـى يعتمد فيها محمد على بـاشا علـى العنصـر المصرى والعربى بعد اشتراك المتطوعين المصريين فى حرب الحجاز وبدلا من العنصر التركى.

ووقت التوجه المصرى إلى السـودان لم يكن بالسودان حكومـة مركزية ولـكن كان هناك قطر السيادة فـيـه موزعة بين القبائل المبعثرة فى شتى المناطق وبين قيادات دينيـة روحية من مـشـايخ الطرق الصـوفـيـة وكـان لكل منهـا اتبـاع على شكل تجـمـعـات مـشـتـتـة عـزلاء من الاسلحة الحديثة إذ كانت تتسلح بالسيوف والرماح والاسلحة البدائية .

التحرك إلى السودان (يوليو سنة ١٨٢٠)

بدأت قـوات المشـاة تحـركـهـا مـحـمـولة على المراكب عبـر النيل وأخذ الفرسـان وجنود المدفعـية بالطريق البرى غربـى النيـل، وتقدمت الطليعـة من هذه القوات المكونة من ٥٠٠ من الفرسان بغـرض الاستكشـاف لتـأمين وتمهيد الطريق لبعض القـوات وكان تحـرك الجمـيع تحت قيادة إسمـاعيل بـاشا ابن مـحمد على وذلك فى آخر يوليـة سنة ١٨٢٠ قـاصدين دنقله فى السـودان ، وبمجـرد وصـول القـوات المصـرية إلى أسـوان وقبل دخـول الاراضى السـودانيـة فر المماليك الذين كـانوا بالدر إلى دنقلة ، وأقـامت الحملة فى وادى حلفا ومكثت بهـا عشـرين يومـا انتظارا لاجتـياز المراكب لمنطقـة الشـلالات ثم استـأنفت تقدمهـا إلى «سكوت» ومنهـا إلى «دنقلة» وأسر جزء من المماليك ورحل معظمهم فـارين إلى «شندى» وطلبوا اللجوء إلى حاكمهـا ولكن لم يقبل ذلك احتراما لقدوم قوات مـحمد على المسلحة فتشتت الممـاليك بين مختلف القبـائل السـودانيـة التى قبلتهم على مضض وبعد تجريدهم من الاسلحة وإلى هنا يكون محمد على قد حقق أحد اهدافه الرئيسية وهو القضاء على البقية الباقية من المماليك المناوئين لحكمه وللاستـقرار فى البـلاد وأعلنت القبـائل ومشـايخ الطرق الدينيـة الصوفـيـة السـودانيـة الولاء سلميا للقوات المصرية ترحيبا وتأييدا .


السودان المصري
فى عهد محمد على
اسوان
الشلال الاول
كروسكو
الحدود الحالية الباطلة
وادى حلفا
الشلال الثانى
الشلال الثالث
صحراء النوبة
حدود مصر قبل الفتح الاول للسودان
صحراء ليبيا
ارقو
دنقلة
دنقلة القديمة
ابو حمد
سواكن
الشلال الخامس
بربر
الدبة
صحراء بيوضة
المتمة
شندى
الشلال السادس
الحلفاية
ام درمان
الخرطوم
كسلا
مصوع
القضارف
الفاشر
دارفور
الابيض
الحبشة
بحيرة تانا
النيل الازرق
فازوغلى
الشلوك
فاشودة
بحر الغزال
اديس ابابا
لادو
غندكرو
جزيرة جوانكرو (التى انتهت اليها حدود السودان المصرى فى عهد محمد على)
اوغندة

معركة اعقبها صلح

استأنفت طليعة القوات المصرية المكونة من ٨٠٠ جندى التقدم حتى وصلت إلى مناطق الشائيقية جنوبى «دنقلة» وعند كورتى على الشاطىء الغربى للنيل انقض الشائيقيون على قوات المتقدمة وقتلوا منهم ٧٥ جنديا ، وعند وصول باقى القوات المصرية إلى مكان المعركة اشتبكت مع الشائيقيين فى معركة حامية استبسل فيها رجال الشائيقية فقتل منهم ٨٠٠ ومن القوات المصرية استشهد ٣٠ جنديا فقط .

إلا أنه وبسرعة تم الصلح بين القوات المصرية وقوات الشائيقيين حيث تحول الصلح إلى اتفاق أخوى قبل فيه الشائيقيون طلب إسماعيل باشا القائد المصرى أن ينتظم الشائيقيون كجنود فى الجيش المصرى وقبلوا ذلك بترحاب اخوى وتدعيما للجيوش المصرية .

التقدم من بربره إلى أم درمان :

استأنفت القوات المصرية تقدمها إلى بربرة فى ١٠ مارس ١٨٢١ حيث استقبلها حاكمها «نصر الدين» بالحفاوة باستبقاء الحاكم السودانى حاكما على بلدته ، ثم استأنف الجيش تقدمه إلى شندى حيث احتفى حاكم شندى الملك «نمر» بالقوات المصرية واستبقاه إسماعيل باشا أيضا حاكما على بلدته ثم واصلت القوات زحفها إلى «حلفاية» الواقعة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق حيت استقرت بها محاطة بحفاوة وترحيب أهلها السودانيين ودون أى قتال ثم وصلت القوات بعد ذلك إلى أم «درمان» على النيل الأبيض حيث عبرت النيل حتى بلغوا مكان مدينة الخرطوم وأيضا دون أى قتال وفى هذا المكان أنشأت القوات المصرية مدينة سمتها الخرطوم بعد أن كانت محلة صغيرة بها عدد قليل من البيوت المصنوعة من الغاب وأصبحت فيما بعد عاصمة السودان وترك القائد المصرى بها بعض القوات واستأنف تقدمه إلى سنار .

حملة « محمد بك الدفتردار» بغرب السودان (إبريل سنة ١٨٢١)

بينما كان إسماعيل باشا متقدما إلى سنار قام «محمد بك الدفتردار» بالتقدم بقواته إلى «كردفان» كما خطط له محمد على باشا وكانت كردفان تابعة لسلطان «دارفور» وكانت رحلته إلى هناك شاقة لبعد المسافة وندرة الماء بالطريق فقطعوا هذه المسافة فى سبعة أيام وتصدى لهم أثناء الرحلة نائب السلطان «محمد الفضل» بجيشه واشتبك مع

قوات «محمد بك الدفتردار» فى معركة حامية عند بلدة «يار» شمال الأبيض وانتهت بانتصار القوات المصرية وتم اخضاع الأبيض عاصمة كردفان وقد أظهر مقاتلوا كردفان فى هذه المعركة شجاعة فائقة ولكن كانت الغلبة لجيش مصر بفضل تسليحه بالمدفعية الحديثة والتى لم يكن متسلحا بها مقاتلو كردفان وحاول سلطان «دارفور» استرداد الأبيض ولكنه لم يتمكن وبعد ذلك تفشت الأمراض والعدوى بين الجنود المصريين .

الوصول إلى سنار ١٢ يونيو سنة ١٨٢١

وصلت القوات المصرية إلى مملكة «سنار» حيث رحب أيضا بها ملكها وذلك فى ١٢ يونيو سنة ١٨٢١ وبذلك يكون محمد على قد حقق اندماجا اخويا بين شعب مصر وشعب السودان تقريبا وبأسلوب سلمى حيث تم تنفيذ القوات المصرية واجبها الاساسى وهو تحقيق امن وآمان شعب السودان وتحقيق منعة وقوة دولة إسلامية جديدة .

ونظرا لعدم وجود المياه ونفاذها من القوات المصرية ونظرا لنقص الأدوية العلاجية اللازمة إلى جانب سوء الغذاء والتغذية فقد تفشت الأمراض وفتكت بالجنود فمات من القوات المقيمة فى «سنار» حوالى ٦٠٠ جندى وانتشرت العدوى حيث اصابت الامراض ما يقرب من ٢٠٠٠ جندى فأرسل القائد إسماعيل باشا إلى والده محمد على يتعجله المدد من الأطباء والأدوية والجنود والملابس بعد أن توقف تقدم القوات إلى أن تصل هذه الإمدادات - وأخيرا حضر إلى السودان إبراهيم باشا ابن محمد على الأكبر ومعه الامدادات المطلوبة .

التقدم إلى جنوب سنار

قام إبراهيم باشا بقيادة القوات المصرية وتقدم بها جنوبا إلى بلاد الدنكا على النيل الأبيض حبث استأنف التقدم حتى وصل إلى أعالى النل ولكن المرض داهم إبراهيم باشا فعاد ثانية إلى سنار ومنها إلى مصر . وتولى إسماعيل باشا الفيادة واستأنف التقدم على النيل الأزرق حتى وصل إلى «فازوغلى» واستقبله ايضا ملكها الملك حسن بالتأيبد والترحيب الأخوى أيضا وبدون أى مقاومة أو قتال وبذلك يحق لأى باحث أن يسمى هذا التقدم للقوات المصرية داخل السودان بهذا الأسلوب السلمى والأخوى بانه رحلة ولم تقابل هذه القوات أى مقاومة أو روح عدائية بل قوبلت وعلى امتداد تقدمها بالترحيب الواجب بين أخوة مسلمين يعتزون بقوة أمة الاسلام .

ولكل ذلك وحسب اعجب القائد إسماعيل باشا بالمقاتلين السودانيين وتلبية لطلب أبيه أيضا فى ارسال أفواج من الشباب السودانى إلى مصر لتجنيدهم ضمن قوات الجيش المصرى النظامى الجديد .

- ثورة أهالى حلفاية وشندى

نجح إسماعيل باشا فى تجميع عدد كبير من شباب السودانيين من منطقة حلفاية وشندى وكلف فرقة من الجنود الأرناؤود لاصطحابهم أثناء سفرهم إلى مصر لاتمام تجنيدهم ولكن نظرا لسوء أخلاق الجنود الارناؤود وشذوذ أخلاقهم فقد أساؤوا معاملة هؤلاء المجندين السودانيين أثناء الطريق وثار الأهالى من هذه الاساءة وعدم احترام أدمية أولادهم وثار أهالى حلفاية وشندى وما حولها فى وجه القوات التركية المصاحبة للمجندين السودانيين وقاموا بالهجوم على القافلة .

مقتل إسماعيل باشا

فى أكتوبر سنة ١٨٢٢ تقدم إسماعيل باشا بقوات كبيرة إلي شندى لمعالجة الحالة المضطربة بها بعد الثورة ولأجل تحقيق الاستقرار هناك وأمر باحضار « ملك شندى » أمامه باعتباره المسئول عن الثورة ولشكه فيه بأنه مدبر هذه الثورة فلما أحضروه تمادى إسماعيل باشا فى مؤاخذته باسلوب لا يرضاه الرجل السودانى المعتز بكرامته ولطمه إسماعيل باشا على وجهه بالشبك (الغليون) فأسرها الملك نمر ملك شندى فى نفسه واعتبرها إهانة لا تغتفر خصوصا وأنه سبق وكان قد رحب بإسماعيل باشا وبقواته ولكنه عزم على الانتقام رغم مصالحة إسماعيل باشا له .

وبعد أن تظاهر الملك نمر بأنه قبل المصالحة مع إسماعيل باشا فقد قام بدعوة إسماعيل باشا وحاشيته إلى وليمه فى قصره بشندى وكان مشيدا من القش ورحب الملك نمر باسماعيل باشا ترحيبا مبالغا فيه وقام أتباع الملك شندى أثناء الوليمة وبعد احتسائهم مع أفراد حاشية إسماعيبل باشا المريسة (شراب سكر) بكميات كبيرة قاموا باشعال النيران فى القش والعلف الجاف المحيط بالقصر فاندلعت النيران بسرعة وحاصرت إسماعيل باشا وحاشيته فلم يتمكنوا من الافلات من الموت حرقا خاصة بعد أن أحاط بهم أعوان الملك نمر من كل مكان ورموهم بالسهام من كل ناحية فماتوا جميعهم ومعهم القائد إسماعيل باشا ، ثم قام أعوان الملك نمر أيضا بإحاطة معسكر القوات المصرية وانقضوا عليهم بغتة وفتكوا بمعظمهم .

انتقام محمد بك الدفتردار

وكان محمد بك الدفتردار وقت هذه الأحداث فى كردفان فسارع بالتوجه إلى شندى وأخذ بالثأر هناك وانتقم بالتنكيل بكل من اشتركوا فى هذه المؤامرة وأسرف فى التنكيل بقسوة وعنف فقتل الآلاف من أعوان ملك شندى الذى تمكن هو من الإفلات وفر حتى حدود الحبشه .

وبلغ الحزن مداه بمحمد على باشا لمأساة وفاة ابنه إسماعيل ولكنه صمم على الاستمرار فى خطته فى السودان إلى آخرها وكانت هذه العملية الانتقامية هى العملية القتالية الثانية والأخيرة بعد معركة كردفان .

وإلى هذا التاريخ أصبحت مصر والسودان قطراً واحدا يجمعهما نهر النيل ومشاريع العمران فيها أخذت تمتد واندمج الشعبان والجيشان واصبح فى الوحدة العسكرية الواحدة ضباط وجنود مصريون وسودانيون وتوحد التعليم وكذلك تم التوحد فى جميع نواحى الحياة .

زيارة محمد على باشا للسودان[1] (١٥ اكتوبر سنة ١٨٣٨ - ١٥ مارس سنة ١٨٣٩)

قام محمد على بزيارة السودان ليضع بنفسه النظام الملائم للحكم فى السودان وسار إليها فى أكتوبر سنة ١٨٣٨ عن طريق دنقله ثم توجه إلى الخرطوم عبر طريق صحراء (بيوضه) ووصلها يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٣٨ وأقام بها ٢٢ يوما وقابل فيها الاعيان وتفقد أحوال الإدارة لوضع نظام دائم لحكم السودان ثم زار سنار واتجه بعدها إلى جبال (قازوغلى) للتأكد من وجود الذهب من عدمه وكان قد اصطحب معه فى هذه الرحلة طائفة من المهندسين والباحثين عن خام الذهب هم المسيو ليفيفر lafever والمسيو دكتور أرنود Ornoud والمسيو لامبيرت Lambert بالاضافة إلى المسيو فردريك كليود Cailiaud الذى اصطحب الحملة بعد فتح دنقلة ولكن البحث لم يفض إلى نتيجة يرضاها فعاد إلى الخرطوم وفى السودان وضع الخطوط الرئيسية لاسلوب الحكم فى السودان وأمر وهو فى السودان بإلغاء تجارة الرقيق .

لما لاحظه من قسوة النخاسين (تجار الرقيق) فى خطفهم الشباب من أهلهم وسوء معاملتهم أثناء ترحيلهم إلى مختلف الامصار وأعلن هذا الأمر بواسطة رسل أوفدهم فى جميع النواحى هناك .

وكانت تجارة الرقيق منتشرة فى هذا[1] الوقت في أقاليم السودان منذ ما قبل وصول القوات المصرية فكان هناك تجار كبار أقوياء لهم مؤسسات تجارية كبيرة يتاجرون فى الحاصلات الزراعية وإلى جانب ذلك يتاجرون فى الرقيق ويحققون منها أرباحا طائلة ونظرا لما كان لهم من سطوة ونفوذ فقد اتخذوا من مناطق كثيرة معاقل ومراكز لغارات يقومون بها يهددون الأهالى ويقومون بخطف أولادهم كرقيق يتاجرون فيهم - ووقفت تجارة الرقيق لفترة من الزمن بعد أوامر محمد على بإيقافها ثم عادت مرة أخرى لقوة نفوذ التجار وزعامتهم لبعض القبائل وتأثيرهم بمالهم ونفوذهم فى طبقة الموظفين فتراخوا فى تنفيذ أوامر محمد عل باشا .

وعاد محمد على باشا إلى مصر بعد أن مكث فى السودان خمسة أشهر وذلك عن طريق صحراء النوبة (من أبو حمد) إلى وادى حلفا فى مارس سنة ١٨٣٩

حكومة مصر تضع نظام مستقر فى السودان[2]

لأجل توطيد الحكم فى السودان أقام محمد على نظام حكم مركزى هناك لأول مرة مع إبقائه على النظام القبلى ونظام الطرق الصوفية احتراما لمكانتها فى نفس الشعب السودانى ولتميزه بولاء الشعب السودانى لهذين النظامين بحكم التعود عليه بمضى الزمن وتعميقا للروابط بين مصر والسودان كجزء حيوى ومؤثر فى مجال توسيع رقعة الأمة الإسلامية وتحقيقا للأمن والأمان فى ربوع السودان .

ولذلك جعل على رأس النظام فى السودان حاكما عاما أسماه حكمدار السودان وجعل فى يده السلطتين العسكرية والمدنية وجعل تعيينه فى هذا المنصب من الحكومة المركزية المصرية وتابعه نظار الداخلية (الضبطية) وأعطى محمد على لحكمدار السودان صلاحيات سيادية مطلقة منها توليه قيادة الجند فيها وجعل من الخرطوم عاصمة للسودان ومقرا للحكم العام المصرى .

وقسم السودان إلى سبع مديريات عين لكل منها ناظرا بنفس نظام الادارات المصرية ، وكانت تلك المديريات هى «دنقلة ، بربر ، الخرطوم ، كردفان ، كسلا، سنار ، فازوغلى» وجعل لكل مدير وكيلا ومعه قاضيا ومفتيا ومجلس أهلى وضبطية (شرطة) وأبقى على

---

(١) عصر إسماعيل للأستاذ الرافعى ص ١٣١ .

(٢) كتاب مصر والسودان بين الوئام والخصام للمؤلف ص ٤٨ .

نظام حكام البلاد الاقدمين سواء رؤساء قبائيل أو مشايخ طرق صوفية فى مراكزهم كمشايخ النوبة ودنقلة وحلفاية والرصيرص وفازوغلى ، وملك سنار .

واستمر هذا النظام الأدارى الذى وضعه محمد على فى حكمه للسودان ساريا على اعتبار السودان جزء من مصر واستمر حكام عموم السودان (الحكمدارون) يتولون مهام الحكم طول عهد محمد على وكان أول حكمدار للسودان هو محمد بك الدفتردار ثم أعقبه عثمان بك عام سنة ١٨٢٣ وكان عهداهما من أسوأ العهود حيث أسرفا فى استعمال القسوة والتعسف خاصة فى فرض الضرائب واسلوب تحصيلها ثم جاء بعدهما محو بك الذى تميز عهده بالعدل والرحمة فأحبه مشايخ البلاد وأهلها - وخلفه خورشيد باشا سنة ١٨٢٦ - سنة ١٨٣٨ وكان من أعظم حكام السودان المصريين وأحسنهم سيرة وإدارة وقام بتعمير البلاد وتأمين الأهالى على أحوالهم وممتلكاتهم وأرواحهم واهتم بتعمير مدينة الخرطوم العاصمة وكان أول من أدخل نظام البناء بالطوب فى السودان بعد أن كانت القصور والمنازل تبنى بالغاب والقش والجلود ، كما اعتنى بالزراعة ووسع رقعة البلاد بعد أن قام بضم (القلايات) فى شرق السودان بالقرب من حدود الحبشة وعززها بحامية عسكرية . وانضمت إليه قبائل «الشلك» وقبائل «سيدرات» .

ثم خلفه أحمد باشا أبو ودان سنة ١٨٣٨ والذى سار على نهج وسياسة سلفه خورشيد باشا فأخضع لحكمه البدو العرب الرحل الضاربين فى أودية السودان وقام بتحسين الاحوال الزراعية بأن أدخل إلى السودان الزراعات المصرية ونظم وأساليب زراعتها واهتم بتنشيط الصناعة خاصة السفن كما اهتم بشق الطرق وتمهيدها مما ساعد على اتساع العمران والنشاط التجارى والرواج فتوسعت الانشطة التجارية والمعاملات بين مصر والسودان ومع مختلف البلدان ، وقام بضم أقليم التاكا كسلا سنة ١٨٤٠ إلى السودان (الواقع بين نهر عطبره والبحر الأحمر) وأسس مدينة كسلا وجعلها عاصمة لبلاد التاكا وتوفى ودفن بالخرطوم .

ثم خلفه «أحمد باشا المنكلى» والذى أخمد الثورة التى نشبت فى بلاد التاكا نتيجة سوء إدارة الموظفين الإدريين هناك واستمر حكمدارا عاما للسودان إلى أن عاد إلى مصر سنة ١٨٤٥ .

وخلفه خالد باشا وهو آخر من عين حكمدارا على السودان فى عهد محمد على .

تعمير السودان [1]

حقق الحكم المصرى فى السودان تقدما كبيرا وبصفة رئيسية توطيد دعائم الأمن فى كل نواحيه المتراميه والنائية فقد كانت الرحلة إليه قبل الفتح المصرى محفوفه بالأخطار فكانت الطرق مقطوعه والأمن مضطرب ، وسلطة رؤساء القبائل والمدن ضعيفة تفتقر إلى قوة السلاح فكانت قوافل التجار والحجاج تستهدف دائما للسلب والنهب ولكن الحكم المصرى قضى على الفوضى كما قضى عليها محمد على باشا من قبل فى كل بلد حكمها .

وفى ظل أسلوب محمد على الاصلاحى والواعى فقد حقق أيضا الوحدة القومية المصرية السودانية حيث أسس لأول مرة فى السودان حكومة مركزية منظمة وكل ذلك ساعد وعجل بإقامة قواعد العمران بانشاء وتخطيط المدن وتعميرها لأن مصر كانت تنظر إلى السودان على أنه جزء من مصر باعتباره مديرية من مديريات مصر فأنشأ بها المدن وأقام مبانيها وشرع فى تعميرها على أحدث الأسس المعمارية الهندسية فجعلت الخرطوم [2] عاصمة للسودان ومقرا للحكومة المركزية وأنشأت به مستشفى كبير ومعمل للبارود ومخازن للمؤن والمحاصيل الزراعية والمهمات ومسبك لصهر الحديد وورشا للنجارة والأخشاب وترسانه لبناء السفن وأقيمت الحدائق الفسيحه وازدهرت التجارة حتى أصبحت الخرطوم مركزا للرحلات والاستكشافات الجغرافية والعلمية - كذلك أنشئت مدينة كسلا ومدينة فامكا سنة ١٩٤٠ وكل ذلك وأكثر منه جاء ذكره فى التعريف بالحكام المصريين للسودان كما تم انشاء وتنظيم البريد لتسهيل الاتصال والترابط بين مختلف مدن السودان وكافة أنحائه وبين السودان ومصر ومختلف الأوطان - أما من ناحية الزراعة فقد [3] أدخل المصريون إلى السودان الزراعات المصرية كالقمح والخضر والموالح والفواكه المختلفة والرمان والعنب .

---

(١) عصر محمد على للاستاذ الرافعى ص ١٧٦ إلى ١٨٢

(٢) كتاب مصر والسودان للمؤلف ص ٥١ ، ص ٥٢

(٣) عصر محمد على للاستاذ الرافعى ص ١٨٠

كما تمت فى ظل حكم محمد على باشا الاستطلاعات والاكتشافات لمختلف أصقاع السودان خاصة منابع النيل وتم اكتشاف بحيرة فيكتوريا وشلالات (ريبون) ولو أن استخدام الأجانب فى هذا المجال وفى مجال استكشافات مناطق الذهب قد فتح الباب للأطماع الخارجية الأجنبيه الاستعمارية للوقوف على أهمية السودان كما حدث فى مستقبل الأيام .

وحيث كان لمصر والعناصر المصرية الفضل الكبير فى المساهمة بنصيب كبير حيث فاق المجهود الأجنبى فى هذا الباب لذلك فمن الواجب التركيز على هذا الدور المصرى .

مساهمة مصر فى الكشف عن منابع النيل [1] :

ففى عام ١٨٢٤ قام الرحاله هاى Hay والرحالة توست Tocht بالوصول إلى ما يلى رأس الخرطوم فقط وقام الرحالة المصرى إبراهيم كاشف بين عامى ١٨٢٨ ، سنة ١٨٣١ بالرحلات الاستكشافية فى النيل الأبيض حتى وصل إلى بلاد الدنكا والشلوك بالقرب من بحر الغزال ويعتبر ذلك أول الاستكشافات المصرية الجغرافية حيث توالت البعثات الاستكشافية المصرية بعد ذلك على النحو التالى .

البعثة الأولى [2] (١٦ نوفمبر سنة ١٨٣٩ حتى ٣٠ مارس سنة ١٨٤٠) .

كانت هذه البعثه برئاسة سليم بك قبطان وبصحبته المستكشف المصرى إبراهيم كاشف والفرنسى مسيو تبلوت Tbilout وكانوا مزودين بثمانية مراكب (ذهبيات) مسلحة لحماية أفراد البعثه ، ١٥ قاربا وصلت البعثة إلى بلدة العيس على النيل الأبيض ثم واصلت رحلتها إلى نهر السباط جنوبا وتوغلوا فيه إلى أن توقفت بسبب انخفاض منسوب المياه فى النهر فعادت إلى الخرطوم فى ٣٠ مارسة سنة ١٨٤٠ وقام رئيس البعثة سليم قبطان بكتابة تقرير ضمنه تفاصيل أحداث هذه الرحله وارفق به جدولا بالارصاد الجوية عن الرحلة وهذا التقرير يعتبر وثيقة علمية هامة نشرت فى مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية عددى أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٤٢ ومحتفظ بأصل التقرير فى مقر الجمعية الفرنسية الجغرافية على اعتبار أنها أول وثيقة كمرجع لاستكشاف أفريقيا .

---

(١) نفس المصدر السابق من ص ١٨٣ إلى ١٨٦

(٢) عصر محمد على للاستاذ الرافعى ص ١٨٣ ، ١٨٤

البعثة الثانية (٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٠ حتى ابريل سنة ١٨٤١) .

كانت برئاسة سليم قبطان أيضا وبصحبته أيضا الخبير « سليمان إبراهيم كاشف » ومعهما المهندسان الفرنسيان دارنو Darnaud ، ساباتيه Sabatiar والرحاله الالمانى « فرن والمسيو تبلوتThibaut - وسارت البعثه فى النيل الأبيض حتى بلغت جزيرة « جوتكو » على خط العرض الخامس وكانت قريبة جداً من منابع النيل إلا أنها توقفت لوجود الجبال والشلالات ولكنها عرجت فى نهر السوباط » ولكن لأنخفاض منسوب المياه توقفت وعادت البعثه إلى الخرطوم ووصلتها يوم ١٨ أبريل سنة ١٨٤١ ووضع رئيس البعثه سليم قبطان تقريراً وافيا عن أحداث ومسار ومعالم وطريق الرحلة .

البعثه الثالثة (٢٧ سبتمبر سنة ١٨٤١ حتى ٦ مارس سنة ١٨٤٢) .

تحركت هذه البعثه من الخرطوم يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٤١ برئاسة سليم قبطان ولكن هبت رياح عاكستها فتوقفت الرحلة لإصابة كثير من البحارة ورجالها بالأمراض ومات بعضهم فعادت البعثه إلى الخرطوم فى ٦ مارس سنة ١٨٤٢ حيث لم تحقق أية نتائج أكثر من البعثات السابقه . وجاءت التقارير الجغرافية التى وضعها رئيسها سليم قبطان وزميله إبراهيم كاشف وكان مدونا بهذه التقارير تفاصيل أحداث يوميات هذه الرحلات مما جعلها تعتبر مراجع علمية هامة استندت إليها كثير من الدوائر العلمية الأوربية حيث كان مدونا بهذه التقارير تسجيل دقيق لجغرافية مناطق كانت مجهولة حتى ذلك الوقت ولم يسبق أن وطأتها أقدام من قبل وقدمت هذه التقارير وصفا تفصيليا عن النباتات والأشجار والحيوانات والتضاريس والمناخ فى كل منطقة من المناطق التى جابتها فى السودان .

حدود مصر والسودان فى عهد محمد على [1] :

بالتقدم المصرى فى السودان سواء بتحرك القوات العسكرية أو بمجرد وصول البعثات الاستكشافية المصرية إلى المناطق الجديدة ودون ترك أى حاميات عسكريه بها فقد أصبحت

---

(١) مصر والسودان الوئام والخصام للمؤلف ص ٥٥

هذه المناطق ضمن أملاك الوطن الواحد وبالتالى فقد أصبحت حدود مصر فى عهد محمد على تمتد كالآتى :

شرقا : حتى امتداد سواحل البحر الأحمر لأنه بمجرد وصول القوات المصرية إلى أقليم التاكا فى عهد حاكم السودان المصرى أحمد باشا أبو ودان سنة ١٨٤٠ وأصبحت هذه المناطق وسيلة للاتصال بين السودان و « ثغرى » و « سواكن » و « مصوع » و « القلايات » والتى ضمها لأملاك مصر حاكم السودان المصرى خورشيد باشا على حدود الحبشة وهى على شاطىء نهر عطبره وبإستئجار سواكن ومصوع من سلطة تركيا أصبحتا ضمن حدود السودان المصرى وهما منفذان على البحر الأحمر .

وغربا : وصل الوجود المصرى إلى كردفان أما دارفور فرغم أن الوجود المصرى لم يصل إليها إلا أنه بموجب فرمان ١٣ فبراير [١] سنة ١٨٤١ فقد انضمت إلى مصر حيث جاء بهذا الفرمان أن « النوبه » (فى الغرب غير بلاد النوبه فى شمالى السودان) ودرافور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها قد أصبحت من حق مصر وقد صدقت الدول على هذا [٢] الفرمان مما جعله يكتسب الصفة الدولية الرسميه .

وشمالاً : كان البحر الأبيض المتوسط هو الحد الشمالى .

وجنوبا : وصلت الحدود إلى جزيرة (جونار) على خط العرض الخامس واتجاه (غوندكرو) وكان ذلك هو أخر ما وصلته الاكتشافات الجغرافيه فى عهد محمد على وبفضل هذا التوجه المصرى صار نهر النيل نهراً مصريا إلى آخر نقطه وصل إليها الاكتشاف الجغرافى المصرى وذلك فى عصر محمد على باشا ،

الصحوة المصرية وعبقرية الحاكم

بعد أن تم توطيد الوجود المصرى فى السودان فحتى آخر سنة ١٨٢٢ صار توطيد هذا الوجود أيضا فى الحجاز حتى أكتوبر سنة ١٨١٨ تبين لمحمد على مدى الأمكانيات التى

---

(١) الكتاب الأخضر . السودان من ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ إلي ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ ص (ح) فقره (٣) .

(٢) لم تنضم فعليا وعمليا إلا فى عهد إسماعيل باشا فى عام سنة ١٨٧٤

أصبحت فى يده ليحقق بها لنفسه ولمصر إمبراطورية قوية مستقله بفضل الأمكانيات الغير محدودة للصحوة المصرية بعد تغلبه بهذا الشعب على كل المصاعب التى قابلته بدءا من تمكين هذا الشعب وزعامته الوطنيه له لتولى الحكم فى مصر وفى تغلبه على مؤامرات المماليك وتمرد الجنود وبفضل عطاء هذا الشعب وقابليته للاستنارة والتعليم وممارسة الجندية الحديثه فقد تمكن من بسط نفوذه ونفوذ مصر على بقاع وبلاد الحجاز والسودان وبإمكانيات هذا الشعب وشعب السودان أصبح قادراً على إنشاء إمبراطورية شبه مستقله عن الإمبراطورية العثمانية وعمل على وراثتها لحساب تكوين الإمبراطورية [1] الإسلامية التى أخذت تداعب أفكاره .

وكان أكبر برهان على إمكانيات عطاء الشعب المصرى بصحوته الجديدة هو إمكانيات إنشاء وصنع أسطول مصرى كامل بالأيدى المصرية وقام به بنقل قواته من مصر إلى الحجاز عبر البحر الأحمر سنة ١٨١١ وقد عاصرت هذه الحرب أول تجربه له لأستخدام بعض المصريين الفلاحين والعربان فى القتال على أرض الحجاز ، كما تبين له مدى الضعف الذى وصلت إليه الدولة الأم العثمانيه فى عدم قدرة جيوشها على محاربة الوهابين فى الحجاز وتمكنه بفضل استغلاله لإمكانيات وعطاء الصحوة المصرية من تحقيق القضاء على الحركة والدولة الوهابية فى الحجاز التى أخذت تهدد الوجود التركى وأمان الحجاج المسلمين وكانت هذه الظروف هى التى شجعته على التفكير الجدى فى إمكانية استقلاله بمصر لأجل تكوين إمبراطورية عظمى وتمخضت عبقرية محمد على لاقتحام وتجربة جميع عناصر التقدم وتنمية الثروة لمصر عن طريق التعليم والمعرفه لأبناء الشعب المصرى والتوسع فى المشاريع العمرانية التى توفر له على المدى القصير والطويل الإمكانيات المادية والعلمية لتحقيق التقدم والقوة وبنفس القدر كان أمامه تجربه ضرورية وحيوية لتحقيق هذا الاستقلال وهو الاعتماد بالكامل على المصريين فى تكوين قوة صناعيه وعسكرية تتحلى بصفات الشخصية المصرية الفريدة فى نوعها من الصبر والطاعة والشجاعه .

---

(١) كتاب الشرق والغرب للاستاذ محمد على الغتيت ص ١٦٧ عن رأى مفكرى الغرب فى هذا الوقت عن نوايا محمد على فى منطقة الشرق الأوسط نتيجة إلى تكوين دولة إسلامية قوية تنافس الوجود والقوة الأوربية .

الاعتماد على مصر في تمويل مشروعاته

وكان من أهم ما ساعد محمد على باشا على تحقيق أهدافه فى تقوية وتحديث المجتمع المصرى هو توفير المال اللازم بصفة رئيسية للتعليم وإقامة المدارس والمعاهد ثم على إقامة المشاريع العمرانية من إقامة مشاريع رى حديثه ومصانع قادره على الانتاج بشتى أنواعه بهدف الانتاج الحربى فى النهاية فقد قام بتنظيم الضرائب لجمع هذا المال [1] بشتى الطرق ثم عمل على احتكار التجارة فى المحاصيل واحتكار الاتجار فى معظم السلع الواردة وكانت له مخازن لهذه السلع يجمع فيها هذه المحاصيل والسلع بعد دفع أثمانها بالاسعار المتواضعة ثم يعيد بيعها بالأسعار المجزية لتحقيق ميزانية ضخمه قادره على الصرف على مشاريعه العملاقة .

(اولاً) نشر التعليم

ولأجل نشر التعليم بين المصريين [2] بدأ بتكوين طبقه من المتعلمين تعليما عاليا يستعين بهم فى القيام بأعمال الحكم والعمران فى البلاد وفى نشر التعليم بين طبقات الشعب وذلك قبل إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية .

وساعد محمد على على إجتياز هذه النقلة وجود قاعدة عريضه من المتعلمين الأزهريين الذين قاموا بسد ثغرة انتظار نتائج التعليم العالى فاستغل ذلك إلى أقصى حد واهتم بدور الأزهر والكتاتيب فى جميع قرى مصر .

البعثه الأولى سنة ١٨١٣

بدأ محمد على وأوفد الطلبه المصريين [3] فى بعثات إلى أوربا سنة ١٨١٣ فأوفد إلى ايطاليا وليفورن وميلانو وفلورنسا وروما طائفة من الطلبة لتعليم الفنون العسكرية وبناء السفن وتعلم الهندسة وغير ذلك وكان من أفراد هذه البعثه نقولا مسابكى لتعلم فن

---

(١) الجبرتى جزء ٤، ص ٢٤٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦

(٢) عصر محمد على ص ٣٩٧

(٣) نفس المصدر ص ٤٠٧

الطباعة وسبك الحروف وصنع قوالبها والذى تولى بعد ذلك إدارة مطبعة بولاق سنة ١٨٢١ وأرسل إلى انجلترا بعض التلاميذ لتلقى فن بناء السفن والملاحة ومناسيب الماء وصرفه والميكانيكا .

الصحوة العمرانية الكبرى

١ - التعليم العسكرى [1]

بدأ محمد على بإقامة أول مدرسة حربية بأسوان على النظام الحديث ثم بمدرسة أخرى فى فرشوط ومثلها فى النخيلة وأخرى فى آبار جرجا .

مدرسة القصر العينى

أنشئت سنة ١٨٢٥ مدرسة إعدادية للتعليم الحربى بقصر العينى واسمها كان المدرسة التجهيزية الحربية وبدأها بـ ٥٠٠ تلميذ يعدون لدخول المدارس الحربية والبحرية ثم للمدارس العالية الأخرى ثم نقلت إلى أبى زعبل بعد أن خصص مبنى القصر العينى لمدرسة الطب وأصبح فيها سنة ١٨٣٧ ١٢٠٠ تلميذ وكان بمكتبتها ١٥٠٠٠ كتاب .

مدرسة المشاه بالخانكه

أنشأ للتدريب على المشاه (البياده) مدرسة لتخريج ضباط فرق المشاة الحربية بالخانكه على أحدث نظام يستوعب تعليم ٤٠٠ تلميذ قسموا إلى ثلاث أقسام (بلوكات) يدربون بها على التمرينات والإدارة الحربية واللغات العربية والتركية والفارسية ثم نقلت هذه المدرسة إلى دمياط سنة ١٨٣٤ ثم إلى أبو زعبل سنة ١٨٤١ .

مدرسة الفرسان :

أنشئت المدرسة الأولى للفرسان بالجيزة فى قصر مراد بك وجعل لها معلمين من فرنسا ويتعلم فيها الطلبة مناورات الفرسان بالإضافة لحركات المشاه ويدرسون بها اللغة العربية والتركية وطلبتها خليط من الشبان المصريين والاتراك يتخرجون منها ضباطا فى فرق الفرسان يجيدون ركوب الخيل والمناورات التى تحتاج إلى الخفة ودقة الحركة .

مدرسة المدفعية بطره

أنشئت فى طره مدرسة حربية للطوبجية (المدفعية) أدارها فى أول الأمر

(١) عصر محمد على للاستاذ الرافعي من ص ٣٣٢ إلى ص ٣٣٧

ضابط أسبانى مسيو انطونيو دى سيجرا Seguera ويعاونه ضابط مصرى مديرا هو أدهم باشا الذى أسس ترسانة القلعة ثم رئاسة ديوان المدارس فيما بعد وكانت هذه المدرسة تقوم بتخريج ضباط المدفعية وبدأ الدراسة بها ٣٠٠ تلميذ من خريجى مدرسة القصر العينى الاعدادية وكانوا يدرسون بها بجانب العلوم العسكرية وفنون الطبجية اللغتين العربية والتركيه والحساب والجبر والهندسة والميكانيكا والرسم والاستحكامات ويمرنون على الرمى بالمدافع الحقيقية والثقيلة وألحق بالمدرسة وحدة للمدفعية المشاه وأورطه أخرى للمدفعيه الراكبه وأنشأ لها ميدان ضرب النار ووضع به ٢٤ بطارية من المدافع للتمرين عليها وكان للمدرسة مستشفى خاص يديره طبيب ويساعده صيدلى لمعالجة الطلبة .

مدرسة أركان حرب بالخانكه

اقترح إنشائها عثمان نور الدين باشا وافتتحت بالقرب من المعسكر العام للجيش معسكر جهاد أباد بجوار الخانكه وهى لتخريج الضباط الممتازين فى وضع الخطط العسكرية وإدارة المعارك .

مدرسة الموسيقى

أنشئت هذه المدرسة لأجل تعليم المصريين الموسيقى العسكرية ولإعداد فرق الموسيقات لكل آلاى وأحضر لها معلمين من أوروبا وآلات موسيقية وأقيمت بالخانكه وكانت تسع ١٢٠ تلميذا .

وكان ناظرها مسيو كاريه Carre وكان يدرس بها اللغة العربية وتخرج منها الموسيقيون الذى يحتاج لهم الجيش .

البعثة الثانية

وعرف منهم أيضا عثمان نور الدين افندى الذى تخرج من فرنسا والذى صار فيما بعد أميرا للأسطول المصرى وبلغ عدد هذه البعثه ٢٨ فردا وكان الكثير منهم من خريجى ومتعلمى الإدارة .

وفى مجال العمران

عنى محمد على عناية فائقة بشق عدد كبير من الترع فى جميع المحافظات للتوسع الزراعى .

وأقام القناطر العديدة على الترع لضبط مياهها تيسيرا للانتفاع بالرى المنتظم منها .

١ - شق الترع (١)

شق محمد على الترع الضرورية لمشاريع الرى فى مختلف المديريات واعتنى بتطهيرها وصاينتها وكان منها :

فى الغربيـــة : امتداد ترعة الجعفرية وترعة محمد الخضر (الخضراوية) .

فى الدقهلية : ترع البوهية والمنصورية والشرقاوية وأم سلمة ، ودويرة .

فى المنوفيـــة : النعناعية والرساوية والباجورية .

فى الشرقيـــة : ترعة الوادى والمسلمية ، وبحر مشتول ، والصاوى ، وبحر الرمل وترعة بردين ومصرف بلبيس .

فى القليوبية : الزعفرانية ، والباسوسية ، الشرقاوية والقرطامية ، والبولاقية القبليه وترعة قنبه ومصرف العموم .

فى بنى سويف : ترعة البرانقة

فى المنـيــا : ترعة الفشن

فى جرجا : ترعة السيحة ، والمرعشلى .

فى قنا وإسنا : ترعة الشنهوريه ، وتوسيع ترعة بلاجيا والرمادى والعقيلى ، الشال ، والنابه .

---

(١) الجبرتى جزء ٤ ص ٢٧٧ ، ٣١٧

(ب) إقامة الجسور [1]

أنشأ الجسور على شاطىء النيل من جبل السلسلة إلى البحر الأبيض لمنع طغيان المياه على الضفتين عند الفيضان وكانت إقامة هذه الجسور بمساهمة شعبيه من أهالى القرى بنسبة ما يخص كل منهما من زمام الناحيه .

وأقام جسور أخرى فرعيه مثل ، جسر الرقة فى بنى سويف وجسر الطهنشاوى والقيسى والبرانفة فى المنيا ، وجسر دينهيا وجسر فاو ، ومنى كلب ، والمحرق وكودية بأسيوط ، وجسر مشطا ، والشباسات ، والواية والمنشأة فى جرجا ، وجسر فرشوط وجسر أبو دياب فى قنا .

(جـ) القناطر

وأنشأ قناطر عديدة على الترع لضبط مياهها للانتفاع بالرى منها وأهمها ، قناطر العيون التسعة على بحر مويس بالزقازيق ، وقناطر المسلمية وبحر مشتول والصنداد ، والعلاقمه ، وفاقوس بالشرقية وقناطر البريجات والمحمودية فى البحيرة .

وقناطر البوهية والمنصورية فى الدقهلية .

وقناطر السنطه والراهبين ، ودميره وتيره وبيله ونشرت فى الغربية .

وفى المنوفية : قناطر النعناعية والقريتين والسرساوية والباجورية وميت عفيف .

وفى القليوبية : قناطر الشرقاوية والزعفرانيه وأبى المنجى

وفى الفيوم : قناطر وخزان طامية وسنورس

وفى بنى سويف : قناطر وجسر شوسة

وفى الجيزة : قنطرة الرقة

وفى المنيا : قناطر منبال والجرنوسى وسنشتاد والطحاوية والطهنشاوى .

وقناطر العتامية فى منفلوط وقطيع أبو عفريته فى ملوى

---

(١) يمكن الرجوع بالتفصيل والتحديد إلى كتاب الاستاذ الرافعى عصر محمد على من ص ٤٩١ إلى ص ٥١٣

وعلى بك بالقرب من أبنوب وقنطرة بسره وأسيوط وبنى سميع وقلاى فى (أسيوط) .

وفى سوهاج : قنطرة السوهاجيه وقنطرة الشباسات وسمهود والمصالحة فى جرجا .

وفى قنا : قنطرة المراشدة بفرشوط .

إصلاح جسر أبو قير

قام بإصلاح جسر أبى قير القديم [١] بعد انهياره وسد فتحة بحيرة أبى قير بالأحجار لمنع تسرب مياه البحر ولحماية ترعة المحمودية وبذلك بدأت بحيرة أبى قير فى الجفاف وتحولت بذلك إلى أرض زراعية خصبة .

سد فتحات بحيرة المنزلة

أقام سداً بالأحجار على فتحة بحيرة المنزلة ومنع بذلك طغيان المياه الملحة على الأراضى المجاورة وبذلك صار انسداد فتحتى دمياط والطينه من ذاتهما .

وكذلك فتحة أم مفرج ولم يبقى إلا فتحة أشتوم الجميل .

(د) التوسع الزراعى

كانت الحاصلات الزراعية فى مصر محدودة الأنواع هى القمح والشعير والأرز والفول والعدس والحمص والذرة والترمس والحناء والبصل والسمسم والشلجم والعصفر والخضر والفواكة المحدودة وقليل من القطن الردىء وقام محمد على بإدخال أنواع زراعة جديدة عالية الإنتاج وتعمل على تحسين الزراعات المتدهورة وكانت الزراعات الجديدة هى :

غرس الأشجار [٢]

غرس أشجار التوت لتربية دودة القز لأجل صناعة الحرير واختار لهذا المشروع أراضى وادى الطمبلات بالشرقية ثلاثة آلاف فدان ويخدمها ألفين من الفلاحين .

---

(١) الجبرتى ١٢٣١ هـ - ١٨١٦ م

(٢) الجبرتى (١٢٣٢ - ١٨١٧) جزء ص

وحفر ألف ساقية للرى وجلب من سوريا ولبنان خمسمائة مزارع وصانع لهذا التخصص ثم توسع بتخصيص سبعة آلاف مترا لذلك فى (الدقهلية والمنوفية والغربية والقليوبية ودمياط ورشيد والجيزة) .

غرس أشجار الأخشاب

غرس العدد الوفير من مختلف أنواع الأشجار الخاصة بإنتاج الأخشاب اللازمة لصناعة سفن الأسطول ولأغراض العمران والبناء ولصنع السواقى .

(هـ) الصناعة

١ - صناعة السفن بعد نجاح صناعة السفن حاملة الجنود فى بولاق ومرفأ السويس سنة ١٨٠٩ وبفضل هذا الأسطول أمكنه نقل قواته إلى شواطىء الحجاز كما قامت هذه الصناعة بتوفير السفن النهرية التى حملت الجنود المصريين ومعداتهم إلى السودان عبر نهر النيل وداعب خيال محمد على الواعى أهمية إقامة صناعة مصرية لصنع السفن الحربية واعتمد بادىء الأمر على صنع سفن حربية لحساب مصر فى أوروبا وفى نفس الوقت عمل على التوسع والتجديد فى [1] ترسانة الاسكندرية التى حتى هذا الوقت كانت تبنى فيها السفن على الطراز القديم .

٢ - صناعة الغزل والنسيج :

فى سنة ١٨١٦ أنشأ محمد على مصنع الغزل والنسيج بالخرنفش واستدعى له عمالا فنيين من ايطاليا تخصص فى غزل خيوط الحرير وبعد مدة نقلت صناعة الحرير إلى مصنع آخر وركب بمصنع الخرنفش مغازل أخرى للقطن وماكينات لصنع الأقمشة القطنية وركب بها مائة دولاب عشرة منها للغزل السميك وتسعون للغزل الرفيع - وأنشأ أيضا بالمصنع قسم للنسيج به ثلاثمائة نول لإنتاج مختلف أنواع الأقمشة ثم ترسل لتبيضها فى مصانع مبيضة وكان بهذه المصانع ورش للحدادين والسباكين والخراطين والنجارين .

---

(١) عصر محمد على للاستاذ الرافعى ص ٣٦٥ ، ص ٣٦٦

كما أنشئت فى بولاق فابريقة كبيرة أخرى لغزل القطن ثم نسجه بجانب ورش متعدده لمختلف الإصلاحات وكان بالقرب من هذا المصنع ثمانون ورشة ومصنع حداده لصنع مراسى المراكب وكل ما يلزم السفن ومعمل لسبك الحديد ولصناعة الغزل أيضا أنشىء مصنع آخر بالسبتية يسمى مصنع إبراهيم أغا ومصنع للتبييض بالمبيضة .

(و) عمران المدن

اعتنى محمد على بعمران المدن فأقام المبانى العامه من دواوين وقصور ومصانع فأنشأ بالقلعة قصره الشهير « قصر الجوهره » والذى كان مقر الحكم وقصر شبرا وسراى رأس التين بالإسكندرية وقصور أخرى فى عواصم المديريات .

وأنشأ الدفترخانه بجوار القلعة ليحفظ فيها وثائق الحكومة ودفاترها وسجلاتها بعد أن كانت تبدد .

وأصلح سور مجرى العيون الذى كان ينقل المياه من النيل بمصر القديمة إلى القلعة . وأنشأ طريقا واسعا على جانبيه الأشجار بين مصر وشبرا - وهدم كثيرا من التلال والكيمان المتربة المحيطة بالقاهرة والتى كانت تثير الأتربة والقاذورات فتفسد جو المدنية وتضر بالصحة والأبصار .

وبنى جامعه الكبير بالقلعة وانشأ دار للرصد (رصد خانة) فى بولاق - وأمر بمنع خروج الآثار القديمة من مصر بعد أن كانت تنهب وتسرق - وأسس دار الآثار - واعتنى باستخراج الأحجار والرخام من المحاجر المصرية - وعنى بعمران الاسكندرية بعد اتمام مد ترعة المحمودية وأنشأ الترسانة والأسطول وفتح بالاسكندرية شارعا كبيرا مرصوفا بالأحجار بين باب رشيد وسراى رأس التين - وأنشأ مدينة الزقازيق لمناسبة بناء قناطر بحر مويس وعنى وأنشأ المستشفيات والمنشآت والمحاجر الصحية على أحدث النظم - ورتب خدمات البريد برا وبحرا - وأنشأ خطوط التلغراف ببناء أبنية مرتفعة على شكل أبراج ممتدة على خط واحد وعلى كل بناء آلة تلغراف بالشارات وكانت الرسالة التلغرافية بين مصر والاسكندرية تستغرق خمسة وثلاثين دقيقة .

(ز) التجـارة

اتسعت تجارة مصر الخارجية بفضل استتباب الأمن وعدالة القضاء وازدياد الحاصلات وأنشأ أساطيل النقل البحرى والنهرى وتعبيد الطرق وتأمينها وبفضل إصلاح ميناء الاسكندرية والسويس وأعاد الحياة لطريق التجارة بين الهند وأوروبا بالبلاد المصرية بعد أن بسط السيادة المصرية فى البحر الأحمر وطهره من القرصان . ومد طريق لسير القوافل بين السويس والقاهرة به المحطات لتأمين هذه الطرق وأقام لذلك ديوانا أسماه (ديوان المرور) ومقره الأزبكية وأصبحت مصر بعد تحسين طريق السويس على البحر الأحمر والاسكندرية على البحر المتوسط لها سمعة طيبة وعن طريقه كانت تنقل الطرود البريدية والمسافرون عوضا عن طريق رأس الرجاء الصالح الطويل وعن طريق البصرة الفرات وطريق حلب الاسكندورنه .

وبذلك اتسعت عمليات الاستيراد والتصدير والتبادل التجارى مع الخارج .

وبدءا من عام سنة ١٨٢٢ بدأت الميزانية المصرية تحقق فائض من الأموال .

عودة إلى محاولة الاعتماد على الجنود المصريين

بدأ محمد على باشا باتخاذ الخطوات الإيجابية نحو إدخال النظام الجديد فى الجيش من أجل الاعتماد على الجندى المصرى بصفه رئيسية سنة ١٨٢٠ بعد أن تخلص من عدد كبير من الجنود الأتراك والأرناؤود فى معارك الحجاز والسودان وبدأ أول خطواته بالتعاقد مع الضابط الفرنسى الكولونيل سيف Save لاتباع نفس الأساليب الأوربية الحديثة فى تأسيس الجيش المصرى وحضر هذا الخبير العسكرى الفرنسى إلى مصر سنة ١٨١٩ وأرسله محمد على إلى أسوان لتنفيذ مشروعه وقدم إليه محمد على باشا خمسمائة من مماليكه ليدربهم ليكونوا ضباط على النظام الحديث وكلف أعوانه بتقديم ما يمكنهم من مماليكهم لنفس الغرض وتجمع لديه فى أسوان ألف رجل . بعد أن أنشأ هناك أول مدرسة حربية [١]

(١) برجاء الرجوع إلى ص ١٠٠ من الكتاب ، ٣٢٣ من كتاب عصر محمد على

حديثة أمدها بكل ما تحتاجه من الأدوات وأسلحة التدريب الحديث وكان بهذه المدرسة أربعة ثكنات فسيحة لإقامتهم وتدريبهم وتخرج من هذه المدرسة بعد ثلاث سنوات أول فوج من الضباط بعد تدريبهم على فنون القتال على الأساليب الحديثة وكان الكولونيل سيف يتميز بالشجاعة والصبر والكفاءة وحسن الإدارة ويرجع له الفضل الأكبر فى معاونة محمد على فى تكوين وتسليح الجيش المصرى .

وبعد أن توفر العدد الكافى من الضباط الأكفاء بدأ فى تجنيد السودانيين لما لاحظه من تحليهم بالشجاعة والأقدام وحب النظام وجند منهم حوالى عشرين ألف من شباب كردفان وسنار وأقام لهم معسكرا للتدريب في بنى عدى بالقرب من منفلوط (بنى عديات) وقام عدد من أكفأ الضباط الذين تخرجوا من مدرسة أسوان ولم تصادف هذه التجربة النجاح المنشود حيث لم يتحمل معظم الجنود السودانيين أجواء مصر ومات الكثير منهم بعد أن أصيبوا بالأمراض .

وكانت الخطوة التالية أن قام بتجنيد المصريين لما لمسه فيهم بعد تمرينهم فى القتال فى حرب الوهابيين فى الحجاز وفى الزحف المصرى فى السودان وأنشأ لذلك ثكنات وأماكن تدريب فى فرشوط (فى صعيد مصر) وقام أيضا بتدريبهم على أساليب الحرب الحديثة وفى يناير سنة ١٨٢٣ تألفت الأورط الست الأولى من الجيش النظامى المصرى وضباطهم كانوا من مماليك الباشا الوالى الذين تخرجوا من مدرسة أسوان واغتبط محمد على بهذه النتيجة وعمل لهم حفل استعراض فى الخانكة وأنشأ معسكرا عاما للجيش المصرى بالخانكة (معسكر جهاد أباد) وأصبح هذا المعسكر مركزا هاما للتعليم العسكرى وأنشىء بالقرب منها مستشفى عسكرى فى أبى زعبل وقام محمد على باستخدامهم فأرسل الأورطة الأولى منهم إلى الحجاز لإخماد الثورات المتتالية هناك وأرسل الأورطة الثانية إلى السودان والأربعة الأخرى إلى بلاد (الموره) لمحاربة اليونانيين تحت قيادة إبراهيم باشا كما سيجىء فى حرب المورة وفيما بعد أنشأ محمد على باشا المدرسة الحربية للمشاه ومدرسة أركان الحرب وكذلك أنشأ مدرسة الطب فى الخانكة .

وبعد مدة اقتحم محمد على التجربة إلى منتهاها بأن استدعى محمد على باشا من فرنسا مجموعة من كبار الضباط الفرنسيين الأكفاء وعملوا على تدريب جانب من المجندين المصريين المتعلمين ليكونوا ضباطا على الجنود وأرسل محمد على منهم ومن الشبان المصريين إلى أوروبا لاتمام دروسهم الحربية هناك فعادوا إلى مصر بعد أن اتقنوا العلوم والفنون العسكرية وحلوا فى المدارس الحربية محل المعلمين الأجانب وتخصص بعضهم فى الفنون العسكرية بجانب الهندسة والرياضيات .

عودة إلى إنشاء الأسطول المصرى [1]

بعد أن تبين لمحمد على أهمية العمارة المصرية التى أنشأها فى بولاق وفى البحر الأحمر فيما قبل الحرب الوهابية فقد اعتزم إنشاء أسطول قوى قادراً على العمل فى البحر الأبيض المتوسط وفى سنة ١٨٢٠ أخذ يجدد فى ترسانة بناء السفن فى الاسكندرية حتى أصبحت قادرة على بناء السفن الحديثة وعهد برئاسة هذه الترسانة إلى رجل يدعى شاكر أفندى الاسكندرى يعاونه مهندس بارع من أهالى الاسكندرية اسمه الحاج عمر من مشاهير المعلمين فى فن بناء السفن وجعله محمد على رئيسا لإنشاء وعمارة السفن يعاونه الحاج أحمد أغا .

وفى سنة ١٨٢١ استخدم محمد على القبطان الفرنسى المسيو بيسون Besson من ضباط السفن الحربية الفرنسية السابقين وكان قد حضر إلى مصر وقدم نفسه إلى محمد على وأخلص فى عمله إلى أن توفى وعرف باسم الفيس اميرال (بيسون بك) .

وقامت هذه الترسانة فى بداية إنشائها ببناء السفن التجارية التى استخدمتها الحكومة لنقل البضائع والأخشاب المتنوعة اللازمة للأسطول من الأستانه وجابت هذه السفن شواطىء البحر الأبيض كما قامت مع ترسانة بولاق بصنع السفن التى تجوب النيل فى مصر والسودان .

ومن هذا الوقت اعتزم محمد على على إنشاء أسطول قوى ولما تأكد أنه رغم إمكان المصريون لبناء السفن العادية ولكن كان ينقصهم الخبرة فى بناء السفن الحربية فقد عهد إلى (مسيو بيسون) الفرنسى الاشراف على السفن الحربية التى أمر بصنعها فى ترسانات أوربا حيث كان يرى أن قوة مصر لا تكون كافية للدفاع عن مصر وبسط نفوذها فى الخارج إلا إذا عاونها أسطول حربى قوى ومن هنا بدأ فى تنظيم البحرية المصرية وبدأ

---

(١) عصر محمد على للأستاذ (الرافعى من ص ٣٦٥ إلى ص ٣٦٨) .

بشراء بعض السفن الحربية والتوصية بإنشائها فى الثغور الأوربية فى مرسيليا وليڤورن وتريستا وسلحها بالمدافع وعهد بقيادتها إلى قباطن من المصريين والأتراك وملاحيها من المتطوعين وبعض ضباط من الفرنسيين والإيطاليين لتعليم البحارة المصريين وتدريبهم وأمر محمد على بإنشاء إدارة خاصة للأساطيل المصرية جعل رئاستها لصهره محرم بك وكان فى نفس الوقت محافظا للاسكندرية وقد اشتركت هذه السفن فى هذه المرحلة فى حرب الموره (١٨٢١ - ١٨٢٨) .

أقسام الترسانة

وكانت ترسانة بناء السفن فى الاسكندرية معهداً لتعليم الشبان المصريين على بناء السفن وترميمها وما يلزمها من الآلات وكانت مقسمة إلى أقسام كل قسم منها مخصص لفرع من فروع هذه الصناعة .

مراكز التدريب والمعاهد

المعسكر البحرى للتعليم برأس التين أنشىء هذا المعهد لتعليم البحارة والجنود على الأعمال البحرية ليكونوا بحارة الأسطول وجنوده وانتقاهم محمد على من أبناء المديريات وأعد لإقامتهم وتدريبهم مكانا فى الجهة الشمالية الشرقية من رأس التين وكانت تسع عشرة آلاف بحار وأعد لهم مركبا فوق البر بسارياتها وقلوعها للتدريب على الشراعات وكانوا يوزعون بعد تدريبهم على السفن الحربية ووصلوا إلى مستوى رفيع يوازى مستوى بحارة أساطيل الدول الأوروبية وعمل النوتية الأقل مستوى على سفن النقل . كما أنشأ محمد على أيضا مستشفى بحرى فى شبه جزيرة رأس التين وأخرى فى الترسانة .

مدرسة بحرية على ظهر البحر

وتم إنشاء مدرسة بحرية لتخريج الضباط البحريين على ظهر إحدى السفن الحربية .

الصحوة الاقتصادية

حالة مصر المالية فى بداية التنمية

ونظرا لتعدد المشروعات العمرانية ومشروعات التنمية الزراعية والصناعية وإعداد الجيش والأسطول فقد كانت الميزانية سنة ١٨٢١ هى كالآتى :

الايرادات	المصروفات
١٩٩٫٧٠٠ ج	٩٤٧٫٠٩٠ ج

ولكن بعد مضى عشر سنوات بعد ذلك وبعد الحصول على العائد من المشاريع الإنتاجية تضاعفت الايرادات حتى فاقت المصروفات وفى عام ١٨٣٣ كانت الايرادات (٤٫٥٢٥٢٧٥) والمصروفات (١٫٩٩٩٠٧٠) .



الفصل الخامس ١٨٢١ - ١٨٣١

حرب اليونان (١٨٢١ - ١٨٢٨)

كانت بلاد اليونان جزءا من السلطنة العثمانية يحكمها الولاه الأتراك حتى ظهرت الثورة الأهلية وقامت باليونان مؤسسات وطنية من الأعيان والشبان وأعضاء الجمعيات الثورية وعندما وصلت أخبار هذه الحركة الوطنية إلى الرأى العام فى أوروبا أيد هذه الحركة كثير من أمراء أوروبا ووزرائها وأعيانها وذوى الرأى فيها كرها فى السلطنة العثمانية التى كانت أخبار اضطهاداتها لليونانيين تثيرهم . وكان لهذه المؤسسة الثورية اليونانية مراكز فى روسيا وفى النمسا وكان من أهم هذه الجمعيات جمعية تسمى (هيتريا) أنشئت سنة ١٨١٥ لتحرير اليونان من الحكم التركى وعضدهم قيصر روسيا اسكندر الأول وعين أحد وزرائه من اليونانيين الثوار وهو المسيو كابو دستريا Capo Distria واستخدم أيضا ضابطا يونانيا فى الجيش الروسى يسمى اسكندر أبسلنتى وجعله ياوره الخاص ونشطت هذه الجمعية داخل اليونان وكانت حتى سنة ١٨٢١ تعمل سريا وتشعبت فروعها فى جميع أنحاء اليونان حتى وصل عددها وقتها إلى عشرين ألف يحملون السلاح ومستعدين للكفاح حتى الموت فى سبيل استقلال بلادهم وافتتحت الجمعية مركزا لها فى (ياسى) فى رومانيا لقربها من روسيا ومن اليونان .

وقامت الثورة فى اليونان فى ٢٥ مارس سنة ١٨٢١ ولم تقدم لها لا روسيا ولا الدول الأوروبية أى معاونه وقتها لأن قيصر روسيا نفسه كان قائما بمناهضه الثورات الوطنية فى أوروبا وفى نابولى بصفه خاصة ولم يرد أن يكون متناقضا مع نفسه بتشجيع ومعاونة ثوره اليونان وفى نفس الوقت الذى يقوم فيه باخماد الثورة فى نابولى رغم أن الثورة فى اليونان قامت بتحريض قيصر روسيا ولكنه ترك الثوار اليونانيين وجها لوجه أمام تركيا التى جردت عليهم جيشا وهزم الثوار وفر زعيمهم الضابط ابسلنتى إلى المجر فى يونيه سنة ١٨٢١ واعتقل هناك .

اندلاع الثورة فى كل اليونان

ورغم تخلى الدول الأوروبية عن مؤازرة الثورة فى بدايتها فى باسى فى رومانيا ولكن لطابعها الدينى حيث كان أول من أعلنها هو القس جرمانوس أسقف باتراس فى شمال الموره فقد قام من هناك على رأس الثوار والأعوان فى يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٢١ إلى باقى اليونان وأشعل الحماس بعد أن أطلق على الثورة شعار (الإيمان ، والحرية ، والوطن) ولبى اليونانيون الدعوة ورفعوا علم الجهاد فى البر والبحر وأخذت سفنهم المسلحة تهاجم السفن التركية وتأسرها وتدمرها فى بحر الأرخبيل ومارست المذابح البشرية ضد ركابها وفى البر استولى الثوار على أهم مدن الموره واحتلوا عاصمتها (تريبوليتا) ونكلوا هناك بالاتراك وعلى أثر ذلك تكونت جمعية وطنية يونانية من ستين نائبا وأعلنت الجمعية استقلال اليونان بعد أن وضعت الدستور وكان ذلك فى يناير سنة ١٨٢٢ ثم اتخذت الحكومة الثورية عاصمة لها فى (نويلى) سنة ١٨٢٣ وقام القائد التركى خورشيد باشا بعد أن كان مشغولا بإخماد ثورة على باشا وقتله وزحف بجنوده على الموره وانتصر على الثوار فى بادىء الأمر وبعد مدة تغلب عليه الثوار وخاصة بسفن القرصنة اليونانية (الحراقات) ضد الأسطول التركى فى بحر الأرخبيل وبعد حرقه تقريبا وقتلهم ذبحا قاضى القضاة وأسرته وأطفاله وكانوا على ظهر إحدى السفن التركية واستخدموا أساليب القراصنة الوحشية ضد الأتراك المدنيين والمحاربين .

أستغاثة السلطان محمود بمحمد على باشا وحملة جزيرة كريت

بعد أن استفحل أمر القرصنة اليونانية ضد الاسطول التركى طلب السلطان محمود من محمد على باشا التدخل وكان ذلك سنة ١٨٢١ وكان محمد على باشا قد أنشأ حديثا ترسانة بناء سفن فى الاسكندرية وكان قد جلب [١] لها كثير من السفن الحربية التى أنشئت لحساب مصر فى إيطاليا وفرنسا وقام بتسليحها تسليحا قويا فى ترسانة الاسكندرية وقام محمد على بجيشه منقولا على هذا الأسطول الحديث وتحرك بحراً من

(١) الجبرتى

الاسكندرية فى يوليو سنة ١٨٢١ بقيادة الأميرال إسماعيل جبل طارق وكان مكونا من ١٦ سفينة كاملة السلاح والعتاد وبها ٨٠٠ مقاتل تحت قيادة طيوز اوغلى واتجه الاسطول إلى رودس والتقى فى الدردنيل بالسفن اليونانية وطاردها وعاد إلى الاسكندرية للاستعداد لإستئناف القتال فى جزيرة كريت حيث كانت الثورة فيها قد اشتعلت وجعلت الحاميات التركية فيها تلجأ إلى القلاع فأعد محمد على حملة من ٥٠٠٠ جندى بقيادة حسن باشا انضمت إليها قوات طيوز أوغلى واتجهوا إلى جزيرة كريت فى يونية سنة ١٨٢٢ وأمكنهم إنقاذ الحاميات التركية المحاصرة فى قلاعها هناك ومات حسن باشا أثناء القتال وخلفه حسين بك واستمر القتال هناك إلى أن انتصر المصريون على قوات الثوار وفر الكثير منهم إلى الجزر اليونانية الأخرى كما تم أيضا إخماد الثورة فى جزيرة قبرص .

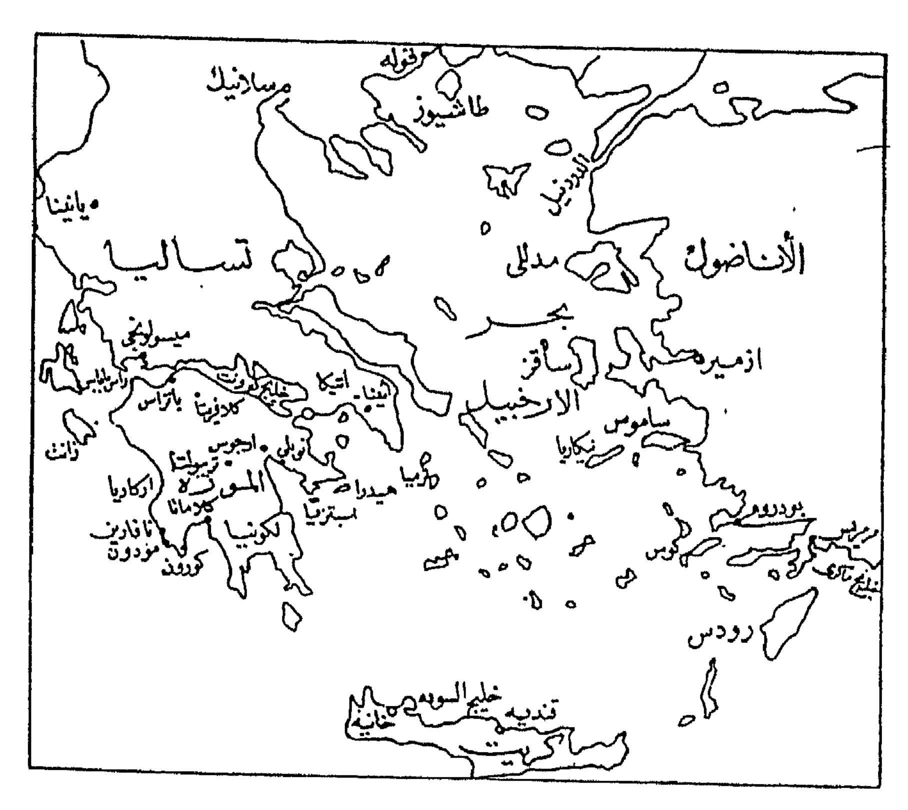
الحملة على المورة وتعيين محمد على واليا عليها

أثناء النجدات المصرية التى أنقذت الحاميات التركية فى جزيرة رودس وكريت وقبرص استمر القتال بين قوات الثورة اليونانية والقوات التركية فى جميع أنحاء المورة وفى سنة ١٨٢٣ بعد أن فشلت القوات التركية فى اخماد الثورة هناك وتكبدت خسائر جسيمة أصدر السلطان العثمانى فرمانا بدعوة محمد على إلى نجدة الجيش التركى فى الموره ويجعله واليا على المورة سنة ١٨٢٤

ولأجل ذلك جهز محمد على جيشا بريا من الجيش المصرى النظامى الجديد بقيادة نجله إبراهيم باشا بطل الحجاز كان مؤلفا من ١٧٠٠٠ سبعة عشر ألف مقاتل من المشاة وسبعمائة من الفرسان وأربع بلوكات مدفعية وأعد لهم للنقل ١٤٦ سفينة تحرسها ٥١ سفينة حربية كاملة التسليح تحت قيادة الأميرال إسماعيل جبل طارق والقيادة العليا لإبراهيم باشا .

واقلعت هذه القوات من الاسكندرية فى شهر يوليه سنة ١٨٢٤ واتجهت فى بادىء الأمر إلى مياه رودس ومنها إلى خليج ماكرى .

وصمد إبراهيم باشا حتى اضطرت السفن اليونانية للتقهقر فى سنة ١٨٢٤ وانضمت القوات والسفن التركيه مرة أخرى للقوات المصرية وأسطولها فى مياه جزيرة (مدللى) ثم استأنفت القوة سيرها شمالا إلى الدردنيل ورجع الأسطول المصرى جنوبا واعترضته السفن اليونانية فى مياه جزيرة (ساقز) واشتبكت مع المصريين فى معركة شديدة انتهت بغرق سفينتين مصريتين فى أكتوبر سنة ١٨٢٤ وعاد إبراهيم باشا إلى ميناء (بدروم) وهنا أدرك إبراهيم باشا مدى كفاءة اليونانيين البحرية فغير أسلوبه فى قتالهم بعد ما لمسه من تفوق اليونانيين فى السفن الحراقه وقرر أن يقاتلهم فى البر ليتغلب عليهم فى شبه جزيرة المورة فعاد فورا إلى ميناء (مرمريس) جنوبا ثم أقلع إلى جزيرة كريت فى ديسمبر سنة ١٨٢٤ وسار بأسطوله فى خليج السوده استعدادا لاختيار الوقت المناسب للاقلاع إلى ساحل المورة لأنه حتى هذا الوقت كانت المعارك كلها على شواطىء الأناضول .



خريطة حرب اليونان

النزول إلى بر المورة

اختار إبراهيم باشا الوقت المناسب للاقلاع من كريت إلى المورة نفسها وذلك عند وقوع اضطراب بين بحارة السفن اليونانية لتأخر مخصصاتهم والخلاف على الزعامة فاقلع إلى ميناء (مودون) جنوبى المورة وانزل جنوده إلى البر فى فبراير سنة ١٨٢٥ فى غفله من اليونانيين ووجد القوات التركيه فى (مودون) فى أسوأ حال تحت حصار اليونانيين لهم لمدة طويلة .

عمليات الجيش المصرى فى المورة

خرج إبراهيم باشا بجانب من نخبة من جيشه من مودون إلى (كرون) لنجدة القوات التركيه المحاصره بها وانتصر على اليونانيين وفك الحصار ثم ارسل فرقة أخرى من جيشه لقتال اليونانيين المتخصصين فى ناڤارين وكانت من أهم وأقوى مواقع المورة وحاصرها إبراهيم باشا بحرا وبرا واستمات اليونانيون فى المقاومه وكبدوا المصريين خسائر كبيرة فقام إبراهيم باشا مع بقية جيشه من (مودون) وجانب من الاسطول لتشديد الحصار على ناڤارين وهاجمته فى الطريق فرقة من اليونانيين يبلغ عددها ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل كانوا متوجهين لنجدة حامية ناڤارين اليونانية فهزمهم إبراهيم باشا وأسر قائدهم وبدد شملهم وشدد الحصار على ناڤارين برا وبحرا وكادت تشرف على التسليم لولا قدوم جيش من متطوعى اليونان يبلغ عدده تسعة آلاف مقاتل واشتركت هذه القوة فى القتال العنيف مع قوات إبراهيم باشا وأحكم إبراهيم باشا خطته وركز هجومه على نقط الضعف فى القوات اليونانيه وفتح النيران الكثيفه دفعة واحدة وحقق النصر على هذا الجيش الذى تفوق قواته عددا وحصد الرصاص الصفوف المتقدمة وتولاهم الرعب واختلت صفوفهم وقتل معظم جنودهم وتشتت الباقون فى الجبال وفى أنحاء اليونان فكانت هزيمة كبرى أثرت على معنويات اليونانيين وزلزلت آمالهم فكان نصرا مبيناً للجيش المصرى وغنم المصريون فيها غنائم كثيره وأسروا عددا عظيما ضمنهم عدد غير قليل من الضباط والقيادات الكبيرة المهمة . وكانت أول معركة كبيرة ينتصر فيها الجيش المصرى فى أوروبا فارتفع بذلك شأن الجيش المصرى والذى كان يعامل أسرى أعدائه وجرحاه أحسن المعامله الانسانية وهذا ما

ضاعف من حسن سمعة الجيش المصرى وتمكن الجيش المصرى بعد هذا النصر من تشديد الحصار على (ناقارين) التى كان يأتيها المدد والمؤن بحرا فى حماية كاملة من جزيرة (اسفاختريا) اليونانية والتى يحصنها اليونانيون تحصينا منيعا لأهميتها بالنسبة لتموين (ناقارين) وكان بها عدة بطاريات من المدافع . وصمم إبراهيم باشا على الاستيلاء على جزيرة (اسفاختريا) واحتلالها حتى يمكنه إحكام الحصار على نافارين تمهيدا لسقوطها وكلف قوه من جيشه بقيادة سليمان بك الفرنساوى لاحتلالها واتجه إليها فى مايو سنة ١٨٢٥ من مودون ولما شعر اليونانيون بهذا التحرك شرعوا فى تعزيز حامية جزيرة (اسفاختريا) ولما صارت السفن المصرية على مرمى المدافع اطلقت قلاع الجزيرة المدافع على القوات المصرية وأجاب المصريون بالمثل من سفنهم الحربية والتى نزلت تحت ستار هذه النيران القوات البرية المصرية فى الزوارق إلى الجزيره وتمكنوا من الوصول إليها فى شجاعه فائقه متعرضين لنيران العدو اثناء النزول ثم هجم المصريون بشجاعة وكان عددهم ٢٠٠ مقاتل واحتلوا الجزيرة ورفعوا العلم المصرى على استحكامات الجزيرة .

الاستيلاء على ناقارين ١٨ مايو سنة ١٨٢٥

بعد الاستيلاء على جزيرة (اسفاختريا) الحصينة شدد الجيش المصرى الحصار على ناقارين وكانت معظم الدول الغربية تعصبا للمسيحية وكرها للاتراك تمد ناقارين بالمؤن والذخائر والامدادات الكثيرة ولكن لسيطرة المصريين على جزيرة اسفاختريا كان إبراهيم باشا يفسد هذه المحاولات أولا بأول وبعد أن يئس الجنود اليونانيون المحاصرون من وصول هذه الامدادات طلبوا من إبراهيم باشا تسليم المدينه له بقلاعها وبما فيها من مؤن وأسلحه وذخائر بشرط أن يؤمنهم على حياتهم فاستجاب لهذا الطلب فى ١٨ مايو سنة ١٨٢٥ ودخل المدينة وكان ذلك أيضا من أعظم انتصارات الجيش المصرى وكان لسقوطها بالغ الأثر على الثورة اليونانية وعلى الدول الغربية التى كانت تغضدها بكل الأمكانيات وتوطد مركز الجيش المصرى البرى بالمورة بعد أن استولى على أمنع حصون اليونان المدعمة بالمعونات من الدول العظمى .

انتقام السفن اليونانية من المصريين

وفى خلال القتال حول ناڤارين وتفوق المصريين فى جميع المعارك على القوات اليونانيه ونظراً لكفاءة البحارة اليونانيين فقد تمكنت السفن اليونانية التى كانت بميناء ناڤارين من الافلات من الحصار إلا سفينتين فقد وقعتا فى أسر المصريين وأخذت السفن اليونانية تنشط فى محاربة المصريين انتقاما لمعارك (اسفاختريا) وتمكن الاميرال اليونانى (موليس) من الاقتراب من ميناء (مودون) التى كانت سفن الأسطول المصرى راسيه بها واستطاعت الحراقات اليونانية من إشعال النيران فى السفن المصرية الراسيه خارج الميناء وكانت الريح شديدة فاندلعت النيران فى باقى السفن وتعذر إطفاؤها ولم ينج بحارتها بأنفسهم وخسرت مصر كثيراً من السفن فى هذا الحريق وامتدت النار إلى المدينة والتهمت جزءاً منها ووصلت إلى مخازن الذخيرة فنسفتها وتهدمت الأماكن المجاورة وكانت هذه الحريق أثناء قتال ناڤارين فلم تؤثر هذه الأحداث الخطيرة على عزيمة إبراهيم باشا حتى حقق النصر فى ناڤارين .

وفى مجال الانتقام من المصريين

وقامت ثلاث حراقات يونانية بالتسلل إلى ميناء الإسكندرية ووصلت أمام طابية صالح وأشعلت النار تريد إحراق السفن المصرية بالميناء ولكن حراس القلعة تنبهوا لهذه السفن المعتدية وبادروا بإطلاق النيران على السفن اليونانية (الحراقات) وبادرت السفن الحربية المصرية إلى إرسال بعض زوارقها المسلحة بالمدافع فهاجمت السفن اليونانية وأغرقت إحداها وفرت الباقيتين وأمر محمد على بخروج خمسة سفن حربية لتعقب الحراقتين اليونانيتين ولكن لم تتمكن من اللحاق بهما .

متابعة النجاح

بعد تسليم ناڤارين للمصريين اعتصم المقاتلون والثوار اليونانيون وعددهم كان أكثر من خمسة آلاف فى (كلاماتا) تحت قيادة بترويك وكلهم من سكان الجبال المقاتلين ومضى إليهم إبراهيم باشا واشتد القتال معهم فى (كلاماتا) لإجماعهم على الاستبسال

وانتهى القتال بهزيمة اليونانيين واحتل إبراهيم باشا القرى والقلاع المجاورة ثم تابع النصر بفتح (اركاديا) .

ثم استأنف التقدم إلى مدينة (تريبوليتا) وكانت في موقع حصين بين الجبال وتعتبر عاصمة الموره وقابل إبراهيم باشا مقاومات شديده عند المضايق ولكنه قهر هذه المقاومة ودخل مدينة (تريبوليتا) في يونيه سنة ١٨٢٥ ووجدها خالية من السكان بعد أن اضرموا فيها النيران وفروا إلى الجبال للمقاومة وتابع إبراهيم باشا زحفه وقهر حشدا من المقاتلين الثوار في وادى أرجوس Orgos في ٢٧ يوليه سنة ١٨٢٥ ثم استولى أيضا على وادى (لكونيا) ثم احتل باتراس وصارت شبه جزيرة المورة في قبضة يد إبراهيم باشا عدا مدينة (تويلى) عاصمة حكومة الثوار ولكن جاءته أخبار من قائد الجيوش التركيه بصعوبة موقفه في مدينة (ميسولنجى) [1] وكان يحاصرها رشيد باشا من مدة طويلة واستعصت عليه لشدة مقاومتها ولمناعة موقعها على خليج (باتراس) واتصالها بالبحر حيث يصلها المدد .

وفشلت سفن الأسطول التركى في حصارها بحريا خشية الحراقات اليونانية بقيادة الأميرال (ميوليس) وبعد أن تلقى إبراهيم باشا مددا كبيرا من والده قام مع عشرة آلاف من المشاه وخمسمائة من الفرسان وسار بحرا وعبر الخليج وأشرف على (ميسولنجى) في فبراير سنة ١٨٢٦ وخالف خطة رشيد باشا في الحصار وحاصرها بحرا بقيادة الأميرال محرم بك وبرا واحتل الجزر المشرفة على (ميسولنجى) أملا في منع ورود المدد لها كما فعل مع (ناڤارين) وقام المقاتلون اليونانيون بالخروج من المدينة في خشود كبيرة في ١٢ أبريل سنة ١٨٢٦ مستترين بالظلام بغرض تطويق الجيش المصرى من الخلف بقوات أخرى طلبوها من القائد اليونانى (كرايسكاكى) ولكن المصريين قابلوهم بنيران حاميه حصدت صفوفهم فارتدوا إلى المدينة في غير نظام وتقدم المصريون وأجهزوا عليهم في ٢٢ أبريل سنة ١٨٢٦ ولصعوبة موقف اليونانيين فضلوا الموت بعملية انتحاريه بأن حشروا أنفسهم

(١) عصر محمد علي للأستاذ الرافعي ص ٢٠١

بنسائهم وشيوخهم وأطفالهم داخل مستودع ذخيره أشعله رئيسهم ونسف المكان بمن فيه بالكامل وكانت خسائر المصريين أيضا كبيره وبلغ عدد قتلاهم ألف قتيل .

سقوط أثينا (يونيه سنة ١٨٢٧)

بعد فتح (ميسولنجى) انفصل الجيش التركى عن الجيش المصرى وتوجه الاتراك إلى مدينة أثينا ولم يكن بها الكثير من القوات اليونانية ولما هجم عليها رشيد باشا القائد التركى سلمت المدينة فى يونيه سنة ١٨٢٧ واستقر إبراهيم باشا بأسطوله وجيشه فى المورة ولم يبق للثورة اليونانية إلا مدينة (نويلى) وتمركزت قوات الثوار البحرية فى جزيرتى (هيدرا) ، (واستبزيا) وزادت أعمال قرصنتهم وبخاصة ضد السفن التجارية التركيه .

الإعداد للقضاء نهائيا على الثورة اليونانية

ولأجل تحقيق النصر النهائى أعد محمد على باشا مددا كبيرا ليرسله إلى إبراهيم باشا فى المورة بعد إصلاح السفن المصرية والتركية التى عادت من المعارك .

كما أضاف عليها عددا من السفن الحربية التى كان قد أوصى بصنعها فى ايطاليا وأصبحت الإسكندرية فى إبريل سنة ١٨٢٧ قاعدة لحملة عسكرية كبيره برية وبحرية ومستعدة للتوجه للانضمام إلى قوات إبراهيم باشا فى الموره للقضاء على آخر معاقل الثورة اليونانية فى جزيرتى (هيدرا - واستبزيا) وفى ميناء (نويلى) .

وبلغت معلومات هذه الاستعدادات الدول الأوربية التى تعطف على الثورة اليونانية وصمموا على انقاذ هذه الثورة وهى انجلترا وفرنسا وروسيا أما النمسا فلم تشترك معهم تطبيقا لمبدأ وزيرها مترنخ وهو عدم مساعدة أى ثورة يقوم بها شعب ضد حكومته الشرعية .

انزعاج الرأى العام الأوروبى

بعد سقوط ميسولونجى فى فبراير سنة ١٨٢٧ ووصول أخبار العمليه الانتحارية اليائسة من المقاتلين اليونانيين وكثير من المدنيين من الشيوخ والنساء وأطفالهم الذين نسفوا أنفسهم مع مستودع الذخيره تحرك الرأى العام الأوروبى وبخاصة فى الدول العظمى

التى كانت تؤيد ثورة اليونان وبوصول أخبار سقوط العاصمة أثينا نفسها فى يونيه سنة ١٨٢٧ وقام فى هذه الدول دعاة لإنقاذ الثورة من الشعراء والأدباء والكتاب يضربون على الوتر الدينى الحساس وتمكنوا من تحقيق رأى عام أوروبى يتعصب ضد المسلمين الاتراك والمصريين .

التدخل الأوروبى

حدث فيما قبل سقوط (ميسولونجى) وأثينا أن تم الاتفاق بين انجلترا وروسيا فى ٤ أبريل سنة ١٨٢٦ يؤدى إلى استقلال اليونان الداخلى مع بقاء السيادة التركيه الأسميه ثم بعد سقوط ميسولونجى وأثينا تجددت المفاوضات بين الدول الأوروبية واسفرت عن إبرام معاهدة لندن فى ٦ يوليه سنة ١٨٢٧ وافقت فيها كل من انجلترا وفرنسا وروسيا على التدخل بين تركيا واليونان على أساس استقلال اليونان الداخلى تحت السيادة التركيه الأسميه - وطلبت الدول الكبرى وقف القتال فورا بين الجانبين إلى أن يتم الاتفاق النهائى بين جميع الأطراف - وعرضوا هذه الشروط على سلطان تركيا بشرط أنه فى حالة عدم قبولها خلال شهر تقوم الدول الكبرى باستخدام القوة لتنفيذ هذه المعاهدة .

وكانت هذه المعاهدة بمثابة الإنقاذ العملى للثورة اليونانية قبل احتضارها الأخير . وقامت الدول الثلاث انجلترا وفرنسا وروسيا وقبل أن يصل رد سلطان تركيا وبادرت بارسال أساطيلها إلى مياه اليونان أمام ناڤارين تهديدا لقوات مصر بالتدخل بالقوة سواء وافق السلطان أو لم يوافق على الشروط وفى نفس الوقت لمنع وصول أى إمدادات مصرية إلى القوات المصرية والتركية بقيادة الأميرال طاهر باشا وعدده ٢٣ سفينه وتولى إبراهيم باشا القيادة العامة لقوات البر والبحر ولحسن حظ قوات الدعم المصرية أنها وصلت إلى ناڤارين فى غفلة من أساطيل الحلفاء حيث كانت أساطيل الحلفاء حول موانىء معاقل الثوار اليونانيين فى جزيرتى هيدرا وترميا واكتفت بتجسس [1] أخبار الأسطولان المصرى والتركى لمنعهما من الوصول إلى سواحل اليونان ولمنع إنزال المدد بالبر .

---

(١) عصر محمد على للأستاذ الرافعى ص ٢٠٥

التجسس على تحركات الأسطولين المصرى والتركى

وفى غفله من عيون الجاسوسية البحرية الانجليزية تمكن الأسطولين المصرى والتركى من الوصول إلى ميناء ناڤارين وانضمت إلى قوات إبراهيم باشا هناك ولكن أحد عيون المخابرات [١] الانجليزية كابتن فيلوز أعلم الحلفاء بوصول قوات الدعم وأساطيلها إلى ناڤارين يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ .

تحرك الحلفاء إلى ناڤارين

وبادر الأسطول الانجليزى بالتحرك ووصل ناڤارين يوم ١٢ سبتمبر سنة ١٨٢٧ وتلاه الأسطول الفرنسى ووصل هناك يوم ٢١ سبتمبر ووصل الاسطول الروسى فى أول أكتوبر سنة ١٨٢٧ واصطفت أساطيل الحلفاء خارج الميناء فى مواجهة الأساطيل المصرية لتحاصر مدخل الميناء .

الانذار والتهديد

وفى يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ قام الأميرال الانجليزى كوردنجتون بإرسال مندوب عنه إلى إبراهيم باشا يبلغه مطالب الحلفاء طبقاً لمعاهدة لندن فى ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ وأكد عليه توقف حركات القتال براً وبحراً وأبلغه مهدداً أن الحلفاء أرسلوا أساطيلهم لمنع وصول السفن الحربية أو القوات البرية إلى أى جهه فى اليونان أو أى جزر فى بحر الأرخبيل ثم قام قائد الأسطول الفرنسى (الاميرال رينى) بمقابلة إبراهيم باشا وكرر عليه نفس المطالب ثم قابله مرة أخرى بصحبه الاميرال كوردنجتون مرة أخرى وكرر نفس الانذار والتهديد وكان رد إبراهيم باشا أنه سوف يرسل هذه المطالب إلى والده بالاسكندرية وإلى السلطان فى تركيا انتظاراً لتعليماتهما وتعهد ببقاء الاسطول فى ناڤارين بشرط أن يلتزم الطرف الآخر اليونانى وطبقاً لمعاهدة لندن بالتوقف عن القتال والتحرك هو الآخر .

---

(١) عصر محمد على للأستاذ الرافعى ص ٢٠٦

(وقف حركات القتال من الجانبين)

وكان هذا البلاغ بمثابة إنذار وتهديد صريحين بالنوايا العدوانية الجادة للحلفاء .

الثوار اليونانيون يستأنفون القتال

وتحت حماية قوات وأساطيل الحلفاء عادت قوات الثورة اليونانية إلى تجميع صفوفها من جديد بعد أن تلقوا المدد وأخذوا يهاجمون الحاميات المصرية نقضا لمعاهدة لندن وقاموا بحركات عدائية فى خليج (كورنت) وهاجموا باتراس شمال المورة بمعاونة الحلفاء وكان يحتلها الجيش المصرى وطلب إبراهيم باشا من الأميرال الانجليزى منع هذه الأعمال المنافية للهدنه ولما لم يتلقى ردا أو اجراءً بادر وتوجه بحرا إلى (باتراس) بجانب من سفن اسطوله الحربى لنجدة قواته هناك .

وقام الاميرال كودرنجتون متعمدا بتعقب إبراهيم باشا وقواته فى باتراس ولحق بإبراهيم باشا عند رأس (باباس) شمال الموره وأنذره مهددا بالحرب إن لم ترجع قوات إبراهيم باشا عن سيرها واضطرت قوات إبراهيم باشا بالعودة أدراجها إلى ناڤارين – ثم وصل جواب محمد على أنه يعرض الأمر على السلطان ولم يصله الرد ويوصيه بتجنب الاصطدام مع قوات التحالف وأن يلتزم بهذا الموقف حتى ولو وصله أمر السلطان بخلاف ذلك لأن محمد على يرى أن محاربة الحلفاء متجمعين لا طاقة لقواته بمواجهتها ولأنهم يملكون التفوق البحرى لأنها أرقى فى النظام والتسليح وقوه مدافعها الشديدة الفتك وقوادهم أكثر علما وكفاءه فى الحروب البحرية والتزم إبراهيم باشا بخطة الدفاع .

تأملات فى الموقف

رغم أن جميع الملابسات والتبليغات والانذارات كانت صريحه ولا تحمل إلا معنى إيجاد المبرر لعدوان قوات الحلفاء بغرض التخلص من قوات إبراهيم باشا وأساطيله وتدميرها .

وتوقع مبادرتهم بالعدوان فقد اخطأ إبراهيم باشا غاية الخطأ بأن ترك مقر قيادته لأكبر قوه مصرية بحرية وبرية فى اليونان المتمركزه فى ناڤارين وأمامها وعلى مرمى البصر النيران المعادية وغادر إبراهيم باشا ناڤارين فى منتصف أكتوبر متوجها بجزء كبير من

جيشه داخل الموره لنجدة الحاميات فى ثغرى (كرون) و (مودون) وترك القيادة إلى الاميرال محرم بك بقيادة الأسطول المصرى والأميرال طاهر باشا لقيادة الاسطول التركى وأوصاهما بعدم التحرش بالاساطيل الدولية ولم يكن هناك أى ضرورة ملحة ليترك مركز قيادته فى ناڤارين والموجود بها أثمن وأهم ماكانت تفخر به مصر من أساطيل وقوات تحت رحمة أى ظروف كان من المحتمل جدا أن تصل لدرجة الغدر الدولى والذى كان واضحا من أسلوب الانذارات والتهديدات بالاضافة إلى أوامره الصريحة للاميرال محرم بك والأميرال طاهر باشا بعدم التعرض لأساطيل الحلفاء وقواتها المتربصة وبخاصة إذا ما تركوا للعدوان ولو حتى على سبيل الدفاع الشرعى عن النفس .

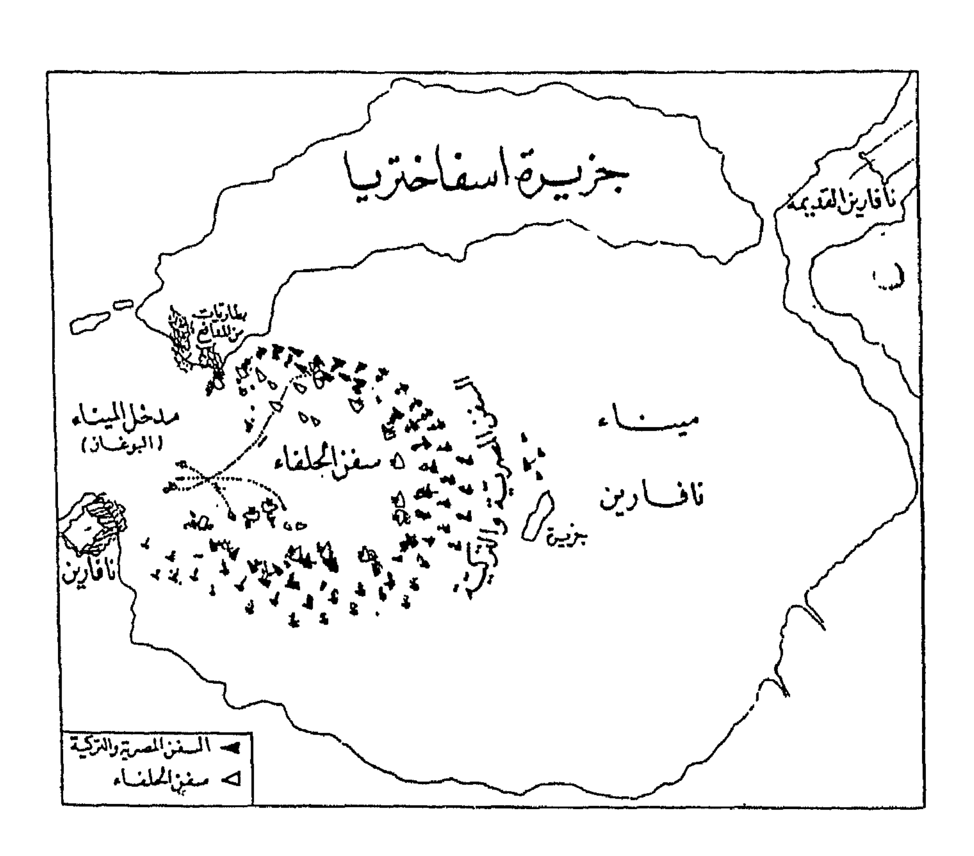
واقعة ناڤارين ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧

انتهز قواد أساطيل الحلفاء تحرك إبراهيم باشا بريا داخل الموره لانقاذ الحاميات المصرية المهددة وارسلوا له يوم ١٨ أكتوبر انذارا يبلغونه فيه أنه نقض الهدنه بتحركه ويحملونه تبعة هذا العمل وعواقبه ولم ترد القيادة المصرية على هذا الانذار ولم تتخذ أى احتياطات فى مواجهة اسوأ الظروف المحتمله فى حالة تقدم اساطيل الحلفاء لاقتحام ميناء ناڤارين باتباع أبسط الاجراءات الشرعية وهو التصرف الايجابى لمقاومة التحرش بقانون الدفاع عن النفس .

فى يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٢٧ [1] وفى أشد الاوقات حرجا أرسل أميرال الاسطول الفرنسى (رينى) لطائفة الضباط الفرنسيين الذين كانوا يعملون مع الأسطول المصرى فى الحمله أرسل لهم يدعوهم بالانسحاب من العمل فى الاسطول المصرى حتى « لا يحاربون أخوانهم ومواطنيهم الفرنسيين » ولبوا الدعوة بعد أن استأذنوا من الأميرال محرم بك تم ذلك ولم يستنتج الأميرال محرم من كلمة (يحاربون أخوانهم ومواطنيهم الفرنسيين) أن هذه بادرة التحرش وافتعال العدوان والنيه الأكيده على العدوان .

---

(١) كل هذا حدث بتبرير غريب من الاستاذ عبد الرحمن الرافعى من وصفه لمعركة ناڤارين ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ فى كتابه عصر محمد على من ص ٢٠٨ إلى ص ٢١٦ ولم يتناول مواقف القائد ابراهيم باشا والاميرالين محرم بك وطاهر باشا بالتقصير القاتل والذى تسبب فى الخسائر الجسيمة للأسطولين المصرى والتركى



ميناء نافارين والواقعة البحرية

بالعكس فقد تمادى محرم بك وطاهر باشا فى الاسترخاء والغفلة والثقة الزائدة فى وداعة الأعداء بأنهم لا ينوون البدء بالحرب ولم يتخذ الأسطولين المصرى والتركى الاستعداد الكامل للقتال والتحوط من أسوأ الظروف والتى ظهرت محتملة وفى يوم ١٩ أكتوبر لم تساعد الريح سفن الحلفاء على دخول الميناء وأرجىء الهجوم لليوم التالى فى يوم ٢٠ الساعة العاشرة صباحا بدأت سفن الحلفاء تستعد للتحرك واقتحام ميناء ناڤارين وكانت السفن المصرية والتركية مصطفة داخل الميناء فى اطمئنان على ثلاث صفوف شبه متوازية وعلى شكل نصف دائرة تمتد أحد طرفيها أمام ناڤارين المدينة من ناحية اليسار والطرف الآخر مقابل لطرف جزيرة (اسفختريا) على اليمين وكان بهذين الموقعين بطاريات مصرية من المدافع الساحلية القوية والمتحكمة فى المدخل والقادرة على التصدى لأى تقدم بالإضافة إلى مجموعة سفن مصرية خفيفة من الحراقات لتندفع وقت اللزوم وهى مشتعله لمهاجمة أى بوارج للأعداء لتحرقها بنارها وكل تلك الوسائل الدفاعية المصرية كانت قادرة على منع أى أساطيل معادية من اقتحام البوغاز ودخوله ولكنها لم تحرك ساكنا وتحركت الاساطيل المعادية لتدخل الميناء بأسلوب العدوان السافر حتى قبل أن تطلق النيران ولم يتعرض لها ولم يتصرف قادة الأسطولين المصرى والتركى التصرف العسكرى اللازم بالاستعداد للاشتباك وعلى العكس كان القائد المصرى محرم بك والقائد التركى طاهر باشا فى غاية الاطمئنان القاتل وغير مقدرين لخطورة معنى الانذارات والتهديدات لقادة القوات المعادية . وفى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر تحركت أساطيل الأعداء لتقتحم البوغاز ولم تتدخل المواقع المصرية الحصينة على مدخلى البوغاز فى الضرب على أساطيل الاعداء لمنعها من اجتياز الميناء ودخوله امعانا واستهتارا بخطورة الموقف واكتفى الاميرال محرم بك قائد الاسطول المصرى بإرسال رسول يطلب من كودرنجتون الانجليزى أن يمنع أساطيل الحلفاء من الرسو فى ناڤارين وأجاب الاميرال الانجليزى بغطرسة وفى لهجة جافة « بأنه لم يجىء ليتلقى أمراً بل جاء ليملى أوامره » - وتبع ذلك بأن أخذت سفن الاعداء وضع الاشتباك على شكل نصف دائرة فى مواجهة الاسطولين المصرى والتركى واقتربت حتى صارت وجها لوجه وعلى مرمى الأسلحة الصغيرة وقامت فى نفس الوقت البارجة الانجليزية (دار تموت)

بمهمة تعطيل الحراقات المصرية الراسية في مدخل الميناء وقامت بالاشتباك مع هذه الحراقات وفي نفس الوقت أحاطت سفن الاعداء بسفن إبراهيم باشا وحاصرتها في مكان ضيق وبدأ القتال وأطلقت بوارج الحلفاء مدافعها على السفن المصرية والتركية وتبادل الاسطولان الضرب وانقلب المرفأ إلى بركان وكان الاسطولان المصرى والتركى مكون من ٦٢ سفينة حربية واسطول الحلفاء ٢٧ سفينة ولكن كان لدى الحلفاء عشرة بوارج عبارة عن قلاع كبيرة متحركة متفوقة فى قوة نيرانها وتسليحها تفوقا ساحقا وكان لدى المصريين والاتراك ثلاثة بوارج فقط أقل كفاءة بكثير من بوارج الاعداء ولم تتمكن من أن تنالها بأى أضرار لتعذر الحركة فى حين أن بوارج الاعداء تمكنت من تحطيم معظم سفن الأسطولين المصرى والتركى لإحكام حصارها كما أن مدافع القلاع المصرية لم تطلق مدافعها على سفن الحلفاء اثناء اجتيازها للبوغاز وسكتت تماما حتى دخلت سفن الأعداء آمنة سالمة وكانت أساطيل الحلفاء اكفأ قيادة ولم تتمكن سفن مصر والترك من الحركة حيث كانت أساطيل الحلفاء تحاصرها فى مكان ضيق ساعد على تدميرها بسهوله فكان المشهد رهيبا ومروعا للقوات المصرية والتركيه وأخذت سفن الحلفاء تتمادى فى الضرب على السفن المصرية والتركية وصار تدمير معظم السفن المصرية والتركية .

نهاية المعركة

وانتهت المعركة بهزيمة مؤلمة للمصريين والاتراك فى الساعة الخامسة مساء وهلك معظم سفن إبراهيم باشا نسفا وغرقا وكان عدد قتلى المصريين والاتراك ثلاثة آلاف فى حين لم يخسر الحلفاء سوى ١٤٠ قتيلا ، ٣٠٠ من الجرحى وكل ذلك يرجع إلي سوء القيادة وتواكلها وعدم اتخاذها قرارات المبادأة .

تعليق واجب

ومن مجمل قراءاتى وتأملاتى عن هذه المعركة أن ما كتب عنها يصفها بالمجد والانتصار حتى ذكر أن محمد على باشا حين استقبل إبراهيم باشا قال له « أهلا ببطل المورة » حقيقة أن إبراهيم باشا بطل المورة وخصوصا الحروب البرية ولكن تظل معركة

ناڤارين البحرية نقطة سوداء فى التاريخ العسكرى لإبراهيم باشا وبدء أفول الوجود التركى فى البلقان ويمكن اجمال القصور فى القتال فى الوقت المناسب وعدم وجود القائد العام إبراهيم باشا فى ميدان المعركة وبالتأكيد كان سيتصرف بشجاعة وبمقدرة أكبر كانت تمكنه من التغلب على خصمه أو على الأقل فى تكبيده أفدح الخسائر لأنه ترك لنوابه القائدين محرم بك وطاهر باشا نصيحة قاتلة ومدمرة وهى فكرة تحاشى وتجنب الاشتباك وبذلك قيدهما بسلاسل جعلت عدوهما يتمكن منهما ومع كل ذلك كان الصمود المصرى ممكنا إذا تصرف القائدين التصرف الواجب رغم تفوق العدو فى التسليح والكفاءة البحرية وخاصة أن الاسطولين المصرى والتركى كانا يتفوقان فى عدد السفن الحربية ٦٢ : ٢٧ وكان ممكنا منذ أن أفصح الحلفاء عن نياتهم العدوانية بامكان انتشار هذه القوات والأساطيل التركية والمصرية بشكل وقائى داخل الميناء واستدراج العدو بعد تكبيده أفدح الخسائر أثناء اجتيازه مداخل الميناء وضرب سفن الاعداء من الموقعين المتمكنين فى مدخل الميناء وعموما فقد كانت معركة خاسرة بشكل فادح للمصريين والأتراك فى الأنفس وفى المعدات والسفن وكان أبلغ مثل يمكن تطبيقه على هذه الحالة هو المقاتل الساذج الذي يجعل خصمه النذل يتمكن منه رغم معرفته بمدى نذالته وطريقة اقترابه منه وبتركه يقترب منه دون على الأقل أن يقاومه وتكبيده أفدح الخسائر قبل أن يتمكن منه ويجعله صاغرا يحفر مقبرته بيديه ليدفن نفسه فيها ويالها من ذكرى مأساة حزينه يجدر بنا وبالاتراك ألا ينسوها أبدا واعتبارها درسا يعلمنا مضار الغفلة والثقة التى تكون فى غير محلها وفيمن لا يستحقها .

ما بعد هزيمة المورة

بعد انتهاء المعركة عاد إبراهيم باشا إلى ناڤارين وشهد بنفسه آثار المعركة الخاسرة وأمر بانقاذ ما يمكن انقاذه من السفن الباقية وتعويم التى غرقت وارسالها إلى الاسكندرية لأصلاحها واخلى مدن المورة وتمركز بمعظم جنوده فى تفرى (كرون) و (مودون) وازاء تصلب تركيا بعدم الالتزام بمعاهدة لندن أعلنت روسيا الحرب عليها واحتلت جيوشها

(درنه) وارسلت فرنسا جيشا من ١٨٠٠٠ جندى بقيادة جنرال (ميزون) للعمل على اجلاء المصرين والاتراك من المورة بالقوة ثم توجه الاميرال الانجليزى بأسطوله إلى مياه الاسكندرية وهدد محمد على بتخريب المدينة إذا لم يبادر باستدعاء إبراهيم باشا وقواته من المورة والكف عن القتال .

وأخيراً عقد محمد على اتفاقا مع الحلفاء اتفاقية اخلاء المورة فى أغسطس سنة ١٨٢٨ ينص على اخلاء الجيش المصرى لبلاد المورة على شروط :

١ - أن يتعهد محمد على بإعادة الأسرى اليونانيين .

٢ - يتعهد الحلفاء باعادة الأسرى المصريين واعادة السفن المصرية التى اسرت اثناء القتال .

٣ - أن تخلى الجنود المصرية المورة وينقلوا على السفن المصرية .

٤ - يترك الحرية لليونانيين المقيمين فى مصر حرية الرحيل أو البقاء .

٥ - يجوز لإبراهيم باشا أن يترك فى اليونان عددا من الجنود لا يزيد على الألف ومائتين للمحافظة على (مودون) ، (كورون) ، (نافارين) ، (باتراس) ، (كستل توريزه) أما المواقع الأخرى فتخلى فوراً وعندما وصلت شروط هذه الاتفاقية لإبراهيم باشا أخلى المورة فى أكتوبر سنة ١٨٢٨ .

وبذلك عاد الجيش المصرى بعد أن تكبدت مصر أعظم الخسائر وكانت خسائره فى الجنود ٣٠٠٠٠ وكانت الحملة مكونة من ٤٢٠٠٠ علاوة على النفقات الباهظة وفقدت مصر أسطولها الحربى والتى صرفت عليه الأموال الطائلة . وانتهت الحرب الروسية التركية بعقد معاهدة أدرنه (١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩) وفيها وافقت تركيا على قرارات الدول فى معاهدة لندن واعترفت باستقلال اليونان استقلالا داخليا على أن لا يكون لها عليها سوى السيادة الاسمية ثم اتفقت الدول العظمى على تخويل اليونان الاستقلال التام فى ٣ فبراير سنة ١٨٣٠ .

استمرار سياسة محمد على العمرانية بين بداية حرب اليونان سنة ١٨٢١ ونهاية حرب سوريا والاناضول سنة ١٨٤١

رغم استمرار حالة الحرب منذ بداية حرب اليونان سنة ١٨٢١ حتى انتهت فى سنة ١٨٢٨ فقد قام محمد على حتى أثناء هذه الحرب بالاستمرار فى مشاريع التعليم والعمران والاصلاح ومتابعة التوسع فى النشاط الانتاجى الزراعى والصناعى حتى أمكنه فى مدة زمنية صغيرة من نهاية حرب اليونان عام ١٨٢٨ وبداية حرب سوريا والأناضول سنة ١٨٣١ من إعداد قاعدة الصناعات الحربية العملاقة حيث أمكنه فى هذه الفترة القصيرة إعادة بناء أسطول حربى جديد عوضه خسائر حرب اليونان فى السفن بل وأنشأ وأصلح ورمم أسطولا أقوى من الأسطول الأول وأعد قوات مجهزة بأحدث الأسلحة ووفر الأموال اللازمة لهذه الحملة معتمدا على القاعدة الصناعية والزراعية بحيث أصبحت ميزانية الدولة تحقق فائضا واستمر فى هذه السياسة العمرانية حتى أثناء حملة سوريا والأناضول ١٨٣١ وكان كل ذلك بفضل عبقرية محمد على وتجاوب شعب مصر معه ومع هذه العبقرية بعد ما نال القسط الوافر من التعليم والطموح وكان لصحوته الفضل الأكبر فى تحقيق مجتمع الرفاهية والقوة والحضارة التى اقتربت كثيرا من الحضارة الأوروبية حتى أن ترسانة الإسكندرية أمكنها بناء السفن التى تسير بالبخار بدلا من الشراع ولأول مرة وفى بداية عصر تحول الدول الصناعية الأوروبية الكبرى تسيير سفنها وأساطيلها بالبخار وصنعت مصر من هذا النوع وهى (وابور النيل) والسفينة (أسيوط) ، (رشيد) ، (جيلان) وأنشئت لذلك إدارة خاصة سميت (القومبانية المصرية) وهذا موجز لسياسة محمد على العمرانية التى اعتمد فيها على صحوة أبناء مصر بجميع طبقاتهم فى سبيل استقلال مصر ورفاهية مجتمعها .

العمل على استقلال مصر عن تركيا

رفض محمد على مساعدة تركيا فى حربها مع روسيا وأخذ يخطط لتحقيق استقلال مصر عن تركيا وفكر جديا فى ذلك ولم تكن هناك إلا وسيلة وهى استئناف تدعيم المجتمع

المصرى وتقويته علميا وعمرانيا وعسكريا ليكون متفوقا على الأقل عن المجتمع التركى وقادراً على مقاومة مؤامرات الدول الأوربية وتدخلها .

عودة إلى السياسة العمرانية لمحمد على

بعد أن صارعت قوات محمد على ثلاث دول كبرى فى المورة ولولا أخطاء القيادة لكانت نتيجة هذه المعارك أكثر ايجابية ومع ذلك فقد خرج محمد على من هذه المعارك بنتيجة هى ضرورة تقوية المجتمع المصرى وتوفير أسباب التقدم والقوة معتمدا على الفرد المصرى بصفة عامة وعلى إمكانيات مصر ذاتها بصفة خاصة ومنذ بداية اشتراك أسطوله الحديث فى هذه المعارك فقد بادر محمد على باستثمار كل إمكانيات مصر والأقطار التى تم له السيطرة عليها فى الحجاز والسودان وسارع فى الاتجاه نحو تحقيق التقدم حتى يوازى نفس تقدم الدول الأوربية الكبرى التى صارعته وزاد اعتناؤه بالتنمية البشرية والاجتماعية والمادية .

وفى مجال التنمية المالية

الضرائب :

وبالإضافة إلى فرض الضرائب الإضافية التى فرضها [1] ورغم أرهاقها للشعب فقد كان الشعب راضيا إلى حد ما لأن الشعب المصرى كان يشعر بأنها تحقق له انتصارات وتقدم ملموس فى الزراعة والصناعة وفى المشروعات العمرانية وتأمين البلاد أى أن الشعب المصرى كان يجنى ويشعر بأن ما يحصل منه يصرف فى محله بالإضافة إلى شعور الرأى العام بالفخر والعزة بعد أن حقق له هذا التقدم المكانة الدولية المرموقة بين الدول المتحضرة .

(ثانيا) التنمية البشرية

كان محمد على يهتم فى هذه التنمية بنشر العلم بين أفراد هذا الشعب وبخاصة بين أولادهم رجال المستقبل وذلك بالتوسع فى التعليم وإرسال البعثات .

---

(١) الجبرتى جـ ٤ ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٨ ، ١٣٩ ، ١٥٢ ، ١٨٤ ، ص ٢٠٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ص ٢٩١ ، ص ٣٠١ مشاريع مصر العمرانية .

المدارس الابتدائية

توسع محمد على فى هذه الفترة بفتح المدارس الابتدائية فى معظم المحافظات وبعض المراكز .

فى مجال الهندسة

أنشأ محمد على مدرسة المهندسخانة على النظام الحديث فى عام ١٨٣٤ فى بولاق .

فى مجال الطب والصيدلة

أسس محمد على مدرسة الطب سنة ١٨٢٧ بإقتراح من الدكتور كلوت بك وكان مقرها بأبى زعبل ضمن مبانى المستشفى العسكرى هناك وتولى إدارتها كلوت بك نفسه وكان بها خيرة من الأساتذة الأوربيين ومعظمهم من الفرنسيين وألحق بهذه مدرسة خاصة بالصيدلية ثم مدرسة لحكيمات الولادة وبدأ باستخدام السودانيات والحبشيات بعد تعليمهم اللغة العربية .

المدارس المتخصصة

ثم أنشأ مدرسة الألسن بالأزبكية ثم عديد من المدارس العالية فى مجال المعادن والمحاسبة والفنون والصنائع والزراعة والطب البيطرى ثم المدرسة التجهيزية بأبى زعبل وأخرى بالاسكندرية .

البعثات الكبرى من يوليو سنة ١٨٢٦ بدأ محمد على يرسل البعثات الكبرى

البعثة الأولى

كانت مؤلفة من أربعين تلميذاً ولحق بهم أربعة آخرون وأوفدها محمد على إلى فرنسا وانتظم طلابها فى المدارس الفرنسية وتلقوا بها العلوم والفنون والتحق بعض الدارسون بها فى الحقوق وبعضهم فى دراسة العلوم الحربية والإدارة العامة وآخرين فى العلوم السياسية وآخرون فى الملاحة والفنون البحرية والهندسة الحربية وتخصص بعضهم فى المدفعبة وآخرون فى الطب والجراحة والزراعة وهندسة الرى والميكانيكا وكان إمام البعثه الشيخ رفاعة رافع والذى قام بالدراسة أيضا وصار من ألمع رجال البعثة وتخصيص بعضهم فى صنع الأسلحة

وصب المدافع وبعضهم فى الطباعة والحفر وآخرين فى الكيمياء وعاد بعضهم إلى مصر دون اتمام الدراسة لأسباب صحية ولعدم أهليتهم .

البعثه الثانية

أرسلها محمد على إلى فرنسا آخر عام ١٨٢٨ وكانت مؤلفة من ٢٤ طالبا تخصص بعضهم فى الهندسة والرياضيات والطبيعيات والعلوم الحربية والعلوم السياسية والطب .

البعثه الثالثة

وأوفدت سنة ١٨٢٩ وكان أبرز تخصصها فى المجالات الصناعية لأن محمد على وقتها اتجه إلى إنشاء الصناعات الكبرى أسوة بالدول الأوروبية الكبرى وأوفد طلبتها فى المعاهد الأوروبية وكان عددها ٥٨ طالبا أرسلوا إلى فرنسا والنمسا وانجلترا وتعلموا فى فرنسا صناعة الآلات الجراحية وصناعة الساعات وشمع العسل والنقش والزخرفة والدهان والسروجية والشيلان والأحذية وشمع الأختام .

وتعلموا فى فينا نسج الأجواخ والعبوات . أما فى انجلترا فتعلموا آلات البوصلات وميزان الهواء والنظارات ومقاييس الأبعاد وآلات الفلك وصناعة الآلات الهندسية والتنجيد والفراشه والميكانيكا والصينى والفخار وصب المدافع والقنابل وصناعة وبناء السفن والفنون البحرية والهندسية .

مشروع القناطر الخيرية سنة ١٨٣٤

بعد أن تحقق لمحمد على الفوائد الكبيرة التى حصل عليها من حفر الترع وإقامة الجسور والسدود والقناطر وأمكن بذلك توفير مياه الرى اللازمة للتوسع الزراعى على طول السنة وصارت الترع تروى الأراضى فى غير أوقات الفيضان بعد إقامة القناطر عليها . وفكر فى إقامة مشروع كبير يوفر جانبا كبيرا من ماء النيل التى تذهب إلى البحر وعهد محمد على إلى مجموعة من كبار المهندسين على رأسهم المسيو ليان دى بلنون ووضع له تصميما ومشروع لذلك سنة ١٨٣٤ ولم يحقق هذ التصميم [١] المراد منه فأوكل محمد

---

(١) كتاب فى أرض النيل دكتور عبد العزيز كامل ص ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣

على لمهندس فرنسى آخر هو مسيو موچيل Mougel بعد أن نجح فى إنشاء حوض السفن بميناء الاسكندرية بإقامة هذه القناطر وهو عبارة عن سد حجرى يعترض مجرى النيل جنوب تفرع النيل مباشرة على شكل قنطرتين كل واحدة منها على كل من فرعى النيل الرئيسيين (دمياط ورشيد) .

وشق ثلاث ترع كبرى تتفرع على النيل فيما وراء القناطر لتغذية الدلتا وهى الرياحات الثلاثة المعروفة برياح المنوفية ورياح البحيرة ورياح الشرقية ووضع محمد على حجر الأساس لمشروع القناطر الخيرية فى سنة ١٨٤٧

التوسع الزراعى

بعد التحسن الملموس فى توفير مياه الرى نتيجة مشاريع محمد على فى التوسع وشق الترع وإقامة القناطر والجسور أخذ محمد على فى التوسع فى زراعة المحاصيل والزراعات المهمة سواء للتصنيع أو لغذاء جنود جيشه وبحارته عماد فتوحاته وتوسعاته وكان بالإضافة إلى الأصناف السابقة هو زراعة نوع جديد من القطن .

القطن

أمكن محمد على بمشورة أحد مستشاريه الأجانب من استنباط نوع جديد من بذور القطن وكانت تزرع فى حديقة أحد الأعيان (موحى بك) وبعد ذلك أصبح القطن المصرى من أهم المحاصيل المهمة لمصر من زراعية وتجارية وصناعية فكان مادته لا حدود لها حيث كان القطن المألوف زراعته حتى سنة ١٨٢١ من صنف ردىء لا يصلح إلا للتنجيد وكان يزرع كأشجار الفاكهة ويتم غزله فى المنازل ولاحظ مسيو جومل هذا النوع الجيد من القطن فى حدائق موحى بك وكان فى فترة من الزمن يشغل منصب حكمدار السودان ولما لمس محمد على مدى جودة هذا القطن عمم زراعته وأنشأ السواقى اللازمة لريه ثم أدخل بعد ذلك قطن أمريكى جيد هو نوع سى أيلاند Sea Island ونجحت التجربة بعد أن توسع محمد على فى إقامة مشاريع الرى المتعددة من حفر ترع وإقامة سدود وقناطر وجسور وأصبح للقطن المصرى سمعة تجارية دولية وأصبح أساس ثروة مصر الزراعية واحتكر محمد

على وحكومته زراعة وتجارة وصناعة هذه الأقطان فى الداخل والخارج .

التوسع الصناعى

بعد أن وضع محمد على أساس الصناعات أخذ من هذا التاريخ التوسع فى إقامة وإنشاء وتحسين هذه المصانع واحتكرها واحتكر منتجاتها والتجارة فيها ومن أهم هذه المصانع :

١ - مصانع الغزل والنسيج

فى هذه الفترة أخذ يتوسع محمد على فى إقامة مصانع الغزل والنسيج فأقام مصنع مالطه ببولاق واستحضر له عمال من مالطه (ولذلك سمى بفابريقة مالطه) وأعد هذا المصنع لغزل القطن ثم نسجه أقمشة مختلفة الأنواع وكان بهذا المصنع ورشة تضم مختلف الحرف بغرض إصلاح آلات المصنع وآلات مصانع الوجهين البحرى والقبلى وورشة للنجارة وأخرى للخراطة ومناشير لنشر الخشب والنحاس ومنافيخ (جمع منفاخ) كبيره لتشكيل المعادن وانشأ بالقرب من هذه الورشة ثمانون ورشة حداده لصنع مراسى المراكب وكل ما يلزم السفن من أجزاء حديدية ومعمل لسبك الحديد وبه ثمانية أفران تعمل باستمرار وجميع عمالها مصريون تحت إدارة رؤساء من السوريين .

ثم أنشأ فابريقة إبراهيم أغا وفابريقة السبتية لغزل القطن .

فابريقة المبيضة

ورشة بين بولاق وشبرا وكان فيها تبيض الأقمشة التى تصنع فى الفابريقات الأخرى بالأساليب الحديثة وتطبع فيها ثياب الشيت (البصمة) وامتازت عالميا بجودتها واتقانها ودقة الصنع والمتانة وجمال رسوماتها وثبات ألوانها أفضل من الشيت الوارد من ألمانيا وانجلترا وتم إنشاء مبيضات أخرى شبرا شهاب (القليوبية) وفى شبين والمحلة والمنصورة وتم فيها أيضا صناعة مناديل الرأس الحريمى وكانت منتجات هذه المصانع تصدر للخارج وتحقق دخل كبيرا للحكومة .

التوسع فى صناعة الغزل والنسيج

وفى مرحلة متقدمة بعد وصول مستوى انتاج القطن المصرى إلى درجة جودة عالية والتوسع فى زراعته توسع محمد على فى إنشاء مصانع الغزل والنسيج فى الوجه البحرى فى قليوب وشبين الكوم والمحلة وزفتى وميت غمر والمنصورة ودمياط ودمنهور وفوه ورشيد وفى الوجه القبلى : فى بنى سويف وأسيوط والمنيا وفرشوط وطهطا وجرجا وقنا وكانت مصر تصدر جزء من القطن المغزول إلى ثغور البحر الأدرياتيكى وثغور ايطاليا وتصدر إلى ألمانيا وباقى القطن المغزول كان يتم نسجه أقمشة فى مصر ليباع فى المدن والقرى ويصدر بعضه إلى سوريا وتركيا وجزر الأرخبيل وكانت هذه الصناعة أساسا للنهضة الصناعية . أما الأقمشة الكتانية فكان يستهلك منها الكثير داخل مصر ويصدر قسم منها إلى تريستا وليفورن وكان بمصر ٣٠٠٠٠ نول لنسيج أقمشة الكتان .

مصانع نسيج أخرى

وأنشىء أيضا مصنع نسيج البركال بالقرب من مبيضة بولاق سنة ١٨٣٣ لنسج البركال (نوع من الشيت الرفيع) وكان به أربعة صناع انجليز يعلمون العمال المصريين .

ومصنع أمشاط الغزل بحى السيدة زينب

ويتم فيه صنع امشاط الغزل تستعمل فى الغزل وتدربت فيه الصبيان على هذا العمل ويورد إنتاجه إلى فابريقات الغزل واصلاح المعطوب وبه أيضا قسم للنسيج .

مصنع الجوخ

أنشىء فى بولاق على شاطىء النيل وكان بغرض نسج خامات ملابس الجنود وجلب له العمال المهره من مرسيليا وقاموا بتدريب العمال وتعليمهم أسرار الصناعة وإدارة الآلات الحديثة وتكون بذلك طائفة من الغزالين والنساجين والقصاصين والصباغين والعصارين وبعث إلى فرنسا عددا منهم من أذكياء المصريين بالبعثة العلمية فى معامل فرنسا وكان ، وكانت القوة المحركة لآلات هذا المصنع مكونة من ثمانية ثيران تحرك تسع

عجلات وكان المصنع يحتوى على كثير من العدد وآلات الكبس والعصر وغيرها وأنشأ مصانع جوخ أخرى في دمنهور وفي بعض أحياء القاهرة ويستعمل في نسجه الصوف الردىء ويعمل منه الكبابيت (البلاطى) وأغلب إنتاج هذه المصانع يستهلك فى ملابس بحارة الأسطول .

مصنع الحرير

بعد أن أكثر محمد على من غرس أشجار التوت أكثر من إنتاج الحرير وأحضر من تركيا العمال المهره المتخصصين فى الحرير وأنشأ لهذا الغرض مصنعا للحرير فى الخرنفش واكتسب عمال نسج الحرير المصريون شهرة فى المهارة فى هذه الصناعة وقام هذا المصنع فى مرحلة متقدمة فى نسج الأسلاك الذهبية المعروفة بالقصب .

مصنع الحبال

أقام محمد على مصنعا للحبال فى القاهرة لترسل إلى الاسكندرية لاستخدامها فى ترسانة الثغر وفى السفن الحربية والتجارية وكانت تصنع هذه الحبال من القنب الذى توسع محمد على فى زراعته لسد هذه الحاجات .

مصانع نسيج الصوف

وأقامت الحكومة أيضا مصانع الصوف تصنع فيها ملابس الجنود والبحارة المصريين والبطاطين وبلغت الأنوال فى هذه الفترة ٤٠٠٠ نول .

مصنع الطرابيش فى فوه

أنشأ محمد على مصنعا للطرابيش فى فوه واستدعى لذلك العمال المهرة من تونس المشهورة فى هذه الصناعة وأتقن المصريون هذه الصناعة وطريقة تحضير الصوف ونسجه وكبسه وصبغه وكان الجيش المصرى يستهلك كل انتاج هذا المصنع ويباع الفائض للتجار المحليين .

معمل سبك الحديد

أنشيء هذا المسبك ليستخدم إنتاجه في بناء السفن والآلات اللازمة للمعامل والمصانع والفابريقات وأنشيء في بولاق في مبنى حديث وكبير ووضع تصميم هذا المسبك خبير مهندس ميكانيكي انجليزي مستر (چالويه) على نمط مسابك انجلترا وكان يتولى العمل فيه رئيس انجليزي يعاونه خمسة عمال انجليز قاموا بتعليم العمال المصريين سر هذه الصناعة .

مصانع الواح النحاس

وأنشأت مصر أيضا مصنعا حربيا لصناعة ألواح النحاس التي تبطن بها السفن وكان يديره الخبير الانجليزي مستر جالويه أيضا ويساعده أربعة رؤساء عمل لإدارة الاسطوانات والآلات البخارية وقاموا بتعليم عشرين عاملا مصريا اسرار هذه الصناعة .

معامل السكر

أسست الحكومة المصرية سنة ١٨١٨ معملا للسكر في مركز ملوى بأسيوط على نمط مصانع السكر في جزر الأنتيل بأمريكا وتولى إدارته خبير انجليزي واشتهر هذا المعمل بحسن الإدارة ورخص الإنتاج ثم قامت الحكومة بإنشاء معملين آخرين في ساقية موسى والثاني في الروضة مركز ملوى .

مصانع النيلة

وكانت تزرع وتصنع لأجل الصباغة وبعد التوسع في زراعتها توسعت مصر في إنشاء المصانع المتعددة في شبراشهاب والعزازية وميت غمر والمنصورة ومنوف وابيار والاشمونيين وبركة السبع والمحلة والفشن وتحقق لمصر دخل كبير من تصدير الفائض من هذا الإنتاج ($\frac{٥}{٦}$ المحصول) .

مصانع أخرى

أنشأت مصر في هذه الحقبة مصانع أخرى للصابون ومدبغة للجلود برشيد ومصنع للزجاج والصيني وآخر للشمع ومصنع للورق ومعاصر للزيت .

احتكار الصناعة

بعد أن أصبح محمد على منذ بداية حكمه المالك الوحيد للأراضى الزراعية ثم التاجر الوحيد لحاصلاتها وبعد إقامة الصناعات الوطنية والتوسع فيها لتحقيق مزيدا من الثروة الوطنية شجعه ذلك بعد التوسع الصناعى على احتكار الصناعات بالتالى حيث أصبح الصانع الوحيد أيضا لكل الصناعات الصغيرة والثقيلة فاحتكرها هى الأخرى وحقق بذلك مزيدا من الايرادات للحكومة بعد أن فتح بابا جديدا للربح وبذلك أصبح الاقتصاد المصرى قادرا على بناء الأساطيل والجيوش والمصانع والتوسع العمرانى وكان الشعب راضيا رغم بعض الضيق والتبرم من كثرة الضرائب لأن هذا النظام كان محققا لمزيد من المكانة الدولية لمصر ومحققا لمزيد من العمار والتقدم وتوفير العمل لأبناء الشعب وبالحق جعل للمصرى مكانه بين شعوب العالم المتقدم بعكس ما كان يعلق به بعض كتاب الغرب بأن هذه الاجراءات كانت تزيد من تبرم الشعب والقضاء على حافز التقدم الذى لا يرضى الدول الأوروبية فى هذا الوقت التى كانت حكوماتها هى الأخرى تتمادى فى تحصيل الضرائب والتحكم فى الانتاج الصناعى لتحقيق الفتح والتوسع ولم يتخذ محمد على هذه الاجراءات الاحتكارية إلا بغرض تنمية المجتمع المصرى .

أعمال العمران

اعتنى محمد على بعمران المدن بإقامة المبانى العامة كالمصانع ودور الحكومة وأصلح قنطرة المجراة التى كانت تنقل المياه من النيل بمصر القديمة إلى القلعة وفتح الطرق الواسعة بين مصر وشبرا وأصلح بركة الازبكية وتحولت إلى بستان كبير وبنى الجامع الكبير بالقلعة وأنشأ دار للرصد (الرصد خانة) ومد خط سكة حديد [١] بمحاجر طره لنقل الأحجار إلى شاطىء النيل لاستخدامها فى بناء القناطر الخيرية .

الاهتمام بتحصين البلاد وتقوية مصر عسكريا

بعد ما تبين لمحمد على نوايا الدول الكبرى العدوانية أثناء آخر مراحل معارك المورة لدرجة تهديد مصر بضرب الاسكندرية اهتم محمد على بتحصين مصر واعتنى بالتوسع فى

---

(١) كتاب لسان مذكرات عن أهم أعمال العمران فى مصر ص ٥٤

اعادة بناء الأسطول وتقوية الجيش والاهتمام بالصناعات الحربية والتوسع فى المعاهد العسكرية والتدريب .

تحصين البلاد

اهتم محمد على عناية كبيرة بإقامة القلاع والاستحكامات على ثغور البلاد وعاصمتها .فأصلح قلعة صلاح الدين بالقاهرة ودعمها بالمدافع الحديثة وبنى على مقربة منها قلعة بالمقطم قلعة محمد على وتشرف على قلعة صلاح الدين وأصلح قلاع الاسكندرية واستخدم مهندسا حربيا فرنسيا فى فن الاستحكامات هو مسيو جليس Golice وقام باختيار سواحل مصر ووضع الخطة لحصونها واستحكاماتها وأصبح لمصر عدد كبير من القلاع الحصينة هى :

اسـم الحـصـن	عـدد المدافـع	عـدد الهاونات
طابية قـايتباى	١١٠	٦
طابية الألمة	٥٧	٧
طابية الفنار	٥٧	٦
طابية الفنار الصغيره	١	–
طابية الهلالية	٦١	١٢
طابية الاستبالية الجديدة	١٣	١٠
طابية الاستبالية القديمة	٢٥	–
طابية ظهر منزل الفرنسيس	٦	٦
طابية المفحمة	٨	–
طابية مسلة فرعون	٩	١
طابية قبور اليهود القديمة	١٠	–
طابية قبور اليهود الجديدة	٢٠	–
طابية برج السلسلة	١٨	١
طابية باب شرق	٦	–
طابية كوم الناضورة	١٠	١
طابية الدخيلة	٣	–
طابية السلمية	٢٠	٢
طابية المكـس	٤٠	٩
طابية القمرية	٩	١
طابية أم قبيبة	٥٦	٤
طابية الملاحة القديمة	١٤	١
طابية الملاحة الجديدة	٣٤	١
طابية صالح اغا	١٣	–
طابية باب سدرة	٨	–
طابية كوم الدماس	٩	٢

حصون أبو قير

اسم الحصن	عدد المدافع	عدد الهاونات
قلعة أبو قير	٤٨	٣
طابية كوم الشوشة	٤٧	٣
طابية كوم العجوز	٢٤	٢
طابية السد نمره ١	١٠	-
طابية السد نمره ٢	١٠	-
طابية السد نمره ٣	١٠	-
طابية السد نمره ٤	١٠	-

حصون رشيد

اسم الحصن	عدد المدافع	عدد الهاونات
طابية الثنى	٦	-
طابية العباسى	٦	-
طابية الطوجنية	٥	-
طابية المنزلاوى	٣	-
طابية محل الشركة	١	-
طابية برج رشيد	١٤	-
طابية قلعة البوغار	١٨	-
طابية الطابية الشرقية	١٠	-
طابية الطابية الغربية	١٠	-

حصون البرلس

اسم الحصن	عدد المدافع	عدد الهاونات
قلعة البرلس		

حصون دمياط

اسـم الحـصــن	عـدد المدافـع	عـدد الهاونات
القلعـة القديمة	٢٠	-
الطابيـة الشـرقيـة	١٠	-
الطابيـة الغـربيـة	١٠	-

إصلاح ميناء الاسكندرية [١]

قام محمد على بتوسيع ميناء الاسكندرية وتعميقها واستحضر لها الكراكات من أوربا وأصبحت السفن ترسو على الشاطىء بعد أن كانت ترسو بعيداً عنه واتسعت حركة التجارة وأنشأ رصيفا داخل الميناء لرسو السفن عليها وصب ما بين الأرصفة والشاطىء بالأحجار والأتربة فأتسع الشاطىء وأنشأ فى هذا الفراغ (الفضاء) فوق الشاطىء ما يحتاج إليه الميناء من المخازن ومبانى الجمرك ومكاتب الموظفين والحراس وكان المشرف على الميناء شاكر أفندى وخلفه بعد وفاته مظهر باشا المهندس الماهر الذى تخرج من البعثة العلمية كما ثبت علامات فى البوغاز كى يهتدى بها ربان السفن عند دخولهم الميناء وخروجهم منها .

إنشاء حوض إصلاح السفن

أنشأ محمد على بالميناء حوضا لترميم وإصلاح السفن وتم إنشائه على يد المهندس الفرنسى موجل بك واشترك فى إنشائه مظهر باشا والمهندس بهجت باشا خريجا البعثات من فرنسا وأنشأ رصيفا فى الميناء ومد إليه السكة الحديدية لتصل إلى مستودعات البضائع والغلال بالرصيف ليسهل نقلها إلى مختلف جهات مصر .

(١) عصر محمد على للأستاد الرافعى ص ٣٧١ ، ٣٨٠

فنار الإسكندرية

وقام المهندس مظهر باشا بإنشاء فنارا بشبه جزيرة راس التين لإرشاد السفن القادمة والخارجة .

تجديد الأسطول بعد معركة نفارين سنة ١٨٢٩

بعد تدمير معظم الأسطول المصرى فى معركة نفارين سنة ١٨٢٩ بادر محمد على بإنشاء أسطول جديد تعويضا للخسائر وبدأ بالأمر بصنع عدة سفن حربية فى أوروبا وحتى لا تكون مصر عالة على البلاد الأوروبية . شرع فى إنشاء وتوسيع ترسانة صناعة السفن على أحدث نظام بالاسكندرية واستعان بمهندس فرنسى متخصص فى بناء السفن الحربية وهو المسيو سيريزى Cerisy وكان سبق وعهد ببناء سفينتين حربيتين فى مرسليا وقدم سيريزى بك إلى مصر فى أبريل سنة ١٨٢٩ وكان بالاسكندرية وقتها عدد قليل من السفن التى نجت من معركة نفارين منها سفينة فرقاطة بها ستون مدفعا وسبق إنشاؤها فى البندقية وفرقاطة أخرى انشئت فى ليفورن وسفن أخرى أقل شأنا تفتقر إلى معدات ومهمات القتال وبدأ مسيو سيريزى فورا فى إصلاحها وتجهيزها وتسليحها لجعلها صالحة للقتال وكلف محمد على المسيو سيريزى فى نفس الوقت بوضع تصميم لإنشاء ترسانة كبرى واتخذ مسيو سيريزى الترسانة القديمة كنواة للترسانة الكبرى وكان يدير الترسانة القديمة وقتها بتكليف من محمد على باشا الحاج عمر وكان مهندسا بارعا فى فن بناء السفن بالخبرة ونظرا لكفاءته العالية فقد اختاره مسيو سيريزى كمساعد له لتوسيع الترسانة وبناء السفن الجديدة وكان الحاج عمر رجل من أهالى الاسكندرية يجمع بين الشهامة والكفاءة . وقام بمساعدة مسيو سيريزى فى جميع أعماله وشرع مسيو سيريزى مع الحاج عمر فى تنفيذ مشروع الترسانة الجديدة فى يونية سنة ١٨٢٩ واستعان بآلاف من الجند فى حفر الأساس للمبانى وضم لمساحة الأرض مساحات أرض كبيرة اشتراها من الأهالى على شاطىء الميناء وقام بتشغيل عدد كبير من الرجال والشبان المصريين فى العمل فكان منهم النجارون والحدادون والقلافطة والسباكون والميكانيكيون وصار

تدريبهم على الأعمال البحرية وصاروا اسطوات برتب عسكرية منهم الأمباشية والجاويشية والضباط المتازون وتم بناء الترسانة سنة ١٨٣١ وشجع محمد على العمل بدوام زيارته للترسانة أثناء إنشائها من وقت لآخر وكذلك كان يفعل إبراهيم باشا وتم فى يوم ٣ يناير سنة ١٨٣١ انزال أول بارجة حربية كبيرة للبحر فى احتفال كبير حضره محمد على وكانت تحتوى على مائة مدفع وبذلك حظى مشروع محمد على نحو إنشاء أسطول قوى بدأ خطوته الأولى ثم اتسع العمل فيه بمضى الوقت حتى صار لمصر فى عدة سنين أسطول حربى قوى عوضها عما فقد فى (نافارين) بل وزاد قوتها عما كانت عليه وصارت ترسانة الاسكندرية من أعظم المنشأت الحربية والبحرية ومعهدا لتعليم الشبان المصريين بناء السفن وترميمها وتسليحها وكانت مقسمة إلى أقسام يتخصص كل قسم وجماعة فى فرع من فروع هذه الصناعة فكانت الأقسام هى :

١ - ورشة الحبالة أو التبالة لعمل الحبال .

٢ - ورشة الحدادين .

٣ - ورشة القلوع .

٤ - ورشة الساريات .

٥ - ورشة البوصلات والنظارات .

٦ - ورشة الدكمخانة لصب الآلات وسبك الحديد .

٧ - ورشة البوية للدهانات .

٨ - ورشة المخرطة لعمل البكرات وأعمال النشر والخرط .

٩ - ورشة الترزية لعمل الأعلام والرايات .

١٠ - ورشة الفلايك لصنع الزوارق

١١ - ورشة النجارين .

١٢ - ورشة الطلمبات .

١٣ - ورشة القلافطية لقلفطة السفن

١٤ - ورشة البرغوصة لثقب الأخشاب .

١٥ - مخازن الذخائر والمهمات .

وأنشىء بالترسانة خمسة مزلقانات لبناء السفن عليها وصار تعميق البحر هناك بحيث يرسو فيه أكبر السفن الحربية وبلغ عدد عمال الترسانة ٨٠٠٠ عامل من الأهالى واستغنت مصر كلية عن شراء السفن من الخارج .

وكانت الأخشاب يتم توفيرها محليا ومن الخارج من تركيا وأعطته تركيا الحق فى قطع الأخشاب اللازمة من غابات الأناضول وعهدت بذلك إلى العمال والصناع المصريين برئاسة الحاج حسن بك كبير نجارى الترسانه والسيد أحمد أحد عمالها .

إحصاء للسفن التى انشئت أو رممت بترسانه الاسكندرية

- بنيت البارجتان (مصر) وعكا بحجم السفن الفرنسية ذات الثلاث أسطح وكانت بالسطح الأول ٣٢ مدفعا عيار ٣٠ ً والمسطحان الأخران يحملان ٦٨ مدفعا قصيرا من عيار ٣٠ ً .

- بنيت ٤ بوارج من ذات المائة مدفع وهى (المحلة الكبرى) ، (المنصورة) ، (الاسكندرية) ، (وحمص) وفى كل منهما ٣٢ مدفع طويل عيار ٣٠ ً ، ٣٤ مدفع قصير عيار ٣٠ ً ، ٣٤ مدفع من الزهر (كاروباز) عيار ٣٠ ً فى مقدم السفينة ومؤخرها والبارجة (أبو قير) ذات ٧٨ مدفع منها ٢٨ مدفع طويل عيار ٣٠ ً ، عدد ٣٠ مدفع قصير ، ٢٠ مدفع من الزهر عيار ٣٠ ً فى مقدمة السفينة ومؤخرها .

- بنيت الكورفيت (طنطا) وفيها ٢٤ مدفع قصير عيار ٣٢ ً انجليزى .

- بنبت الحوليت (عزبزية) فبها عشرة مدافع عيار ٤ رطل وقواطر (النزهة) وفيه ٤ رطل مدافع عيار ٤ رطل .

- وسفينة المدافع الهاون وسفينة نقالة لحمل أخشاب الساريات .

- تولت الترسانة تسليح البارجة (بيلان) ذات ٨٦ مدفع منها ٢٨ مدفع طويل عيار ٣٠ً ، ٣٠ مدفع قصير عيار ٣٠ً ، ٢٨ مدفع من الزهر فى المقدمة والمؤخرة .

أما السفن التى تم إصلاحها أو ترميمها فهى :

الفرقاطة الجعفرية

وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٣٢ً انجليزى وأصلها كانت مصنوعة بميناء (ليفورن) بايطاليا .

الفرقاطة البحيرة

ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ً وكانت مصنوعة فى ميناء مرسيليا .

الفرقاطة رشيد

ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٢٤ً ، ٢٨ مدفعا من الزهر من عيار ٢٦ً وكانت مصنوعة بالبندقية (فينسيا) .

السفينة كفر الشيخ (ثم فرقاطة)

ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٣٢ انجليزى ، ١٤ مدفعا من عيار ١٢ً ومصنوعة أصلا فى (اركانجل) فى روسيا كسفينة للنقل ثم صار تعديلها فى (لندن) كفرقاطة حربية .

السفينة (شير جهاد)

ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ وصنعت فى ثغر (ليڤورن) بايطاليا وتم تعديلها فى الاسكندرية تعديلا شاملا .

السفينة دمياط : حولت إلى فرقاطة ذات أربعة وعشرون مدفعا من عيار ٢٤ ، عدد ثلاثون ٣٠ مدفعا من الزهر عيار ١٨ً وحولت إلى فرقاطة حربية .

الفرقاطة موستا جهاد

ذات ٢٨ ثمانية وعشرون مدفعا من عيار ١٨ ، وعدد ٢٨ مدفعا آخر عيار ١٢ وهى فرقاطة جزايرية أهدتها فرنسا لمصر .

كورفيت *السفينة* (جناح بحرى) : أصلها من ثغر جنوه بايطاليا ٢٢ مدفع عيار ٢٤ً

كورفيت *السفينة* جهاد بيكر : أصلها من جنوه ٢٢ مدفع عيار ٢٤ً

كورفيت *السفينة* فوه : أصلها من الاسكندرية ٢٢ مدفع عيار ٢٤ً

كورفيت *السفينة* بلنك جهاد : أصلها من مرسيليا ٢٢ مدفع عيار ٢٤ً

***السفينة* واشنطون :** أصلها من بوردو ٢٢ مدفع زهر

***السفينة* (نوملينان) :** أصلها من ليفورن طراز الأبريق ٢٢ مدفع زهر .

***السفينة الفاشن* :** أصلها من الاسكندرية طراز الأبريق ٢٢ مدفع زهر .

***السفينة* شاهين دربا :** أصلها من تركيا طراز الأبريق ٢٢ مدفع زهر .

سفينة (سمنود جهاد) : أصلها من مرسيليا طراز أبريق صغير ١٦ مدفع زهر .

سفينة (شهباز جهاد) : أصلها من سبونا طراز أبريق صغير ٢٦ مدفع زهر .

سفينة *التمساح* : أصلها من مرسيليا طراز أبريق صغير ١٦ مدفع زهر .

سفينة (بادى جهاد) : أصلها من الاسكندرية طراز أبريق صغير ١٦ مدفع زهر .

سفينة (أمريكان) : أصلها من أمريكا طراز أبريق صغير ١٦ مدفع زهر .

عدد ٤ سفن نقاله : حمولة كل منها ٤٠٠ طن

باخرة (*النيل*) : أصلها من لندن وتسير بالبخار وتم اصلاح هذه السفن بأسلوب مصرى جديد يتناسب مع الصحوة المصرية فاق أسلوب أعرق الدول الأوروبية فى الإصلاح وبذلك سبقت ترسانة الاسكندرية ترسانات فرنسا فى الوسائل الحديثة لإنشاء وإصلاح السفن .

استخدام البخار فى بناء السفن .

وبعد أن ظهر استخدام البخار فى العالم أمر محمد على بإنشاء السفن الحربية الحديثة تسير بالبخار بعد أن كانت تسير بالشراع وصنعت عدة سفن بالترسانة منها (النيل) ، (أسيوط) ، (رشيد) ، (جيلان) وخصصت كلها لحمل البريد وأسس لها إدارة خاصة سميت (القومبانية المصرية) .

سفن النقل

قامت ترسانة الاسكندرية بجانب بناء الأسطول الحربى الضخم ببناء عدد كبير من سفن النقل بحيث يمكنها تلبية نقل الأفراد والجنود ومعداتهم وأسلحتهم بجانب نقل البضائع الصادرة والواردة لمصر ولتموين موانىء وثغور البحار . وأنشأ لها محمد على إدارة خاصة تولاها فى البدايه محمد قراقيش قبودان ثم محمد راشد بك ثم اسندت إلى أحمد قبودان .

إعداد القباطنة والملاحين والبحارة والفنيين

ومنذ بداية استخدام السفن وصناعتها فى مصر فى مينائى بولاق والسويس تنبه محمد على إلى أهمية إعداد الأطقم المصرية القادرة على قيادة وتسيير هذه السفن والملاحة بها وكذلك تدريبهم وجنود البحرية على القتال فى البحار فما بالنا بما حدث فعلا أثناء معارك المورة واعتماد القوات المصرية بصفة رئيسية على السفن الحربية ومدى كفاءة القبطانات والقادة والبحارة كذلك يجب أن نتصور حاجة السفن الحربية والنقل إلى هذه الكفاءات بعد التوسع فى صناعة السفن فى ترسانة الاسكندرية الحديثة وكان محمد على حريصا على التدرج فى إقامة المعاهد والمدارس وسفن تدريب القباطين والفنيين والبحارة لسد حاجات هذا العدد الضخم من السفن بالإضافة إلى اهتمام محمد على منذ ١٨٢٦ على النهوض بالصناعة البحرية .

المعسكر البحرى للتعليم برأس التين [1]

أنشأ محمد على باشا معسكرا لتعليم البحارة من الجنود على الأعمال البحرية

(١) كتاب حقائق أخبار لإسماعيل سرهنك جزء ٢ ص ٢٤٣

ليكونوا بحارة الأسطول وجنوده . وانتقاهم من كل المديريات وأعد لإقامتهم وتدريبهم بالجهة الشمالية الشرقية من رأس التين لتسع عشرة آلاف دارس .

مدرسة بحرية على ظهر البحر

أنشأ محمد على باشا مدرسة بحرية لتخريج الضباط البحريين لتعليم مختلف فنون اجتياز البحار وذلك على ظهر إحدى السفن الحربية ولما دعت حالة التوسع إلى مزيد من الضباط أنشأ سفينة أخرى لهذا الغرض وكان ناظر إحدى هاتين السفينتين حسن بك القبرصى وخلفه بعد وفاته كنج عثمان ونبغ من خريجى هذه المدارس كثير من الضباط والقباطين والذين تخصصوا فى الأعمال البحرية والحروب البحرية أو تولوا الإدارة البحرية فى مصر منهم إسماعيل باشا سرهنك وخير الدين قبودان وعبد اللطيف قبودان وأحمد قدرى قبودان الملقب بالجوخدار وحسين شرين قبودان وجعفر مظهر قبودان وحافظ خليل قبودان وكثير غيرهم من أكفأ القادة البحريين .

البعثات البحرية :

بالإضافة إلى كل ما سبق فإن محمد على باشا استمر فى اختيار بعض الضباط البحريين ويرسلهم إلى فرنسا وانجلترا لإتمام علومهم بها وممارسة الفنون البحرية على ظهر السفن الحربية الأوروبية منهم عثمان نور الدين باشا وحسن أفندى الاسكندرانى وسنان أفندى ومحمود أفندى نامى .

الصحوة المصرية

كل هذه النهضة فى مجال اجتياز البحار وصناعة السفن التى تدرجت فى رقيها حتى انتهت بصناعة السفن البخارية والتى تضاهى الصناعة الأوروبية كانت بفضل عبقرية محمد على وكفاءة من استخدمهم من الخبراء الأجانب وبصفة رئيسية إلى كفاءة الشباب المصريين وصحوتهم وتقبلهم لتعليم أحدث فنون البحرية وصناعة السفن بما يوازى المستوى الأوروبى .

الصناعات الحربية

كان رأى محمد على أنه لأجل إنشاء جيش قادر على حماية الديار لا يمكن أن يتم إلا إذا كان هذا الجيش يجد احتياجاته باستمرار وتحت مختلف الظروف خاصة من السلاح والذخيرة والمدافع فى داخل البلاد لأن استحضار السلاح من الخارج وزخائره وقطع إصلاحه يعرض قوة الدفاع الوطنى للخطر ويجعل الجيش والبلاد تحت رحمة الدول الموردة للسلاح ولوازمه لذلك بذل كل الجهود الصادقة لأجل إنشاء المصانع الحربية فى مصر وكلف قائد المدفعية أدهم بك بإقامة هذه الترسانة .

ترسانة القلعة

أسس أدهم بك هذه الترسانة بالقلعة لصنع الأسلحة وصب المدافع وصناعة الذخائر اللازمة . وحدث بها حريق سنة ١٨٢٤ وأعيد إقامتها على أحدث النظم وتقدم العمل بها واتسع نشاطها فكان بها ٩٠٠ من العمال المهرة فى صنع الأسلحة تنتج فى الشهر حوالى ٦٥٠ بندقية وكان بها قسم خاص لصنع زناد البنادق والسيوف والرماح ومهمات الجنود ومستلزمات الخيول والفرسان امتاز إنتاجها بالمتانة والدقة ورخص الأسعار (البندقية كانت تتكلف ١٢ قرشا مصريا فقط) وكذلك مصنع للبارود ومواسير البنادق ومصنع آخر لصنع ألواح النّحاس تستخدم لوقاية السفن الحربية .

معمل صب المدافع

وكان أهم مصانع الترسانة وأكبرها عملا هو معمل صب المدافع يصنع به ثلاثة مدافع أو أربعة كل شهر عيار ٤ ، ٨ أرطال ومدافع الهاون عيار ٨ ً ومدافع قطر ٢٤ بوصة وكان يستخدم فيها كمية عظيمة من الفحم والحديد وعماله ١٥٠٠ عامل .

مخازن البارود والقنابل

وأعد محمد على للبارود والقنابل مخازن خاصة على سفح المقطم .

مصنع البنادق فى الحوض المرصود

فى سنة ١٨٣١ أنشأ مصنعا آخر للبنادق فى الحوض المرصود وكان من قبل معدا

للنسيج وكان يديره رجل ايطالى من جنوه عمل أولا مع أدهم بك بالقلعة وكان اسمه مسيو (مارنجر) وتسمى بعد ذلك باسم (على أفندى) وقام بتدريب العمال لهذا المصنع وأصبحوا فى غاية المهارة وكان هذا المصنع ينتج فى الشهر ٩٠٠ بندقية من مختلف الأنواع والأشكال وكان متوسط ما تتكلفه البندقية ٤٠ أربعون قرشا أغلى مما تنتجه القلعة بمبلغ ٢٨ قرش .

وأقام محمد على مصنع بنادق آخر فى ضواحى القاهرة وكانت المصانع الثلاثة تصنع فى السنة ٣٦ ألف بندقية عدا الطبنجات والسيوف .

معامل البارود

أقيم معمل للبارود عند المقياس بطرف جزيرة الروضة وكان بعيدا عن المساكن وتولى إدارته مسيو مارتل Martel وكان المصنع يستوعب ٩٠ عاملا منهم ١٨ فى قسم خلط الكبريت والفحم وملح البارود ، ٢١ عاملا يشتغلون فى تقليب البارود فى الطواحين وعددها عشرة ولكل طاحونة عشرون مدقة تحركها عشرات تديرها البغال ويقودها عشرة رجال ، ٤٠ أربعون عاملا يعملون فى صنع الرش وينتج يوميا ٣٥ قنطارا وكان البارود يصنع بطريقة التبخر .

وتعددت بعد ذلك معامل البارود فى مصر وهذا بيانها وبيان إنتاجها سنة ١٨٣٣

	الكمبة بالقنطار
معمل القاهرة	٩٦٢١
معمل البدرشين	١٦٨٩
معمل الاشمونيين	١٥٣٣
معمل الفيوم	١٢٧٩
معمل اهناسى	١٢٥٠
معمل الطرانه	٤١٢
الجملة	١٥٧٨٤

ملابس الجند

أقام لملابس الجنود مصانع فى القلعة وكانت ملابسهم فى غاية البساطة بالنسبة للجنود طربوش أحمر وصدار وبنطلون يشبه السروال الواسع بتكة ويربط على الركبة بالقلشين وحزام فى الوسط وفى الشتاء كانت ملابسهم من الجوخ وفى الصيف من القطن أما الفرسان ورجال المدفعية والحرس فيلبسون فى الشتاء صدار أزرق وغيرهم يلبس صدار أحمر وأحذيتهم عبارة عن مراكيب من الجلد الأحمر .

رواتب الجند

كانت مرتب الجندى	١٥ قرشا فى الشهر
ومرتب الامباشى	٢٥ قرشا فى الشهر
والجاويش	٣٠ قرشا فى الشهر
والباشجاويش	٤٠ قرشا فى الشهر
والصول	٦٠ قرشا فى الشهر
والملازم ثانى	٢٥٠ قرشا فى الشهر
والملازم أول	٣٥٠ قرشا فى الشهر
واليوزباشى	٥٠٠ قرشا فى الشهر
والصاغ	١٢٠٠ قرشا فى الشهر (١٢ ج) فى الشهر
اليكباشى	٢٥٠٠ قرشا فى الشهر
القائمقام	٣٠٠٠ قرشا فى الشهر أى ٣٠ جنيها .
الاميرالاى	٨٠٠٠ قرشا فى الشهر أى ٨٠ جنيها .
الميراميران	١٢٥٠٠ قرشا فى الشهر أى ١٢٥ جنيها .

تحقيق الرفاهية والانتعاش

نتيجة سياسة محمد على فى مجال تنظيم الضرائب وإعادة تسجيل الملكيات العقارية وجمع الرسوم والتوسع الصناعى والزراعى وإحكام النظام الإدارى والتعليم فقد تحقق الانتعاش وليس أدل على ذلك من مراجعة ميزانية مصر عام ١٨٣٣ من إيرادات ومصروفات فكانت كالآتى :

مفردات الايرادات

	جنيه
الضريبة العقارية	١٢٥٠٠٠
ضريبة النفوس	٣٥٠٠٠٠
العوايد على الحبوب	١٨٠٠٠٠
بيع المحاصيل التى تحتكرها الحكومة (القطن والتيلة ، والأفيون والسكر والنبيذ والأرز والعسل ، والشمع والحناء ، وماء الورد وبذر الكتان وبذر السمسم ، وبذر الخس وبذر القرطم ، والحرير والزعفران .	٤٥٠٠٠٠
ربح الحكومة من نسيج الأقمشة .	٦٠٠٠٠
ربح الحكومة من فابريقة الحرير	٤٧٥٠٠
دخل الحكومة من جمرك الاسكندرية وعوايد الدخول	٣٠٠٠٠
دخل الحكومة من جمرك دمياط وبولاق	٣٦٠٠٠
دخل الحكومة من جمرك مصر القديمة	٨٠٠٥
دخل الحكومة من جمرك السويس والقصير	٣٠٠٠٠
دخل الحكومة من جمرك أسوان	١٣٥٠
رسوم الصيد فى بحيرة المنزلة	١٣٧٥٠

رسوم الملح والمراكب والأسماك	١٧٥٠٠
المكوس على البضائع السورية من البر	١٠٠٠
ربح الحكومة من الجير والمصيص والأحجار	٢٢٠٠٠
عوايد السوايل	١٣٨٥٥
عوايد السنامكى	١٣٠٠
عوايد الصيد فى بحيرة قارون ومكوس الفيوم	٢٩٠٠
ربح الحكومة من الجلود الخام والمدابغ	٣٥٠٠٠
المكوس فى الوجه البحرى والقبلى	١٦٠٠٠
عوايد الراقصات والموسيقيين والحواة	٢٥٠٠
عوايد المواشى المخصصة للذبح	١٠٠٠٠
عوايد صب الفضة والمقصب	٢٢٥٠
رسوم التركات (بيت المال)	٦٠٠٠
عوايد الوكايل والأسواق فى الوجه القبلى	٢٠٠٠
رسوم الخراج	٣٢٠٠
ربح دار العزب (العرنجانه)	١٥٠٠٠
ربح بيع الحصر	٣٠٠٠
ربح بيع الصودا بالاسكندرية	١٥٠٠
ربح ملح النشادر	٢٠٠٠٠
أجرة السفن المملوكة للحكومة	١٢٠٠٠
جملة الايرادات	٢٫٥٢٥٫٢٧٥

مفردات المصروفات

ميزانية الجيش	٦٠٠٠٠٠
مرتبات كبار الضباط ورؤساء المصالح	١٩٩٢١٥
مرتبات الكتبة والموظفين	١٠٠٠٠٠
معاشات الملتزمين الذين ألغى التزامهم	١٧٥٠٠
نفقات قافلة الحج (المحمل)	١١٠٠٠
نفقات الفابريقات وأجور العمال	١٠٨٠٠٠
نفقات إنشاء القصور والفابريقات الجديدة	٩٠٠٠٠
نفقات إنشاء القناطر والجسور	٦٠٠٠٠
أموال مرسلة للآستانة	٣٠٠٠٠٠
ميزانية موظفى البحرية ورجالها	
مخصصات لصيانة قصور نائب الملك (محمد على)	٥٠٠٠٠
مخصصات غذائية للموظفين	٢٥٠٠٠
أجور الخيالة الترك غير النظاميين (الباشبوزق)	٣٢٥٠٠
أجور العربان	٢٥٠٠٠
معاشات للأرامل والنساء	٣٠٠٠٠
أشياء مجلوبة من أوروبا لأجل الفابريقات	٧٥٠٠٠
مصاريف ترسانة بناء السفن ببولاق	١٦٥٠٠
نفقات المدرسة الحربية	٧٥٠٠
نفقات المطبعة	١٧٥٠

نفقات إنشاء السفن الحربية	٧٧٥٣٥
مخصصات غذائية لنائب الملك (محمد على)	٢٠٠٠٠
ثمن مهمات حربية	٧٠٠٠٠
ثمن علف الجمال والبغال والخيول	١٢٥٠٠
مخصصات لإدارة مشتروات الكشمير والأجواخ	
والأثواب الحريرية والجواهر الخ (منح وهدايا)	٧٠٠٠٠
مجموع المصروفات	١٩٩٩٧٠

بفائض ٥٢٥٥٧٥ جنيه

مقارنة بين ميزانيات بعض السنوات

السنة	الايراد	المصروفات
١٨٢١	١٩٩٧٠٠	٩٤٧٠٩٠
١٨٣٣	٢٥٢٥٢٧٥	١٩١٩٠٧٠
١٨٤٢	٢٩٢٦٦٢٥	٢١٧٦٨٦٠

الفصل السادس

٤ - الحرب فى سوريا والأناضول

١٨٣١ - ١٨٤١

بعد أن خرج محمد على من حرب اليونان دون أن يحصل على شىء وكانت خسائره كبيره وأراد أن يعوض ذلك فتطلع إلى ضم سوريا إلى مصر وخاصة إنه كان يعتبر سوريا الامتداد الطبيعى لتأمين مصر من ناحية الدولة العثمانية حتى يضمن بقاء مصر مستقلة وبخاصة إنه كان فى شدة الحاجة لتجنيد شعبها بالإضافة إلى شعب مصر حيث كان بعد نجاح حملته فى الحجاز وفى السودان يتطلع إلى إنشاء دولة عربية قوية مستقلة كما أنه كان فى شدة الحاجة إلى موارد سوريا التى تفتقر إليها مصر من الأخشاب لأجل الوقود وبناء السفن الحربية والتجارية ومن أجل الفحم والنحاس والحديد للتوسع الصناعى فى إنشائه للصناعات الكبرى .

وفى سنة ١٨٣١ كانت الظروف ملائمة بالنسبة لهذا الغزو بعد أن خرجت تركيا من الحرب اليونانية والحرب الروسية سنة ١٨٢٩ منهوكة القوى بالإضافة إلى كثرة الفتن والاضطرابات الداخلية فيها ، وكان فى الدولة العثمانية نزاع بعد إلغائها فرق الانكشارية العسكرية منذ سنة ١٨٢٦ والتى رغم كفاءتها القتالية كانت تفتقر إلى النظام والطاعه وتجنح دائما إلى الفوضى والنهب فى الوقت الذى كان فيه محمد على قد أعد إنشاء أسطول وجيش نظامى قوى وكانت القاعدة الصناعية التى أقامها فى مصر قد استقرت واتسعت بحيث أصبحت قادرة على مساندة ضرورات القتال الطويل ، واعتقادا من محمد على بأن المجتمع السورى سوف يستقبل زحفه بالجنود المصرية بالترحيب وعدم المقاومة وبخاصة أن العلاقات بين محمد على وبين الأمير بشير الشهابى كبير أمراء لبنان كانت وثيقة منذ سنة ١٨٢٢ حيث سبق لمحمد على أن تشفع له لدى السلطان التركى بعد عزله من إمارة الجبل كما كان محمد على قد استمال الشيخ حسين عبد الهادى من زعماء نابلس وكذلك مصطفى أغا برير بعد أن عينهما إبراهيم باشا أثناء الزحف حكاما على مناطقهم وأصبحوا أعوانا له وفى الوقت الذى كان يتبرم فيه شعب سوريا من سوء الإدارة التركية واستبدادها ، ومع ذلك فقد تذرَّع محمد على بحاجته إلى إعادة الفلاحين المصريين الذين

هاجروا إلى سوريا بأعداد كبيرة بلغت ستة آلاف شخص بحثا عن مستوى معيشة أرفع . وطلب محمد على من عبد الله باشا والى صيدا إعاده المصريين ورفض بحجة أن الرعايا المصريين ما هم إلا رعايا عثمانيين ولهم الحق فى الإقامة . غضب محمد على وتظاهر بأنه يقوم بهذه الحملة ليشن الحرب على حاكم شبه مستقل ويرفض إعادة رعايا محمد على المصريين وإنه لا يوجه أى حرب إلى الدولة العثمانية نفسها وبخاصة أن الحكومة التركية كان سبق وعزلته من ولايته سنة ١٨٢٢ وعفت عنه بشفاعة من محمد على .

الحملة

كانت الحملة مؤلفة من ٦ الايات مشاه وأربعة من الفرسان وعددهم ٣٠٠٠٠ مقاتل بقيادة إبراهيم باشا ومجهزين بأربعين مدفعا ميدانيا وعدد من مدافع الحصار الثقيلة والجيش وتم حشد الجيش المتجه برا بالخانكة وتجمع الجيش المتجه بحرا فى الاسكندرية وعدته ١٦ سفينة حربية و ١٧ سفينة نقل وكانت هذه القوة بقيادة الاميرال عثمان نور الدين بك من خريجى البعثة المصرية بفرنسا وأصله من جزيرة مدللى ونبغ فى الفنون الحربية والبحرية وكان ناظرا للمدرسة الحربية ثم أميرالا للأسطول المصرى . وفى يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٣١ تحرك الجيش المصرى من الخانكة مارا ببلبيس والعريش واستراح بها ثم وصل إلى الحدود السورية فاحتل خان يونس ثم احتل غزه بعد أن فرت منها الجنود العثمانية ثم تقدم إلى يافا التى اخلتها الحامية التركية . ثم التقت القوة المحمولة بحرا من الاسكندرية وعلى رأسهم الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) والأمير عباس حلمى باشا (عباس الأول) ووصلت القوه إلى يافا ثم إلى حيفا والتقت هناك بالقوات التى وصلت بالبر وأنزلت اسلحتها ومدافعها وذخائرها بالبر واتخذ إبراهيم باشا حيفا قاعدة عسكرية له وشرع فى مهاجمة عكا القلعة الحصينة منذ أول نوفمبر سنة ١٨٣١

حصار عكا نوفمبر ١٨٣١

كانت قوات قلعة عكا تحت قيادة أحمد باشا الجزار وكان قد شرع فى تقويتها وتحصينها وكانت قواته مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل وحاصر الجيش المصرى القلعة منذ ٢٦ نوفمبر وحاصرتها أبضا السفن الحربية المصرية من اتجاه البحر واشتركت المدافع من البر

والبحر فى ضرب القلعة وجاوبت مدافع القلعة الضرب وأحدثت بعض الخسائر فى السفن المصرية واستعصت عكا إلى حد ما على الجيش المصرى واستمرت تقاوم ثلاثة أشهر ولم تسقط وقام فى اثنائها إبراهيم باشا بمهاجمة الدفاعات التركية فى ولاية صيدا وما حولها واحتلت قوة مصرية بقيادة حسن بك المناسترلى مدن صور وصيدا وبيروت وطرابلس ومدينة القدس وسلمت جميعها دون قتال .

موقف تركيا

فوجئت تركيا بزحف الجيش المصرى على سوريا وهى إحدى ولاياتها فبادرت بإرسال مندوبها إلى محمد على باشا يطالبه بالكف عن الزحف ولتأكد محمد على من عدم قدرة تركيا على صد الزحف أخذ يماطل فى الرد متظاهرا بالولاء للدولة العثمانية وأمر ابنه إبراهيم باشا على مواصلة الزحف وتشديد الحصار على عكا حتى يتم فتحها قبل أن يتمكن الجيش التركى من الوصول للنجدة . وقام سلطان تركيا بحشد نحو ألف مقاتل بقيادة عثمان باشا اللبيب والى طرابلس وكلفه برفع الحصار عن عكا وزحف بجيشه بعد أن جمع معهم مجموعة من الاكراد والعرب وواجه إبراهيم باشا هذا التحرك التركى بتشديد الحصار حول عكا وتحرك بالجزء الباقى من جيش مصر ليقابل الجيش التركى فى الطريق قبل وصوله عكا وقام عثمان باشا لبيب بمهاجمة الحامية المصرية فى طرابلس وقام الجنود المصريون برد المهاجمين ، ولكن كادت كفة الجيش التركى أن ترجح ولكن إبراهيم باشا تمكن من الاقتراب من طرابلس فى الوقت المناسب مما جعل عثمان باشا يرتد عن طرابلس فى الوقت المناسب حتى قبل أن تصل قوات إبراهيم باشا إليها .

الاستيلاء على الزراعه ٢٤ ابريل ١٨٣٢

بعد استيلاء إبراهيم باشا على الزراعة تعقبت قواته الاتراك فى اتجاه حمص وفى طريقه إلى بعلبك ليزود بالمؤن والذخائر وصل إلى سهل الزراعة وتخيل عثمان باشا أن إبراهيم باشا يتقهقر لشعوره بضعف موقفه وتقدم عثمان باشا للمهاجمة وقام إبراهيم باشا بمعاونة سليمان باشا الفرنساوى ورتب الجيش المصرى على شكل صفوف متتابعة وخلفها نصب المدافع وانخدع الجيش التركى وبادر بمهاجمة صفوف الجبش المصرى المتراصة وتراجعت

هذه الصفوف المصرية فى الحال لتصبح خلف المدافع والتى بادرت بفتح نيرانها المكثفة على قوات الجيش العثمانى المندفع بدون روية وذلك عندما أصبحت صفوف الجيش التركى على مدى المرمى المؤثر لنيران مدافع المصريين فحصدت المهاجمين وأحدثت بمشاتهم وفرسانهم أفدح الخسائر وتفرقوا بعد رجوعهم للخلف وطاردهم المصريون حتى دفعوا بهم إلى نهر العاصى حيث غرق فيه الكثير منهم وانهزم جيش عثمان باشا شر هزيمة وارتدت فلوله إلى مدينة حماه انتظارا لمدد يصلهم من السلطان وعاد إبراهيم باشا بعد هذه المعركة الظافرة إلى بعلبك لاستئناف الزحف ولكن قائد قلعة عكا عبد الله باشا الجزار تخيل قلة وضعف القوات المصرية المحاصره أثناء انشغال إبراهيم باشا بالقتال مع قوات عثمان باشا فخرج عبد الله باشا من معاقل عكا وهاجم القوات المصرية المحاصرة لعكا واستولى على الكثير من مدافعهم ولم يهتز إبراهيم باشا عندما وصلته هذ الأخبار وصمم على الصمود .

فتح عكا ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢

بعد أن تأكد إبراهيم باشا من ضعف موقف القوات التركية بقيادة عثمان باشا اللبيب واستحالة وصول مدد له من تركيا قبل مدة طويلة بادر بتشديد الحصار على عكا برا وبحرا وقام بالهجوم الشامل يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ وبدأ بضرب حصون عكا بمدفعية الأسطول القوية من البحر إلى أن تمكن من فتح ثلاث ثغرات وقامت الجنود المصرية باقتحام الثغرات التى حدثت فى الأسوار وفى المراحل الأخيرة من الاقتحام تقدم إبراهيم باشا الصفوف وأشعل بذلك حماس جنوده ودار قتال عنيف بنفس عنف الاقتحام وتم اقتحام القلعة وكانت خسائر المصريين فادحة فبلغت ٤٥٠٠ (أربعة آلاف وخمسمائة) قتيل وخسائر الحامية التركية ١٤٠ قتيل فقط . وأبدى الجنود المصريون الصبر والجلد وكان لسقوط عكا ابتهاجا عظيما فى مصر وأقيمت الزينات لذلك وسبب سقوطها انزعاجا للدولة العثمانية وللدول الأوروبية الحاقدة على مصر . أما عبد الله باشا الجزار فقد أحسن إبراهيم باشا لقاءه وكذلك كرمه محمد على باشا ومنحه قصرا خصص له فى مصر .

عودة إلى التعمير والعمران والحرب تسير فى خطوط متوازيه

رغم ما كانت تتطلبه حرب الشام من مجهودات وامكانيات فقد كان محمد على قد

أعد لكل ظرف عدته فقد أسند لابنه القائد إبراهيم باشا منذ التحرك لفتح الشام فى أكتوبر سنة ١٨٣١ مسئولية الحرب وإدارة شئون البلاد التى يفتحها إداريا وعمرانيا بنفس أسلوب أبيه المنفذ فى مصر وقبع محمد على متربعا على حكم مصر وبعد أن أسس دولة متحضره غنية قادرة على اجتياز المصاعب ولم يتوانى محمد على وهو مسيطر على مصر ومقدراتها عن السير فى كل خطوات التقدم واستكمل مخططه فى هذا السبيل وبخاصة فى ميدان التعليم بعد أن تجاوب معه شعب مصر وحقق المعجزات سواء فى اتقان الحرب أو المجالات الانشائية والصناعية والزراعية والعمرانية وفى سنة ١٨٣٢ وقوات مصر فى الشام تحقق الانتصارات تلو الانتصارات أرسل محمد على البعثات .

البعثة الطبية الكبرى الرابعة سنة ١٨٣٢ وكان عدد أعضاؤها اثنى عشر دارسا وكانوا من خريجى مدرسة الطب المصرية بأبى زعبل وأوفدوا للمزيد من التخصص والدراسة وقد نبغ معظمهم وخلدوا أسماءهم بما قاموا به من جلائل الأعمال وكانوا هم نواة نشر العلوم الطبية فى مصر وخاصة فى مدرسة الطب ممارسة وترجمة وتأليفا وفى الاطلاع بالأعمال الصحية فى البلاد وقد اختارهم الدكتور كلوت بك ليتمموا علومهم فى باريس وكان منهم محمد على البقلى ، ومحمد الشافعى ومصطفى إلسبكى وعيسوى النمراوى ومحمد الشامى .

البعثة الخامسة سنة ١٨٤٤

وهى من أكبر البعثات التى أرسلت إلى فرنسا وأعظمها شأنا وكان فيها بعض أنجاله وأحفاده وقد قام القائد سليمان باشا الفرنساوى باختيار تلاميذها من نوابغ طلبة المدارس المصرية العالية وانتظم فى تشكيلها بعض المعلمين والموظفين .

وتخصص كثير من الدارسين فى الفنون الحربية وكان منهم أشهر قادة القوات المصرية كفاءة وعلما وجانب من دارسى هذه البعثة قاموا بدراسات متقدمة فى الطب والطبيعيات ومختلف العلوم الأخرى .

البعثة السادسة سنة ١٨٤٥

أرسلت إلى معاهد النمسا وكانت بغرض التخصص فى طب العيون وكان منهم حسن عوف باشا وإبراهيم دسوقى افندى .

وفى الكيمياء الصناعية

وكان منهم مصطفى المجدلى بك مدّرس بمدرسة قصر العينى .

البعثة السابعة سنة ١٨٤٧

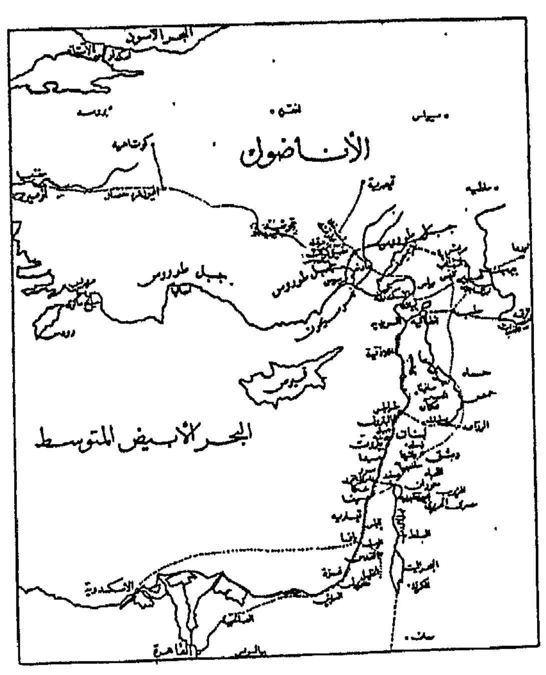
بعثة كانت مؤلفه من خمسة من طلبة الأزهر أرسلت إلى فرنسا لتعلم الحقوق والوكالة فى الدعاوى (المحاماه) .

البعثه الثامنة سنة ١٨٤٧

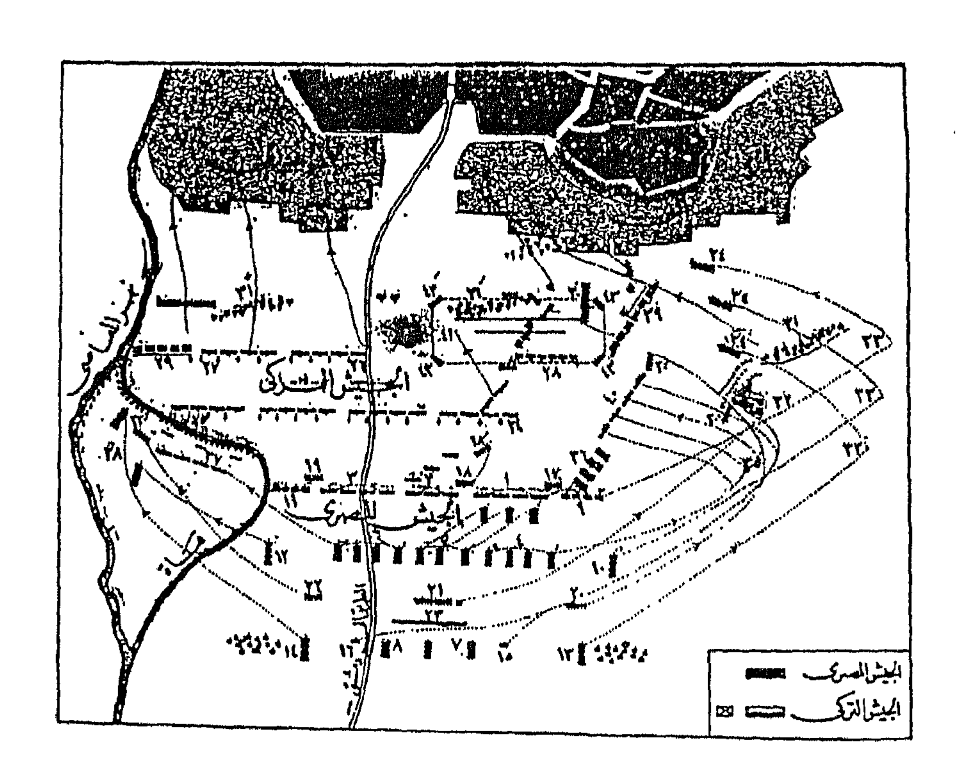
بعثة مؤلفة من واحد وعشرين نجارًا أرسلوا إلى انجلترا على ظهر السفينة الحربية (الشرقية) بصحبة محمد راغب بك ناظر الترسانة لاتقان فن بناء السفن الحربية وقاموا وهم بانجلترا بتصفيح السفينة الشرقية وتركيب آلاتها البخارية واتقنوا هناك التدريب على فن النجارة وتدربوا أيضا على استخدام البخار فى تسيير السفن .

البعثة التاسعة سنة ١٨٤٧

كان أعضاؤها ٢٥ دارسا اختيروا من طلبة مدرسة المهندسخانة المتقدمين وأرسلوا إلى انجلترا للتخصص فى الميكانيكا وبعضهم إلى فرنسا .



خريطة الحرب فى سورية والأناضول



خريطة واقعة حمص (٨ يولية سنة ١٨٣٢)

فتح دمشق ١٦ يونيو سنة ١٨٣٢

بعد أن استولى إبراهيم باشا على عكا أعاد تنظيم جيشه وتوجه يوم ٩ يونيو سنة ١٨٣٢ إلى دمشق بجيش من ١٨٠٠٠ مقاتل منهم ٩٠٠٠ من العربان المصريين والسوريين والدروز وكان الشعب فى الطريق يؤيد المصريين تبرما من حكم العثمانيين . وخرج أهالى دمشق لإبراهيم باشا مرحبين وأعلنوا الطاعة والتأييد عند مدخل المدينة يوم ٢٦ يونيو وقام إبراهيم باشا بوضع النظام الإدارى العادل للمدينة بعد تعيين أحد أعيانها أحمد باشا يوسف حاكما عليها وأنشأ ديوانا من عشرين من الأعيان كمجلس شورى يعاون الحاكم .

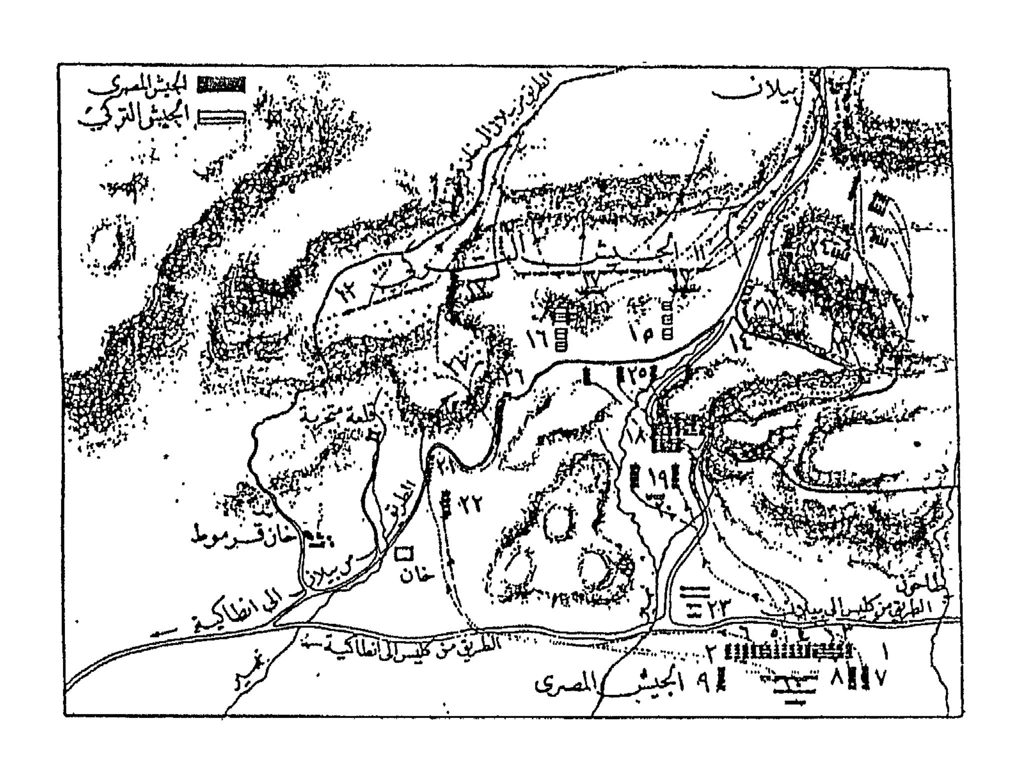
معركة حمص (٨ يونيو سنة ١٨٣٢)

بعد سقوط عكا ثم دمشق انزعج السلطان التركى وكان قد أعلن عصيان محمد على منذ حصار عكا وقام بتجهيز حمله من ٦٠٠٠٠ مقاتل وأعد أسطولا مكونا من ٢٥ قطعة وعهد بالقيادة العامة إلى حسين باشا قاهر الانكشارية المتمردة ووعده بولاية مصر وكريت ووصل جيش حسين باشا الرئيس إلى مشارف أنطاكيه فى أول يوليو سنة ١٨٣٢ .

وعسكر هناك وفى ذات الوقت قام والى حلب بقوات تركيه أخرى بالتوجه إلى حمص ولم ينضم إلى قوات حسين باشا وبذلك انقسمت قوات الجيش التركى إلى قسمين وكان من الاوفق انضمام القوتين لبعضهما ولما علم إبراهيم باشا بهذا الانقسام أسرع بقواته فى اتجاه حمص للاشتباك مع قوات والى حلب قبل أن ينضم إليه جيش حسين باشا المعسكر فى انطاكيه وقام إبراهيم باشا بتنظيم قواته بكفاءه عسكريه فائقه وجعل فى القلب قواته المشاه على ثلاث صفوف فى مواجهة قوات المشاه لقوات حلب والفرسان على الأجناب وركز مدفعيته كلها فى تجميع واحد بعكس القوات التركيه كانت مدفعيتها مقسمه ثلاثة أقسام كل قسم مع صف من صفوفه الثلاثة وقام إبراهيم باشا بحركة التفاف طويله على الجانب الأيسر لقوات الأتراك وأمكنها الوصول إلى القوات الاحتياطية غير النظاميه خلف الخطوط التركية ثم فتحت المدفعية المصرية نيرانها دفعة

واحدة على جميع الخطوط التركيه وفى نفس الوقت دفع بالفرسان المصريين ليهاجموا القوات الاحتياطيه التركيه ودفعها إلى الانسحاب غير المنظم متكبده خسائر كبيرة . كما قامت ميسرة الجيش المصرى بالزحف غربا مدعمه بنيران المدفعية المركزة واجتازت قناة تتفرع من نهر العاصى واحتلت الشاطىء الأيسر للقناة وسد الطريق أمام ميمنة الجيش التركى وسرعان ما تخلخلت صفوفه بعد أن فتكت بها المدفعية المصرية . واصل إبراهيم باشا واحتل المواقع التركيه بعد تقهقر الاتراك وانتهت بذلك معركة حمص بعد قتال دام أربعة ساعات وبلغت خسائر الجيش التركى ٢٠٠٠ قتيل و ٢٥٠٠ أسير وغنم الجيش المصرى ٢٠ مدفعا وكميه كبيره من الذخائر والمعدات . أما خسائر الجيش المصرى فكانت ١٠٢ قتيل و ١٦٢ جريح ودخل المصريون فى اليوم التالى مدينة حمص وأثبت الجندى المصرى كفاءته العسكريه وتفوقه على الجنود الاتراك لأول مره فى معركة بين الجانبين .

وبعد معركة حمص ارتدت القوات التركية التى كانت بقيادة والى حلب إلى حلب أما جيش حسين باشا فكان لا زال معسكرا فى انطاكية وكان من أسباب هزيمة الأتراك هو إنقسام الجيش إلى جزئين وعدم التجمع قبل القتال وكان ذلك مما مكن إبراهيم باشا من الانتصار فى حمص . وبعد هذه الهزيمة بارح جيش حسين باشا انطاكية متجها إلى حمص والتقى فى طريقه بفلول الجنود المنهزمين الاتراك وعرف منهم أنباء الهزيمة فأرتد الجميع إلى حلب واتخذوها قاعده حربيه لقتال الجيش المصرى . وامتنع الأهالى فى حلب عن تقديم المعونات للقوات التركية لأنهم كانوا كارهين الحكم التركى ولم يسمحوا للجنود الاتراك بدخول المدينة وسمحوا فقط للجنود الجرحى والمرضى بالدخول وفى هذه الأثناء كان إبراهيم باشا يتقدم بالجيش المصرى نحو حلب ولم يجد حسين باشا قائد الجيش التركى مكانا حصينا يلجأ إليه فانسحب إلى مضيق (بيلان) جنوبى الاسكندرونه على الحدود التركيه السوريه وقام حسين باشا بتحصين مواقعه وجعلها حصنا منيعا وساعدته طبيعه هذه المواقع المنيعة والمرتفعة .



خريطة واقعة بيلان (٣٠ يوليه سنة ١٨٣٢)

معركة بيلان ٣٠ يوليو ١٨٣٢

وصل إبراهيم باشا إلى حماه ثم حلب ولم يقابله فيها أى مقاومه فمكث فيها عدة أيام للراحه وحضرت إليه وفود من (اورفا) و (دياربكر) واعلنت الولاء لحكم محمد على واستأنف بذلك الزحف حتى وصل على مقربه من مواقع حسين باشا فى بيلان . ومدينة بيلان تقع جنوبى الاسكندرونه وشمال المضيق والجبال ويصل إليها طريقان عند سفح الجبل أحدهما من (كليس) وآخر من (انطاكيه) ويقترب الطريقان بحيث يفصل بينهما ثلاثة آلاف متر فقط ثم يلتقيان فى المضيق جنوبى بيلان لتتصل وتمر بالمدينة .

واتخذ الجيش التركى بقيادة حسين باشا مدافعه على قمم جبال بيلان واحتشد جيشه فوق هضبة حاكمه واتخذت قواته مواقعها عند خط متعرج واستندت ميمنة الجيش التركى متحكمه فى الطريق الوعر تخترق الجبل المشرف على (خان قرموط) متجها إلى بيلان والجانب الأيسر من القوات مستندا على الطريق الأوسط الواصل إلى بيلان وأما ميسره الجيش العثمانى فكانت تتخذ مواقعها على امتداد هذا الطريق مدعمه بجانب من المدافع المنصوبه فى غابة قريبة من الطريق ونصب الاتراك أمام صفوف المشاه مدافعهم ومن أمامها الفرسان وكان الجيش العثمانى قوته ٤٥٠٠٠ من الجنود النظاميين مزودين بعدد كبير من المدافع بلغ ١٦٠ مدفعا وكان يعتبر قوه لا يستهان بها ترابط فى مواقع مرتفعه ومنيعه وحاكمه على أى تقدم لجَيش آخر ولكن بشكل عام كانت الروح المعنويه للقوات التركيه منخفضه وأما معنويات المصريين فكانت تتحلى بروح معنويه عاليه بقيادة إبراهيم باشا للانتصارات المتواليه على الجيش التركى . وكان الجيش المصرى متخذا مواقعه شرقا وتمكنوا فى النهاية من الالتحام بالجيش التركى من الأمام ومن الأجناب واضطر الاتراك فى النهاية من الارتداد وبدأت هزيمتهم بعامل المفاجأة واستمر المصريون فى تعقبهم وواصل المصريون القتال مع ميمنة الجيش التركى حتى وصلوا إلى المرتفعات التى تطل على مدافع الاتراك وأمطروهم بوابل النيران وحلت الهزيمة بالاتراك وفى نفس الوقت قام المصريون

بالهجوم على فرسان الجيش التركى فارتدوا إلى بلده بيلان نفسها واحتل المصريون جميع المواقع الحصينه وانتهت بخسائر الاتراك ٢٥٠٠ قتيل وجريح و ٢٠٠٠ أسير وغنم المصريون ٢٥ مدفعا وكميه كبيره من الذخائر والمعدات . وبعد ذلك قام المصريون باحتلال مدينة بيلان نفسها بعد أن فر الاتراك إلى الاسكندرونة وكذلك بعد أن أقلعت منها السفن التركيه بعد علمهم بهزيمتهم فى بيلان .

احتلال الاسكندرونه

وتحرج موقف الجيش التركى الذى لجأ إلى الاسكندرونه بعد أن تركهم الاسطول التركى بالاقلاع منها وتعقبت جنود القوات المصريه فلول الجيش العثمانى بالمطارده وأسروا الكثيرين منهم ثم احتلوا الاسكندرونه نفسها . واستأنف المصريون بعد حلاوة النصر الزحف فى أعقاب الجيش العثمانى المتقهقر وتقدموا بحذاء الساحل واحتلوا (بيا) شمال الاسكندرونه وأسروا فيها ١٩٠٠ مقاتل تركى كما سلمت أيضا مدينة (انطاكيه) و (اللاذقية) و (السويدية) ، فكان ذلك يمثل نكبة ساحقة للحكومة التركية بعد أن اختفى القائد العام العثمانى حسين باشا تخلصا من الفضيحة والمسئولية الشاملة عن هذه الهزيمه وبذلك يكون الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا قد اثبت عبقرية القائد ومساعديه الذين تمكنوا من إدارة المعارك فى أرض لم يعش جنود مصر عليها ولم يألفوها من قبل مع الكفاءة المصرية فى الزحف على الأراضى الوعرة وتسلق الجبال وهم الذين تعودوا أن يتحركوا على أرض منبسطة فى وادى النيل والدلتا المصرية وقيام قواد الوحدات المصرية بالاستكشاف الدقيق ووضع الخطط الناجحة لاقتحام المعاقل الدفاعلية للأتراك فى هذه الجبال الوعرة والمسيطرة على طرق التقدم ، كما أثبت الجندى المصرى قدرته على التحمل واستيعاب فنون القتال والجرأة فى الاقتحام وملاقاة العدو داخل حصونه وهى إنما تدل على صحوه حقيقيه للجنديه المصريه وأفراد الشعب المصرى واظهار معدنه الأصيل وفى مواجهة المواقف الصعبة والتحمل والصبر والشجاعة .

زحف الجيش المصرى فى الاناضول [1] :

بعد معركة بيلان إجتاز الجيش المصرى حدود سوريه ووصل إلى ولاية (أدنه) فى الاناضول ثم عبر نهرى (جيجون) و (سيجون) كما تم احتلال (طرطوس) وحشد إبراهيم باشا معظم جيشه فى أدنه باعتبارها على طريق الزحف إلى الاناضول ولقربها من البحر وقام إبراهيم باشا بجانب من قواته باحتلال مدن (أورفا) و (عينتاب) و (مرعش) و (قيصريه) . وقام السلطان محمود العثمانى وأعد جيشا آخر بقيادة الصدر الأعظم محمد رشيد باشا وكان مؤلفا من ٣٥ ألف مقاتل وكان جيشه هذا خليط من عدة أجناس من ولايات السلطنة العثمانيه ، وهذا القائد محمد رشيد سبق له الاشتراك فى القتال على رأس القوه التركيه التى حاربت فى شبه جزيرة الموره اليونانيه منضما إلى قوات إبراهيم باشا المصريه فى مدينة (ميسولونجى) . وكان هذا الجيش مزودا بعدد من المدافع الكثيره ووحدات المشاه النظامية . وعندما علم إبراهيم باشا بزحف الجيش العثمانى لمحاربة الجيش المصرى بادر وتقدم واحتل مضيق (كولك) على جبال طوروس وكان إسراعه فى احتلال هذا المضيق حركة عسكريه بارعه لأنه كان مضيقا متحكما فى طريق أى تقدم تركى رغم أن جزء من الجيش العثمانى قد احتل وادى (منبع) أمام مضيق (كولك) وكان ذلك بالقرب من مدينة (شفت خان) ومع ذلك فقد قامت قوه من الجيش المصرى بمهاجمة الاتراك فى هذا الوادى وانتهت المعركة بانسحاب الاتراك من هناك بعد أن فقدوا ٢٠٠ قتيل و ٣٠٠ أسير وانسحب الاتراك إلى (أولو تشله) وهاجمهم المصريون أيضا وأجلوهم عنها ثم تلا ذلك جلاؤهم عن (هرقله) أو (أركلى) وتابع الجيش المصرى زحفه حتى وصل إلى (قونيه) واحتلها حيث كان الجيش التركى قد اخلاها هى الأخرى من غير قتال واتخذها إبراهيم باشا قاعدة عسكريه له أخذ يعيد فيها تدريب قواته على القتال فى هذه الأرض الجديده بعد أن تابع مع مساعديه العسكريين استكشاف الأراضى المحيطه بالموقع واختار موقعا لتدور فيه المعركة الحاسمه مع الجيش التركى الرئيسى فيها ، وكان جزء كبير من قوات إبراهيم باشا قد تم تدريبه بكفاءه عاليه لخوض هذه المعركة .

---

(١) رجاء الرجوع إلي خريطة ص ١٦٦

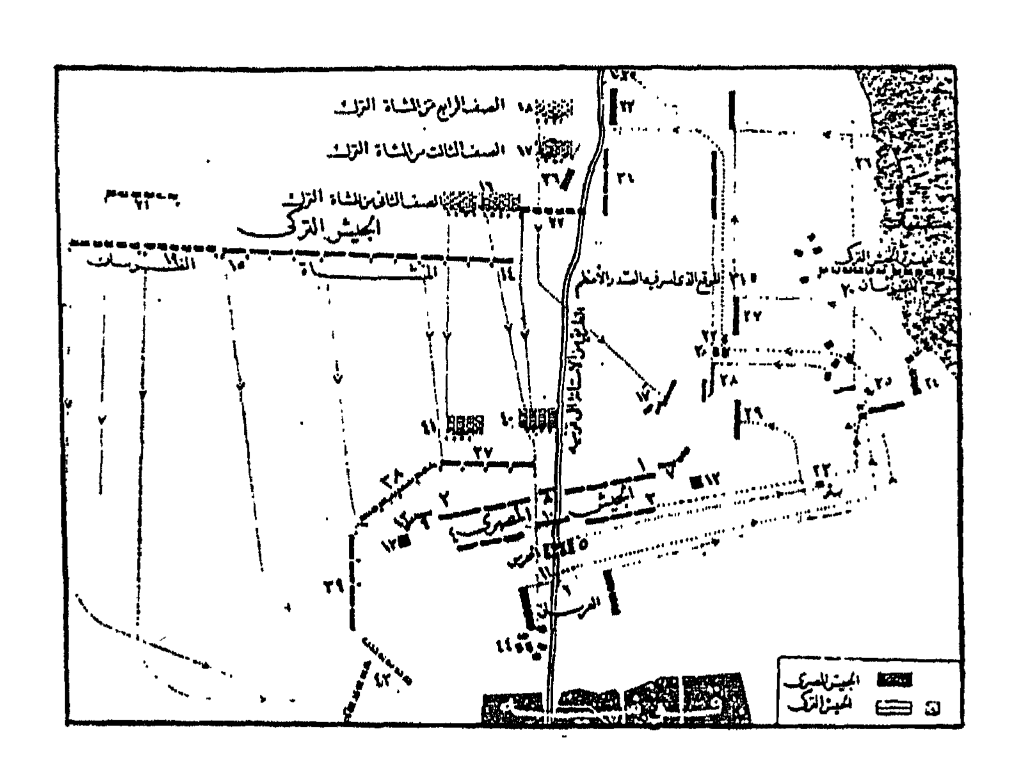
دور الأسطول المصرى أثناء معارك الاناضول

وقام الأسطول المصرى بدور كبير فى معاونة الجيش المصرى المحارب ، وكان عدد سفنه تسع بوارج تقل ٣٨١٠ من البحاره ومجموع تسليحها [1] بالمدافع ٤٨٤ مدفعا . وكانت هى الفرقاطه (كفر الشيخ) يقودها (برعمه لى أحمد قبودان) والفرقاطه (الجعفريه) ويقودها السيد على قبودان والفرقاطه (دمياط) ويقودها هدايت محمد قبودان والفرقاطه (مفتاح جهاد) ويقودها مصطفى قبودان الجزائرى والسفينه (مومبه) ويقودها بيجان قبودان والسفينه (زهير جهاد) ويقودها رشيد قبودان .

وكان للأسطول المصرى مهام حربيه فى مجال نقل الأفراد والمعدات والأسلحة والمدافع على ظهر البحر وقام بقتال الأسطول التركى عندما مر من (الدردنيل) بقيادة الأميرال خليل باشا رفعت وكان مكونا من ٣٥ قطعة حربية وذلك ليتعرض للأسطول المصرى ، وعندما علم محمد على بذلك أمر الأسطول المصرى بالخروج مهددا الأسطول العثمانى والسير إلى مياه رودس لينازل الأسطول العثمانى قبل أن يصل إلى الاسكندرية . وكان للأسطول المصرى الفضل فى تسهيل المواصلات البحرية بين مصر وسوريا وإمداد الجيش المقاتل بكل احتياجاته فى سوريا وفى الاناضول عوضا عن طريق البر المحفوف بالاخطار والمصاعب فكان لهذا الأسطول الحديث الفضل فى نجاح هذه الحملة .

---

(١) كتاب حقائق الأخبار عن دول البحار لإسماعيل سرهنك باشا جزء ص ٢٤٥ إلى ص ٢٤٨



خريطة واقعة قونيه (٢١ ديسمبر ١٨٣٢)

معركة قونيه ٢١ ديسمبر ١٨٣٢ [1]

وصلت مقدمة الجيش التركى بقيادة رؤوف باشا إلى شمال (قونيه) يوم ١٨ ديسمبر ١٨٣٢ وانقضى يومى ١٨ و ١٩ ديسمبر فى مناوشات بين الجيشين واستولى المصريون على بعض الاسرى والمدافع . وفى صباح يوم ٢٠ ديسمبر وصل القائد العام رشيد باشا على مشارف قونيه واحتل مواقعه . وفى يوم ٢١ ديسمبر كان الضباب يخيم على ميدان القتال ورابط الجيش المصرى شمال قونيه واحتلت ميمنته (شمال شرق) مستنقعات من المياه وكانت مدينة (سبله) على مسافة ميل من مواقعة وأمامه الجبال وعلى سفحها كان يرابط الجيش التركى . وكان الضباب يحجب كلا من الجيشين عن بعضهما وكان البرد قاسيا للغاية واصطف الجيشان فى مواجهة بعضهما يفصل بينهما حوالى ثلاثة الاف متر وكان إبراهيم باشا منذ وصوله مبكرا قد أمكنه دراسة واستكشاف الأرض المحيطه ودرب جنوده عليها وبمجرد أن انقشع الضباب أمكن لإبراهيم باشا أن يرى مواقع الجيش التركى وبناء على استكشافه وضع خطة الهجوم بأحكام واستبعد فى هذه الخطه إمكان مهاجمة الاتراك من ميمنتهم حيث كانت تحتل قمم الجبال فى مواقع حاكمه وحصينه وبدأت القوات التركيه بالتقدم بالمواجهة حتى اقتربت من الجيش المصرى على مسافة ستمائة متر وأخذت القوات التركيه تطلق مدافعها ولا يرد المصريون عليهم وراقب إبراهيم باشا توزيع القوات التركيه وحدد مواقع مدافعهم من التصنت إلى ضربها ولاحظ وجود ثغره كبيره على شكل ثغره ضعيفه بين قوة فرسان الاتراك ومشاتهم لمسافة ألف متر أمام ميمنة الجيش المصرى . وتولى إبراهيم باشا بنفسه قيادة الميمنه وأمر جنودها بالتحرك حتى اجتازت الفرسان وقوة الحرس البئر ٢٣ وواصلت تقدمها فى اتجاه ثغره الجيش التركى وهاجمت ميسرة الجيش التركى من خلال هذه الثغرة بشدة وساعدتها المدفعية المصرية وكان ضربها محكما وعلى أثر ذلك تقهقر الاتراك شمالا بغير نظام فى المستنقعات وأحاط بهم المصريون من كل جانب حتى سلم الاتراك سلاحهم وحاول الصدر الأعظم قائد الاتراك إنقاذ الموقف فنزل إلى جنود الميسره بنفسه ولكنه ضل الطريق ووقع فى أسر المصريين وبذلك تم انهزام نخبه الجيش التركى وانحطت معنويات باقى القوات التركيه على أثر أسر قائدهم وارتفعت معنويات

---

[1] انظر خريطة ص ١٦٦ ، ص ١٧٨

المصريين وتابعت قوات الميمنه المصريه تقدمها شمالا على أجناب القوات التركيه ومهدت للهجوم نيران المدفعيه وقضى على الصف الثالث والرابع من القوات التركيه فكانت هزيمة الاتراك هزيمة ساحقه . وفى هذه الاثناء قام الصف الأول والثانى التركى فى اليمين وأحاطوا بالقوات المصرية وعاونتهم الفرسان الاتراك فى هذه الحركة وكانت هجمه تركية عنيفه . وقابلت قوات الجيش المصرى هذه الهجمه بثبات ورباطة جأش وتحركت مدافع الاحتياطى المصرى وانضمت إلى ميسرة الجيش المصرى ومدافعها وأخذت تصوب بشده فى اتجاه الهجوم التركى وحصدت صفوفهم فى الوقت المناسب واستبسلت الميسرة المصرية فى الضرب والقتال واستمر الالتحام ثلاثة أرباع الساعه أسفرت فى النهاية عن كسر هجمه الاتراك وهزيمتهم وتشتيت شملهم فى الجبال وانتهت الموقعه بعد غروب الشمس بساعتين وكانت خسائر المصريين ٢٦٢ قتيل و ٥٣ جريحا أما الاتراك فقد تم أسر قائدهم وحوالى ٥٠٠٠ جندى بينهم كثير من الضباط وقتل من الاتراك ٣٠٠٠ قتيل وغنم المصريون ٤٦ مدفعاً وصارت معركة قونيا نصرا عظيما للجيش المصرى ودليلا ناصعا على الروح المصريه الجديده ودليلا على مدى كفاءه القيادة وحسن تدبيرها والمستوى العالى للمصريين عموما وفتحت هذه المعركه الطريق للجيش المصرى فى اتجاه (البوسفور) حيث كان الطريق إلى (الاستانه) خاليا من أى دفاعات أو قوات كافيه لصد أى هجوم . وفزع السلطان محمود ازاء ذلك وانزعجت أيضا الدول الأوروبية الكبرى من هذا النصر للمصريين ويرجع الفضل إلى الصحوه المصريه الجديده التى أخذت تهدد كيانهم هم الآخرين وعمل الجميع للتآمر على مصر وقوتها الصاعده .

التدخل الأجنبى [1]

كانت الدول الكبرى ذات المطامع فى الشرق سواء في تركيا أو فى ولاياتها تراقب بحذر تفاقم المسأله المصريه وبخاصه ظاهرة مصر ومحمد على وسعيه الدؤوب لإقامة دولة إسلاميه قوية مستقله قاربت من احتواء الدولة العثمانيه . وخشيت أن يتمكن محمد على من السيطره على مناطق نفوذ الدوله العثمانيه ونكون بديلا تنافس هذه الدول الكبرى فى

---

(١) عصر محمد على للاستاد الرافعى مى ص ٢٥١ إلى ص ٢٥٥

أطماعها فى الدولة العثمانية وما يتبعها من ولاياتها بعد أن تدهورت أحوالها العسكرية وأخذت الخطوات السريعة نحو الضعف حتى أصبحت قابله للالتهام ، وكانت مواقف الدول الأجنبية الكبرى هى :

(أولا) روسيا

نظرت بعين الخوف من تقدم الجيش المصرى واقترابه من العاصمه التركيه وخشيت إن استمر هذا التقدم أن يسفر عن استيلاء محمد على على عرش السلطنه العثمانيه ويمد نفوذ الدولة المصرية الفتيه إلى ضفاف البوسفور والدردنيل والبحر الأسود فيؤسس دولة قويه تقوم على انقاض السلطنه العثمانيه المتداعيه وهذا الانقلاب يحول دون تحقيق أطماع روسيا فى الوصول إلى المياه الدافئه وبواغيز البحر الأبيض المتوسط ، وبادرت روسيا للتدخل متظاهره بمعاونة تركيا وأوفدت الجنرال (موراڤيف) Mourawief إلى السلطان محمود وعرض عليه استعداد روسيا للدفاع بقواتها البرية والبحرية عن السلطنة العثمانيه ويهدف ذلك إلى بسط حمايتها الفعليه على تركيا .

(ثانيا) فرنسا وانجلترا

وقد هالهما أمر هذا التدخل الروسى حتى لا تتعرض سياستهما وأطماعهما فى هذه المنطقه للخطر ، واتقاء لهذا الخطر بادرتا ببذل جهودهما لوقف تقدم الجيش المصرى حتى لا تجد روسيا مسوغا لها بحجة حماية تركيا من الغزو المصرى ولم تقصد لا فرنسا ولا انجلترا من هذا التدخل مصلحة تركيا ولا مصلحة مصر بل تحقيق أغراضهما . واستغلت فرنسا علاقتها الوديه مع محمد على وشرعت فى إقناع محمد على بمزايا تسوية الخلاف بينه وبين السلطان وأوفدت إلى الاستانه الأميرال (روسان) Roussin ليسعى فى إنهاء الخلاف بين تركيا ومصر لمنع التدخل الروسى .

الزحف المصرى إلى كوتاهيه

بعد سقوط قونيه فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ استأنف إبراهيم باشا تقدمه واحتل (كوتاهيه) وأصبح على مسافة خمسين ميلا من العاصمة الاستانه ثم قامت قوة مصرية

أخرى باحتلال (مغنسيا) بالقرب من (أزمير) وتقدم بعد ذلك إلى أزمير ولم يلق أى مقاومه بها وقام بعزلها وعزل كذلك حاكمها طاهر بك والذى لم يكن الشعب هناك يحبه أو يؤيده وعين بدله أحد اعيانها منصور زاده فى فبراير سنة ١٨٣٣ وتدخل سفير فرنسا فى تركيا الاميرال روسان Roussin بالاتفاق مع السلطان وجعلا إبراهيم باشا يعيد الحاكم القديم الذى عزله إلى منصبه .

عودة إلى التدخل الأوروبى

وازاء ما شعرت به روسيا من التدخلات الفرنسية حضر الجنرال الروسى مورابيف إلى الاسكندرية وقابل محمد على باشا وعرض عليه الوساطه بينه وبين السلطان كما أرسل السلطان محمود بايعاز من السفاره الفرنسية بتركيا مندوبا عنه هو خليل باشا وقام بالتفاوض مع محمد على لحسم الخلاف وديا . وأرسل الأميرال الفرنسى روسانا إلي محمد على ينصحه بالتساهل مع الجانب التركى حقنا للدماء وأن يكتفى بفتوحاته بولايات صيدا وعكا وطرابلس والقدس ونابلى . ورفض محمد على هذه الشروط وأصر على ضم سوريا كلها وولاية أدنه التركيه إلى مصر لما اشتهر عنها بكثرة مناجمها وأخشابها وحيث أنها تقع على جبال طوروس ويسهل جعلها الفاصل بين تركيا ومصر . أما تركيا فقد تمادت فى خضوعها للعرض الروسى ووافقت بأن تحميها روسيا بقواتها البحرية والبريه وحضر أسطول روسى إلى مياه البوسفور ونزلت قوه من الجنود الروس إلى الشواطىء التركية الآسيوية بغرض التغلب على الجيش المصرى وتمسك محمد على بحقوق مصر وبعث برسائل إلى انجلترا وفرنسا فيها هذا المعنى رافضا بالانسحاب الكامل من الاناضول .

اتفاق كوتاهيه (ابريل ١٨٣٣)

أبدى محمد على موافقته على الانسحاب بشرط أن يكون أقليم أدنه ضمن ما يتخلى عنه السلطان لمحمد على وفى نفس الوقت استمر إبراهيم باشا فى تهديده لتركيا بالزحف على الاستانة إذا لم تجب مطالب والده وفى النهاية وافق السلطان وأوفد إلى إبراهيم باشا فى كوتاهيه مندوبه رشيد بك بصحبة البارون (دى فارين) سكرتير السفارة الفرنسية وتفاوضوا مع إبراهيم باشا وتم صياغة اتفاق اطلق عليه (اتفاقيه كوتاهيه) ويقضى « بأن

يتخلى السلطان لمحمد على عن سوريا وجزيرة كريت والحجاز وتضمن أيضا ضم (أقليم أدنه) إلى محمد على وذلك مقابل أن يجلو الجيش المصرى عن باقى بلاد الأناضول » .
وأرسل السلطان التركى إلي محمد على مكتوبا بمصر مع الصدر الأعظم وتعمد السلطان عدم ذكر أقليم (أدنه) طبقاً لما تم الاتفاق عليه مع إبراهيم باشا فى كوتاهيه . وبطبيعة الحال رفض محمد على هذا المكتوب الأخير الذى ثبت فيه تراجع السلطان عن اتفاقية كوتاهيه واستمر إبراهيم باشا فى زحفه واحتلال كل الأراضى التركية وأخيرا أسقط فى يد السلطان ووافق على التنازل عن أدنه واصدر فرمانا فى ٦ مايو سنة ١٨٣٣ أعلن فيه تثبيت محمد على باشا على حكم مصر وكريت واسند إليه ولاية سوريا وولاية الحجاز وتخويله إدارة أقليم أدنه . وصارت حدود مصر الشماليه تنتهى عند مضيق (كولك) بجبال طوروس وانتهت بذلك الحرب السوريه بتوسيع أرجاء الدوله المصريه حتى مضيق كولك .

المعاهدة مع روسيا (٨ يوليو ١٨٣٣)

بعد أن أصدر السلطان فرمانه بتوسيع تخوم الدولة المصرية ثم أظهر حقده على محمد على بعقده اتفاق سرى مع روسيا فى ٨ يوليو سنة ١٨٣٣ عرفت بمعاهدة (هنكار اسكله سى) التزمت بموجبها الدولتان أن تساعد كل منهما الأخرى إذا تعرضت لخطر خارجى أو داخلى وعهدت تركيا بأن تأذن للأسطول الروسى بالمرور عبر البوسفور إلى البحر الأبيض وسد الموانىء التركيه عن جميع السفن التابعه للدول الأخرى وبذلك سمحت لروسيا ببسط نفوذها فى الشئون التركية وبسط حمايتها الفعلية عليها . وكانت هذه المعاهده بمثابة نقض لاتفاق كوتاهيه مع محمد على إلى حد بعيد .

خطوات الإدارة المصرية فى سوريا

بعد صدور الفرمان السلطانى التنفيذى لاتفاقية كوتاهيه ٦ مايو سنة ١٨٣٣ تم انسحاب الجيش المصرى من الاناضول عدا إقليم أدنه صارت حدود مصر الشمالية تنتهى عند مضيق (كولك) وقام إبراهيم باشا فورا بتحصين مضايق جبال طوروس لصد أى هجوم تركى محتمل للزحف على الشام وقام أيضا بترميم حصون عكا وأسوارها فأقام القلاع وخطط الطرق الحربية وأنشأ الثكنات لتستقر فيها الحاميات المصريه فى أهم المدن

السوريه وبلغ عدد الجيش المصرى المرابط فى سوريا نحو سبعين ألف مقاتل ومعظمه رابط على الحدود الشمالية على الحدود التركيه وصدر قرار محمد على بتعيين إبراهيم باشا حاكما عاما للبلاد السوريه وقائدا للجيش المصرى [١] . وأخذ إبراهيم باشا فى تدبير الأمور سواء الإداريه أو السياسيه أو الحربيه واتخذ إبراهيم باشا مقره العام فى (انطاكيه) لموقعها الحربى الممتاز وقربها من الحدود الشمالية ومنذ دخول المصريين إلى الأراضى السوريه اعتنى إبراهيم باشا بإقرار الأمن والنظام وتأمين الطرق ومنع اعتداء البدو على ممتلكات الأهالى وأرواحهم . [٢] وجعل سليمان باشا الفرنساوى حاكما على صيدا وعكا وإسماعيل بك حاكما على حلب ومحمود سامى بك محافظا لبيروت ومنذ البدايه قد جعل حنا بك بحرى المسيحى والسورى الجنسيه مديرا لإدارة الشئون الماليه وكان أكفأ الموظفين وعلى جانب عظيم من حصافة الرأى وحسن السياسه ميالا للعدل والانصاف والنزاهه [٣] .

وعين إبراهيم باشا لكل بلد حاكما من الأهالى وشكل فى المدن الكبيره (التى سكانها أكثر من ٢٠ ألف نسمه) مجلسا يسمى ديوان الشورى من ١٢ إلى ٢١ عضو ينتخبون من بين اعيان البلاد وتنظر فى مصالح الناس والفصل فى الدعاوى . ووحد إبراهيم باشا سلطة الحكومه المركزية وعمل على الضرب على أيدى الاشقياء وقطاع الطرق . ونظم طرق جباية الضرائب والأموال وعامل الأهالى بالعدل والمساواه . ونشطت فى ظل هذا الحكم التجاره والزراعه وعمم إبراهيم باشا تربية دودة القز وصناعة الحرير وأكثر من غرس أشجار الزيتون وازدهرت زراعة العنب كما عمل على استخراج كثير من المعادن كالفحم الحجرى ونشطت التجارة مع أوروبا وكانت هذه السياسه العمرانية مجال تقدير من الشعب فكانت بالنسبة للفقراء أصلح من الحكم التركى . وعم العمران وكثر العلماء وأكرم الأدباء وقام بتشجيع سياحة الأجانب [٤] كما قام إبراهيم باشا بإعادة النظام الإدارى فى بيروت وشكل من سكانها مجالس استشاريه للبحث فى أعمال العمران والإدارة فكان هناك مجلس

---

(١) كتاب مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ص ١٠١ إلى ص ١٠٣ تأليف الدكتور مشاقه .

(٢) كتاب إبراهيم باشا فى سوريا لسليمان أبو عز الدين ص ١٣٩ و ٣١٥

(٣) كتاب خطط الشام ج ٣ للاستاذ محمد كرد على ص ٥٧

(٤) كتاب إبراهيم باشا فى سوريا للاستاذ سليمان أبو عز الدين أحمد ص ١٣٩ وص ٣١٥

شورى بيروت وديوان الصحه وآخر للتجاره [1] . وحقق حكم إبراهيم باشا فى سوريا ولبنان نهضة علمية وأدبية بعد أن أحسن اختيار المتنورين لإدارة البلاد وأنشأ الكثير من المدارس كما قام بايفاد البعثات للخارج أسوة بما اتبعه محمد على باشا فى مصر كما توطدت الصله بين الشام ومصر وحقق ذلك تقدما فى جميع المجالات .

تبرم [2] أعيان الشام من الحكم المصرى الرشيد

حيث أن الحكم المصرى قد حقق العمل لمصلحة الشعب عامة والفقراء بصفه خاصة والذين كان يستغلهم الحكام السابقون تحت الحكم التركى الظالم فقد تبرم الأمراء والمشايخ وأرباب النفوذ السابقين وتبرموا من زوال نفوذهم على يد الحكم المصرى وتمنوا رجوع العثمانيين ليعيشوا فى حمايتهم وليعودوا لاستغلال الشعب فقد كان الحاكم تحت الحكم التركى يأخذ لنفسه ضعف ما هو مطلوب توريده إلى الحكومة كالملتزمين في مصر الذى الغاهم محمد على للقضاء على الاستغلال . ورغم كل ما حققه الحكم المصرى من انتعاش وأمان فقد تسبب الحاقدون من الحكام السابقين فى إثاره الخواطر والتحريض على الثوره على الحكم المصرى وساعدهم مندوبى الدول الأوروبيه العظمى بالمساهمة [3] فى هذا التحريض ودبر العثمانيون ثورات فى كل مناطق الشام ضد الحكم المصرى .

اندلاع الثورة فى الشام :

فى أول مايو سنة ١٨٣٤ أصدر محمد على لابنه إبراهيم باشا أوامر لتنفيذها فى سوريا وهى :

١ - احتكار تجارة الحرير .

٢ - فرض ضريبة على الرؤوس من الرجال على اختلاف مذاهبهم .

٣ - تجنيد الأهالى .

---

(١) رحلة المارشال دى راهور ح ٣ ص ٢٨

(٢) خطط الشام للاستاذ كرد على بك جزء ٣ ص ٥٧

(٣) عصر محمد على للاستاذ الرافعى ص ٢٧٠

٤ - نزع السلاح من أيديهم .

وكان محمد على قد اعتاد على اصدار مثل هذه الأوامر على أهالى مصر ذوى الطبيعة الفلاحية المسالمة ما دام كان يشعر أن الأوامر بشكل أو بآخر تنفذ لصالح الشعب تحقيقا للرفاهية وتقوية المجتمع اقتصاديا وعسكريا ولكن طبيعة شعب سوريا الذى كان فى أغلبه يميل إلى ممارسة التجارة بالإضافة إلى تحوطه الدائم من اعتداءات الأعراب والخطافين فقد دأب على التمسك باحتفاظه دائما بالسلاح فى يده دفاعا عن النفس برغم أن حكم إبراهيم باشا كان قد حقق له الأمان وذلك بالضرب على أيدى الخارجين على القانون من خطافين ومجرمين وأعراب وكان الحكم التركى قد ترك هناك حالة من التواكل والاعتماد على الدولة العثمانية بالكامل فى الدفاع عن أرضه وممتلكاته ولم يألف الجندية الشاقة كما كان المسلمون فى الشام معفيين من أى ضرائب على الرؤوس وكانت تفرض فقط على غير المسلمين ولا شك أن هذه الأوامر جملة واحدة وفجأه ومغايره لما يقود عليه الشعب جعلت هناك تبرم لدى الشعب عامة وبخاصة أن الدسائس التركيه والانجليزية كانت تقف بالمرصاد لمصر ولجيش مصر فى الشام ونجحت هذه الدسائس فى التحضير للتخلص من الحكم المصرى بتجنيد القوة الحربية اللازمة وفى نفس الوقت أخذت تدبر وتخطط لاحداث حالة قلق وعدم استقرار للحكم المصرى بالشام فعملت جاهدة على تحريض العناصر العربية وغير العربية الحاقدة على الحكم المصرى وبخاصة الطبقة الحاكمة القديمة المستغلة والتى كانت تعاون وتشارك الحكم التركى فى نهب الشعب وظلمه فبعد أن أقصاهم محمد على وإبراهيم باشا من مراكزهم كانوا يحقدون على هذا الحكم رغم ما حققه من عدل ورخاء للشعب وليس لهم وبذلك كان من السهل على الدسائس التركية والانجليزية أن تقوم بعملها بسرعة بين صفوف الحاقدين من أمراء ومشايخ وحكام وتجار وحتى بين صفوف الشعب الرافض لأوامر محمد على الجديدة حيث أنها تفرض عليه أمورا لم يعتاد عليها من قبل .

وفاتت على محمد على باشا اختلاف طبيعة الشعب السورى عن طبيعة الشعب المصرى وإمكان إذعانه لمثل هذه الأوامر المستفزة لطبيعة الشعب السورى التجارية .

الثورة فى فلسطين

بمجرد صدور أوامر محمد على أذاعها إبراهيم باشا بين القبائل واحتج الأهالى وطلبوا رفعها وحاول إبراهيم باشا التفاهم معهم ولم يصل إلى نتيجة وظهرت بوادر الاضطرابات فى فلسطين وبدأت الثورة على شواطىء نهر الأردن بالقرب من بيت المقدس فى شهر أبريل سنة ١٨٣٤ وحجتهم فى ذلك بأنهم كانوا يؤدون الضرائب ولا داعى لفرض ضريبة أخرى على رؤوس المسلمين ويعارضون نزع السلاح الذى يدافعون به عن أنفسهم من غارات اللصوص كما يعارضون تجنيد شبابهم حيث سيدفعون ضريبة مضاعفه وساعد على اندلاع الثورة عندما ذاعت أنباء بأن تركيا تتأهب بجيش كبير لاسترجاع الشام من المصريين وتجمع البدو والمعادون للحكم المصرى ودعوا للعصيان فامتدت الثورة إلى نابلس وكان زعماء العصيان هم حاكم نابلس الشيخ قاسم الأحمد من رؤساء العشائر وله عصبية قوية بين بيت المقدس ويافا وقامت جماعة أخرى من بدو (أبو غوش) بمهاجمة الحاميات المصرية فى السهل بين يافا وبيت المقدس وانسحبت هذه الحاميه المصرية لقلة عددها ثم قام العصاة بمهاجمة حامية بيت المقدس وقتل منهم خمسون جنديا وتحصن القائد داخل القلعة انتظارا للمدد وأرسل إبراهيم باشا نجده من الفرسان تحت قيادة أميرالاى حسين بك ووقع قتال شديد وقام العصاه بنهب حوانيت المدينة وبيوت اليهود ثم هاجموا الخليل وقتلوا حاميتها وكان بها ٢٠٠ جندى مصرى .

وقام إبراهيم باشا على رأس جيش كبير من ستة آلاف جندى وسار إلى يافا فى شهر يونيه سنة ١٨٣٤ وزحف على معقل العصاه من جماعة (أبى غوش) فى قرية العنب فحاصرها ثلاثة أيام لمنعتها وأخيرا دخل القرية وانهزم العصاة واحتل المصريون الطرق المفضية إلى بيت المقدس وفر كثير من العصاة والأهالى الموالين لهم . وبادر إبراهيم باشا فى استمالة بعض القبائل فتفككت عراها وأحدث بينهم الفرقة وعمل سليمان باشا على إجراء صلح مع أولاد (أبو غوش) بعد أن وعدوا سليمان باشا بالولاء للحكومة المصرية وبعد إطلاق سراح أباهم الزعيم والذى كان سجينا فى عكا وبذلك صار تأمين الطريق بين يافا وبيت المقدس وبعد ذلك بادر الشيخ قاسم حاكم نابلس بإعلان طاعته وولائه لإبراهيم

باشا على شرط أن يعفى أتباعه من الجندية ولكن إبراهيم باشا بعد أن وعده بالنظر في ذلك رفض هذا الشرط . وكذلك وقعت اضطرابات في طرابلس واشتبك الأهالي مع الحامية المصرية بها فاضطرت في النهاية للانسحاب إلى الميناء وقام إبراهيم باشا بمعاقبة مثيري الفتن هناك وأعدم ثلاثة عشر منهم ثم توالت الفتن في (عكا) وصافيتا (والحصن) وأخمدتها القوات المصرية وبالتالي هاجت الخواطر في دمشق عند مطالبة السلطات المصرية بالتجنيد وفر كثير من الأهالي إلى البادية والجبال واضطر الحاكم شريف باشا إزاء عنف الاضطرابات إلى الكف عن التجنيد ولكنه قام بجمع الأسلحة من الأهالي كما وقعت أيضا اضطرابات في (حلب) وفي (انطاكيه) وبعلبك وبيروت .

حضور محمد علي باشا للشام

بعد أن استفحلت الثورة حضر محمد علي بنفسه إلى يافا مع عدد كبير من الجند وعهد محمد علي إلى الأمير بشير الشهابي حاكم جبل لبنان للقضاء على الفتنة وكان على ولاء تام للحكومة المصرية فزحف على صفد وحاصرها وسلمت من غير قتال وأعاد العصاة ما نهبوه من اليهود وبعد أن اطمأن محمد علي باشا إلى الموقف عاد إلى مصر .

ثورة النصيرية

في أكتوبر سنة ١٨٣٤ شبت الثورة في النصيرية شرق اللاذقية وهاجم الثوار اللاذقية وانتصر الجيش المصري على الثوار هناك وتم نزع السلاح من أيديهم وجند منهم إبراهيم باشا أربعة آلاف وكان اللبنانيون يعاونون الجيش المصري في مقاومة الثورات وبعد أن استتب الأمن صار نزع السلاح من الدروز بدءا من سنة ١٨٣٥ وهذه العملية أثارت الدروز وفر الكثير منهم إلى البادية .

ثورة الحوران سنة ١٨٣٧

تضامن دروز الحوران مع باقي الدروز وقاوموا عملية التجنيد ونزع السلاح فتمردوا وقامت ثور خطيرة في حوران في نوفمبر سنة ١٨٣٧ وعاني منها الحكم المصري في سوريا بعد ما أرسل إبراهيم باشا حملة لاخمادها من ٤٥٠ من الفرسان الهوارة استدرجتها الثوار

فى الجبال الوعرة ثم أطبقوا عليهم وانهزمت الحملة المصرية وقتل قائدها ومعظم رجالها . وقام إبراهيم باشا على رأس حملة خرجت من انطاكيا ولكن فى طريقه علم باحتمال تقدم الاتراك عند الحدود الشمالية فاضطر للبقاء فى حلب وطلب النجده من أبيه محمد على وأرسل له أحمد باشا المنكلى وزير الحربية على رأس حمله من ٦٠٠٠ مقاتل وزحف على حوران واستدرجه الثوار فى الجبال الوعره أيضا ونكلوا به وبالقوه المصرية وخسرت الحملة ٤٠٠٠ أربعة آلاف جندى بين قتيل وجريح وجرح قائدها وتصدعت هيبة الجيش المصرى بانتصار الدروز بقيادة (شبلى العريان) وقطعوا مواصلات الجيش وجهز إبراهيم باشا حملة أخرى من ٢٠٠٠٠ مقاتل ونشبت حرب طويلة انتهت باخماد ثورة الدروز فى أغسطس سنة ١٨٣٧ بعد أن استمرت تسعة أشهر تكبد فيها الجيش المصرى خسائر فادحة لم يكن هناك أى مبرر لها وكان من الحكمة تلافى هذه المواجهة باتباع الحكمة والمرونه .

اخطاء الحكومة المصرية

الحقيقة أن الحكومة المصرية متمثلة فى محمد على باشا وإبراهيم باشا جانبها الصواب أولا فى هذه الأوامر التى ظهر تبرم الشعب منها وتمادى القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا فى القتال مع الثوار كان خطأ جسيما وبخاصة بعد أن وصلت الحالة إلى مرحلة التفاوض والتشدد فى ضرورة التنفيذ وكان من الصواب التراجع فى هذه الأمور بمجرد ظهور معالم الرفض وخاصة أن محمد على باشا وإبراهيم باشا كانوا متأكدين من استعداد السلطان محمود بتحريض من الانجليز على شن هجوم على القوات المصرية لازاحتها من الشام وأن هذا الاستعداد كان قريبا من الحدود السورية .

وكان من الحكمة استمالة جانب القبائل والعشائر السورية والشعب السورى ليقف بجانب القوات المصرية فى ظروفها القادمه بدلا من أن يكونوا مثار متاعب وخسائر جسيمة للقوات المصرية كما أن ظهور شعب سوريا على مرأى من العالم بأنه ثائر ورافض للحكم المصرى فيه اضعاف لمكانة مصر الدولية واضعافا لمطالبة مصر باستقلالها وهو ما كان ينشده محمد على بالمقام الأول .

تركيا تحاول استرجاع سوريا (٢٤ يونية سنة ١٨٣٩)

منذ سنة ١٨٣٤ أخذت تركيا تعد العدة لاسترجاع سوريا واقليم (أدنه) فحشدت جيشا في (سيواسى) وعهدت بقيادته إلى [١] رشيد باشا وتمهيدا لهذا الهجوم أخذت تركيا تحرض بعض العناصر الشامية المواليه لها بالثورة على الحكومه المصرية فحدثت التمردات والثورات في فلسطين وجميع جهات الشام كما أسلفنا وشجع على اندلاع هذه الثورات أخطاء محمد على في إصدار القوانين الخاصة بالتجنيد ونزع السلاح وفرض الضرائب على أهالى الشام . وتوفى رشيد باشا سنة ١٨٣٦ وخلفه في قيادة الجيش التركى محمد حافظ باشا وقبل هذا الهجوم تظاهر الجانب التركى بالتفاوض مع مصر لأجل فض النزاع وأوفد السلطان محمود سنة ١٨٣٧ مندوبه (صارم افندى) إلى محمد على ولكن اخفقت هذه المفاوضات [٢] .

محمد على يعلن الاستقلال

وبعد أن اخفقت المفاوضات أعلن محمد على عزمه على الاستقلال في حضور وكلاء الدول في مصر في مايو سنة ١٨٣٨ بحجة أن استقلال مصر هو خير ضمان لاستئناف السلام في المنطقة واعترضت الدول الكبرى على هذا الاعلان وحذرت محمد على من عواقب هذا العمل وبدأ تحيزها لتركيا واظهرت تحاملها على مصر وشجعت السلطان محمود للتحرش بمصر وكانت انجلترا أيضا وراء فشل المفاوضات بين مصر وتركيا حيث كان (اللورد يونسو بنى) سفيرا لانجلترا في الاستانه وكان يكره محمد على ودائم على التآمر ضده لدى الباب العالى وكانت انجلترا بفضل هذا السفير توصلت في سنة ١٨٣٨ إلى عقد معاهدة مع تركيا وكان من شروطها الغاء الاحتكارات في جميع انحاء السلطنة العثمانية وبالتالى كانت هذه المعاهدة تسرى على مصر على أساس أنها كانت حتى هذا الحين جزء من السلطنة العثمانية وقد وافقت فرنسا على هذه المعاهدة في يوبيه سنة ١٨٣٨

---

(١) عصر محمد على للاستاذ الرافعى من ص ٢٧٠ إلى ص ٢٨٢

(٢) القائد التركى الذى اسره الجيس المصرى في واقعه قونيه .

رغم علاقاتها الطيبة مع محمد على وحيث أن الاحتكار كان من أهم سياسات محمد على الاقتصادية فى مصر وكان أيضا قد طبقها فى الشام وبالذات على احتكار زراعة التوت وتجارة الحرير وأصبح إعلان تركيا تحريمها للاحتكار يقصد به إثارة محمد على وعلم جيدا محمد على أن المقصود من هذا البند فى المعاهدة الانجليزية التركيه هو إحراجه وإثارة الخواطر فى مناطق نفوذه وبخاصة فى الشام .

مواجهة المخطط التركى للزحف

بمجرد أن شعر إبراهيم باشا بالاستعداد التركى ونواياه بالغ فى تحصين مضيق (كولك) وبين جبال طوروس لانه طريق الزحف المرتقب من ناحية الاناضول وأقام به القلاع وسلحها بالمدافع الضخمة والعديدة واتبع أحدث أساليب الهندسة فى التحصين وبلغ عدد مدافعه ١١٥ مدفعا وبلغت القوات المصرية فى ولاية أدنه عشرة الاف جندى ولما شعر الاتراك بهذه التحصينات المنيعة قرروا صرف النظر عن محاولة إجتياز هذه المضايق واستبدل ذلك فى خطتهم بالزحف من جهات (اورفا) وديار بكر حيث لا تفصلها عن الشام أى جبال وعره وبعد أن علم إبراهيم باشا بخطة الاتراك حشد معظم قواته حول مدينة حلب انتظاراً لتقدم القوات التركيه عن هذا الطريق ورابطت طلائع القوات المصرية فى (عينتاب - كليستى) القريبة من الحدود التركيه .

تحركات الجيش التركى

قامت قوة تركية تحت قيادة إسماعيل باشا بإجتياز نهر الفرات عند (بيرجك) يوم ٢١ ابريل سنة ١٨٣٩ وأخذ إبراهيم باشا يحشد قواته فى حلب وأرسل طلائع من الفرسان لأجل الاستكشاف انتظاراً للمدد من والده محمد على من مصر واحتشدت طلائع الجيش التركى فى قرية (نصيبين) [١] وهى بلدة فى الأراضى العثمانية وعلى مسيرة ساعات من الحدود التركية السورية .

وأخذ القائد العام التركى حافظ باشا يستعد من هناك للزحف واحتلت طلائعه القرى

---

(١) تقع على الطريق الواصل بين بيرحك والاسكندرونه .

حول مدينة (عينتاب) واجتاز جزء من قواته نهر (الساجور) [1] من منطقة على الحدود التركية السورية وتخطت بذلك هذه القوة التركية الحدود المرسومة حسب اتفاقية (كوتاهيه) واحتلت قرية (تل باشر) السورية بعد أن قتلوا وأسروا عدداً من رجال حاميتها المصرية وبادر إبراهيم باشا بالتوجه إلى (تل باشر) ولكن الأتراك قاموا بإخلاء مواقعهم بها قبل أن يصل إليها إبراهيم باشا فى ٣ يونيه سنة ١٨٣٩ واحتل الترك مدينة (عينتاب) بعد أن أخلتها الحامية المصرية ووصلت أوامر محمد على لابنه إبراهيم بضروره سحق الجيش التركى لأنهم لم يراعوا العهود وأخذ إبراهيم باشا يعد العدة لمهاجمة الجيش التركى المحتشد فى (نصيبين) وكان الجيش التركى فى (نصيبين) يتألف من ٣٨ ألف مقاتل ويحتل مواقع حصينه وكان يستعين بعدد كبير من الضباط الألمان على رأسهم القائد الألمانى الشهير البارون (فون مولتيك) [2] أما الجيش المصرى فكان يتكون من أربعين ألف مقاتل وكان متفوق على الجيش التركى فى النظام وكفاءة قيادته وجنوده وحسن تدريبهم ويتكون من جنس واحد بعكس الجيش التركى الذى كان يتكون من خليط من الجنسيات المختلفة من الأكراد ومن مختلف الجنسيات وعندما بلغ محمد على تقدم الجيش التركى نحو الحدود حشد محمد على باشا قوة من الجنود ومعهم الأسلحة والذخائر تحت قيادة أحمد بك المنكلى وزير الحربية .

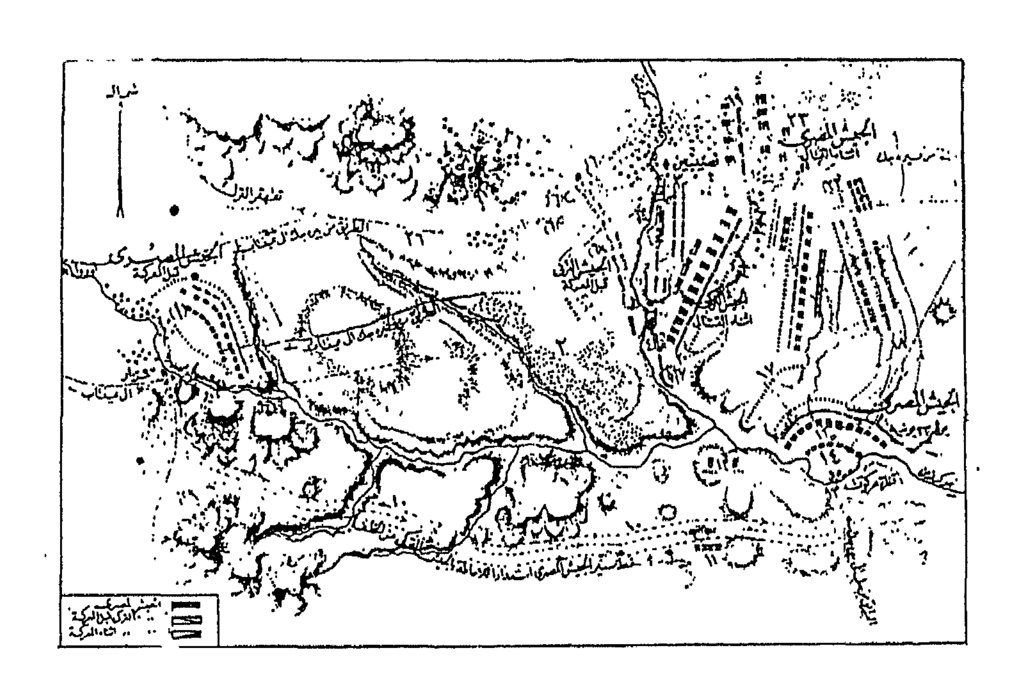
تدخل الدول الكبرى

لما علم وكلاء الدول بتأهب تحرك المدد المصرى تحت قيادة وزير الحربية المنكلى باشا تدخل القنصل العام الفرنسى لدى محمد على لوقف سفر وزير الحربية حتى لا تستعر نار الحرب مرة ثانية بين تركيا ومصر ولما شعر محمد على باشا بأن هذا التدخل ما هو إلا مؤامرة لتعطيل وصول المدد إلا بعد الهجوم التركى أمر محمد على من فوره بتحرك المدد المصرى ليصل إلى حلب فى الوقت المناسب قبل بدء الهجوم التركى .

---

(١) نهر ينبع بالقرب من عينتاب ويمر بها ويصب فى الفرات

(٢) القائد الألمانى فى الحرب السبعينيه والذى حقق النصر على الفرنسيين



خريطة واقعة نصيبين (٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩) وفيها البيانات

معركة نصيبين ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩

اتخذ إبراهيم باشا خطة المبادأه بالهجوم وحشد كل قواته على ضفاف نهر الساجور الذى يفصل بين الحدود المصرية والتركية وتحرك يوم ٢٠ يونيه سنة ١٨٣٩ واتخذ قرية (مزار) [١] قاعدة له .

فى يوم ٢١ يونيه قام إبراهيم باشا باستكشاف مواقع الاتراك بصحبة سليمان باشا الفرنساوى وأمكنه تحديد نقطة الضعف فى تحصينات الاتراك واشتبك اثناء الاستكشاف مع قوه تركية وتبين لإبراهيم باشا أنه يستحيل على الجيش المصرى الاستيلاء على مواقع الجيش التركى إذا ما قام بالهجوم بالمواجهة وقرر اتخاذ خطة الالتفاف حول مواقع الأتراك لمهاجمتهم من الخلف .

وبدأ يوم ٢٢ يونيه ينسحب من مواقعه الأولى استعدادا لحركة الالتفاف أما الجيش التركى فإنه رغم نصيحة البارون الألمانى (فون مولتيك) لحافظ باشا القائد التركى بأن يقوم الجيش التركى بالمبادرة بمهاجمة حركة الالتفاف المصرية فلم يأخذ بهذه الخطة حافظ باشا تمسكا منه بموقعه الحصين وعدم زعزعة استحكاماته وبالطبع كان هذا الرأى خطأ وكان فى مصلحة الخطة المصرية الجريئة ، وسار إبراهيم باشا فى اتجاه الشرق محاذ بالنهر (مزار) ثم نهر (كرزين) ثم انعطف شمالا حتى بلغ الطريق الموصل من (حلب) إلى (بيرة چك) والمفضى إلى مواقع العدو فى (نصيبين) وبلغ قنطرة (هركون) وقام من هناك الجيش بعبور نهر (كرزون) ليلا ولم تتصدى القوات التركية القريبة من الموقع لعملية العبور المصرية حيث كانت فى غفلة من ذلك وهذا خطأ جسيم أيضا وأصبحت أوضاع القوات التركيه فى مأزق بعد أن اجتازتها القوات المصرية مما دعاها إلى تغيير اتجاهها لتواجه القوات المصرية بعد أن وصلت إلى مواقعها الجديدة خلف القوات التركيه وانقضى يوم ٢٣ يونيه والجيشان يتأهبان للقتال .

---

(١) قرية حوب (نصيبين) بعرب على مسافة قريبة من الجيش التركى

سير المعركة

فى ليلة ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ هاجم القائد التركى حافظ باشا القوات المصرية أثناء الليل أملا فى المفاجأة ولكن القوات المصرية كانت متيقظة لمثل هذه المفاجأه وقامت فورا بفتح نيران مدفعيتها المركزة على صفوف الأتراك وفتكت بهم واستمر هذا الاشتباك حتى الصباح وكانت نتيجة ذلك تخلخل فى صفوف الاتراك وتبين لإبراهيم باشا فى الصباح أن الجانب الأيسر للجيش التركى هو نقطة الضعف حيث كان يرتكز على غابة من أشجار الزيتون تركها الاتراك دون أى دفاعات وقرر فى الحال القيام بالهجوم الرئيسى للقوات المصرية من هذا الجناح وغامر إبراهيم باشا وحرك جزء كبير من قواته أمام جناح القوات التركية الأيمن والقلب واخطأت القوات التركية للمرة الثالثة بعدم التعرض لهذا التحرك الجرىء بحجة الاحتفاظ بالقوة الضاربة التركية لآخر لحظة فى الهجوم المصرى لتكون مركزة قاضية وكانت خطة هذا التحرك بجانب دقة تحرك جيش مصر على جانب الجيش التركى الأيسر من البراعة وحسن الترتيب بحيث حسمت موضوع التغلب على الجيش التركى وكان إبراهيم باشا قد سبق واحتل الغابة المتحكمة فى جناح الجيش التركى الأيسر وذلك بقوات سليمان باشا الفرنساوى الذى قام بتجهيزها بقوة النيران الهجومية المركزه من المدفعية والفرسان وأثناء احتلال و نسيق الدفاع فى هذه الأكمة حاول الجيش التركى استعادتها وقام بالاشتباك مع القوات المصرية لكن بعد فوات الأوان حيث كانت هذه الحركة البارعة هى مفتاح النصر فى معركة (نصيبين) وصدت نيران الموقع المصرى الحصين الموجودة فى الغابة الهجوم التركى ومع استمرار نيران المدفعية المصرية فى الضرب على الجانب الأيسر للجيش التركى ، بادر إبراهيم باشا بالهجوم وتمكن الاتراك فى البداية من صد هذا الهجوم واستمر القتال وضرب النار المتبادل حوالى ساعة ونصف من الزمان إلى أن نفذت ذخيرة المدفعية المصرية فتوقف ضربها مدة تمكن فيها الاتراك من إعادة تنظيم صفوفهم وتفوقت نيرانهم بعض الشىء ولكن القوات المصرية صمدت بفضل هجوم قوات الفرسان المصرية التى أحدثت بها كثيرا من الخسائر إلى أن وصلت ذخائر المدفعية المصرية ووجهت نيرانها على الترك واشترك معها الفرسان والمشاة إلى أن تزلزلت صفوف الجيش التركى أمام نيران وهجمات المصريين وتقهقرت قواتهم وبخاصة من صفوف الاكراد فشدد إبراهيم باشا الهجوم

على الميسرة ولم يقو الاتراك على صد هذا الهجوم ولجأوا إلى الفرار تاركين أسلحتهم وذخائرهم واحتل الجيش المصرى مواقعهم وغنم جميع مدافعهم وخيامهم وكل ما فيها من عتاد وحتى خيمة القائد حافظ باشا المزخرفة وأوراقه وأوسمته وكانت معركة نصيبين نصراً عظيما للجيش المصرى لفتت انظار العالم وبخاصة الغرب المتربص لمصر ولتقدم مصر الذى أصبح خطرا على النفوذ الغربى فى المنطقة وبخاصة فى الأراضى التى كانت خاضعة للحكم العثمانى المنهار والتى كانت مطمعا فى متناول يد الأمبراطورية البريطانية بالمقام الأول وبلغت خسائر الاتراك فى معركة نصيبين نحو أربعة الاف قتيل وجريح ومنهم بعض القواد والضباط وآسر منهم من ١٢ - ١٥ ألف اسير وغنم المصريون حول عشرين ألف بندقية ، ٧٤ مدفعا وخزانة الجيش التركى وبها حوالى ٦ ملايين فرنك أما الجيش المصرى فبلغت خسائره ٤٠٠٠ قتيل وجريح وقضت هذه الواقعه على قوة تركيا الحربية فكانت خاتمة الهزائم التى حاقت بجيوشها مع الجيش المصرى ثم استمر إبراهيم باشا فى تقدمه واحتل (بيرجك) ثم (عنتاب) و (مرعش) و (اروفه) .

وفاة السلطان محمود

وفى أول يوليه سنة ١٨٣٩ توفى السلطان محمود وخلفه السلطان عبد المجيد وكان سنه سبعة عشر عاما وعاصر اهتزاز السلطنة . وعهد السلطان الجديد عبد المجيد إلى فوزى باشا قائد الاسطول التركى أن يعود من عرض البحر إلى الأستانة فى الوقت الذى عين فيه خسرو باشا صدرا أعظم وكان بينه وبين فوزى عداء قديم واعتبر فوزى باشا استدعاؤه للأستانة مؤامرة من خسرو باشا وتولته الوساوس .

تسليم الاسطول التركى لمصر

انتهز نائب قائد الأسطول التركى عثمان باشا حالة الوسوسة لفوزى باشا واشار عليه أن يلتجىء إلى محمد على باشا خصم خسرو باشا القديم ويسلمه الأسطول التركى بأكمله فينال منه التقدير وحسن الجزاء وتجاوب فوزى باشا لهذه المشورة الوضيعه ومن رود أرسل وكيله إلى محمد على يقدم له هذا العرض وابتهج محمد على لذلك وأوفد له رسولا على السفينة البخارية النيل يبلغه ترحيبه بما أقدم عليه ودخل الأسطول التركى ميناء

الاسكندرية فى مظاهرة مع جانب من الأسطول المصرى بقيادة مصطفى مطوش باشا وكان عددها نحو خمسين سفينة فى منظر مهيب وكان الأسطول التركي المستسلم على جانب كبير من القوة عبارة عن تسع بوارج كبيرة (غلايين) واحدى عشر فرقاطه وخمس كورفيت وعلى ظهورها ١٦١٠٧ من الملاحين وقوة كبيرة من الجند .

تركيا تعرض الصلح

وبعد هذه المصائب جنح السلطان عبد المجيد للسلم وبعث برسوله (عاكف افندى) إلى مصر وعرض على محمد على محاولة عقد هدنة تمهيدا لاجراء الصلح بما يرضى الطرفين وعرض السلطان عبد المجيد موافقته على تخويل محمد على حكم مصر بالوراثة وإقرار سلطانه على سوريا وجزيرة العرب وكان محمد على شبه موافق على هذا الصلح بشرط ابعاد الأطراف الأجنبية .

تدخل الدول الكبرى

فى ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩ قامت الدول الكبرى الخمس النمسا وروسيا وانجلترا وفرنسا وبروسيا بالتدخل لدى الباب العالى عندما شعروا بقرب اتفاقه مع محمد على وأرادت الدول الخمس الكبرى قطع خط الرجعه على احتمال نجاح مفاوضات الباب العالى مع محمد على عملا على زيادة الخلاف بين مصر وتركيا لتكون تركيا وتوابعها وليمة دسمة جاهزة للالتهام وفى نفس الوقت للتحرش بمحمد على وقواته الصاعدة والتى أصبحت خطرا على النفوذ الغربى بالمنطقة وقوة مناوئة لهذه الدول ولكل من هذه الدول وجهة نظره الخاصة فى الموضوع وأرسل سفراء الدول الخمس الكبرى فى الاستانة إلى الباب العالى تحذيرا على شكل تعليمات « بألا يقوم بابرام أى أمر فى المسألة المصرية إلا باطلاعهم واتفاقهم معه » معتمدين على أن حالة السلطنة العثمانية المنهارة تجعلها صاغرة للطاعة العمياء وبعد أن أصبح انتصار الجيش المصرى فى نصيبين وتسليم الأسطول التركى لمصر جعل مسألة التوازن الأوروبى فى خطر وأصبح للدول الأوروبية مواقف مختلفة لاختلاف أطماعها . فكانت روسيا تنتهز الفرص لبسط حمايتها على تركيا ورغم الخلاف بين فرنسا وانجلترا توددت فرنسا إلى الحكومة الانجليزية وتبنت وجهة نظرها بالكامل فى المسألة المصرية بما يخالف علاقاتها الودية مع مصر وبما يتفق مع أطماعها الاستعمارية .

اما النمسا : كان اشتراكها فى التدخل بغرض ألا يجعل لروسيا ذريعة للتدخل فى شئون تركيا وكانت النمسا ترى أن قيام محمد على ضد تركيا هو ثورة على الحاكم الأصلى وكانت النمسا برئيسها فى ذلك الوقت تعارض مثل هذه الثورات .

اما بروسيا : فلم يكن لها أطماع فى هذه الأزمة وكانت فقط ترمى إلى التمسك بالمحافظة على السلم اتقاءا لاندلاع أى حرب أوروبية وكان ملكها يكره فرنسا وعمل على مناهضتها فى المجال الدولى .

اما تركيا : فكان السلطان عبد المجيد الصغير السن حاكما لدولة ليس لها جيش أو اسطول وكان يتمنى أن تعم علاقات سلام وود مع مصر ولكن الدول الكبرى بأطماعها وبخاصة انجلترا عملت جاهده على عدم اتمام هذا الصلح .

اما فرنسا : فانها كانت تميل إلى قرار محمد على باشا فى مطالبه تثبيت حكمه على سوريا وجزيرة العرب بما أدت اليه نتائج معركة نصيبين ولكنها إزاء السياسة البريطانية التى اتقنت المساومة معها أصبحت مؤيده لبريطانيا وتمشيا مع اطماعها الاستعمارية .

اما انجلترا : فكانت أطماعها بدون حدود وجاهرت بعدائها لمصر وجاهدت باعلان وجهة نظرها بوجوب التظاهر بالمحافظة على كيان السلطنة العثمانية وهى فى حالة ضعف وبخاصة بدون جيش أو اسطول وبذلك يمكن إعادة سوريا إلى تركيا وارجاع محمد على بالقوة وإضعاف الدولة المصرية حيث أصبحت مزاحمة لها فى سيادتها فى البحرين الأبيض والأحمر بعد أن أصبح لها وجود فى عدن وأصبحت مصر خطرا يهدد مصالحها فى الطريق إلى الهند كما أن وجود سوريا فى يد مصر يهدد طريق الهند عبر طريق السيطرة المصرية على هذا الطريق من ناحية الفرات والعراق وكانت أيضا تهدف إلى اعادة مصر للأسطول التركى إلى الدولة العثمانية لأن اندماجه فى الأسطول المصرى يجعل لمصر قوة بحرية كبيرة تنافس انجلترا وبذلك كانت انجلترا تعمل جاهدة لابقاء مصر خاضعه للسلطة العثمانية المنهارة والتى من السهل على انجلترا فرض إرادتها عليها عن طريق الضغط على تركيا وكان وزير خارجيتها فى هذا العصر والمحرك الرئيسى لهذا المخطط هو اللورد بالمرستون الداهية وكان مستبدا ومشبعا بروح العداء لمصر فأخذ يبث افكاره بين الدول الأوروبية

لانحيازها لصفه وكان فى نفس الوقت يتولى السفارة الانجليزية فى الاستانه سياسى انجليزى آخر يحمل لمصر ولمحمد على كرها شديدا هو (اللورد نسوينى) .

الانجليز يدبرون الدسائس فى سوريا [1]

وأخذ الانجليز يثيرون الخواطر فى الشام ضد مصر وقام اللورد (بونسونسبى) سفير نجلترا فى الآستانه يدبر هذا التآمر بأن أرسل المستر (ريتشارد وود) ترجمان السفارة الانجليزية إلى لبنان وكان يتقن اللغة العربية ودارس بعمق الحياة الاجتماعية فى لبنان وقام باثارة اللبنانيين واستمال امراءهم ومشايخهم الناقمين على الحكومة المصرية [2] لايثارها الأمير بشير الشهابى حاكم الجليل عليهم وتخويلها السلطة له دونهم فقاموا بالثورة ضد الحكم المصرى واتسع نطاقها فعمت انحاء لبنان وكان مركز هذا الجاسوس هو جبل كسروان وأخذ الثوار يهاجمون المواقع المصرية وقتلوا بعض الحكام المصريين وجعلوا الأهالى يتوقفون عن دفع الضرائب والمؤن للجيش وبادر إبراهيم باشا بقمع هذا العصيان وأحرق بعض القرى وقبض على رؤوس الفتنة وآمر بنفيهم إلى سنار بأقصى السودان وبقوا بها إلى أن انتهت الحرب وأعيدوا إلى بلادهم . واستمرت الفتنة فى سوريا ولبنان وتسببت فى احراج مركز مصر هناك - وقامت انجلترا أيضا بإصدار أوامرها إلى (لكومودور نابييه) Napier للبحث عن الأسطول المصرى فى مياه مصر والشام لإجبار مصر على اعادة الأسطول التركى والعمل على تدمير الأسطول المصرى لتجريد مصر من القوة لتصبح مصر عاجزة عن إمداد قواتها الموجودة بالشام بطريق البحر ولتصبح قاصرة عن الإمداد عن طريق الصحراء المقفرة والمكلفة ولكن لم يتمكن (نابييه) من العثور على الأسطول المصرى .

الاستعداد المصرى لمواجهة الغدر

وتحوطا لأسوأ الظروف قام محمد على بالتأهب للمقاومة والدفاع وجعل الأسطول المصرى يرابط فى ميناء الاسكندرية وعدم الخروج إلى عرض البحر وبادر بتحصين الأراضى المصرية بحرا وبرا كما قام سليمان باشا الفرنساوى فى تحصين بيروت وغيرها من الثغور

---

(١) عصر محمد على للاستاد الرافعى من ص ٢٩٢ إلى ص ٢٩٤

(٢) كتاب « مشهد العيان » للدكتور مشاقه ص ١٢٦

السورية متوقعا لمجيء السفن الانجليزية ولما علمت فرنسا بتحركات الأسطول البريطانى بادرت بإرسال إحدى سفنها إلى بيروت لإبلاغ إبراهيم باشا الخبر ليحتاط للمؤامرة البريطانية فعادت السفن المصرية من فورها إلى الاسكندرية قبل أن يصل أسطول انجلترا .

معاهدة لندن (١٥ يوليو سنة ١٨٤٠)

وختاما للافتعالات والمؤامرات والتدخلات الخارجية قامت كل من انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا بإبرام اتفاقية بينهم فى لندن فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ ولم توقع عليها فرنسا وفوجئت الحكومة الفرنسية بخبرها فهاجت الخواطر فى فرنسا وتوترت العلاقات بينها وبين انجلترا وكذلك ابرمت المعاهدة بغير علم مصر وأخذت فرنسا تحرض محمد على باشا على نبذ قرارات الدول الموقعة عليها وكان للمعاهدة ملحق يتضمن الامتيازات التى تعهد السلطان بمنحها لمحمد على ويعتبر هذا الملحق جزءا من المعاهدة وخلاصتها :

أولاً : تخول لمحمد على وخلفاؤه حكم مصر الوراثى وتكون له مدة حياته حكم المنطقة الجنوبية من سوريا وهى ولاية عكا (فلسطين) بما فيها مدينة عكا وقلعتها بشرط أن يقبل ذلك فى مدة لا تتجاوز عشرة أيام من تاريخ تبليغه هذا القرار وأن يشفع قبوله باخلاء جنوده جزيرة كريت وبلاد العرب واقليم (ادنه) وسائر البلاد العثمانية وأن يعيد إلى تركيا أسطولها .

ثانياً : إذا لم يقبل هذا القرار فى مدة عشرة أيام يحرم من الحكم على ولاية عكا ، ويمهل عشرة أيام أخرى لقبول الحكم الوراثى لمصر وسحب جنوده من جميع البلاد العثمانية واعادة الأسطول العثمانى فإذا انقضت هذه المهلة دون قبول تلك الشروط كان السلطان فى حل من حرمانه من ولاية مصر .

ثالثاً : يدفع محمد على باشا جزية سنوية للباب العالى تتبع فى نسبتها البلاد التى تعهد إليه إدارتها .

رابعاً : تسرى المعاهدة التى ابرمتها السلطنة العثمانية وقوانينها الأساسية فى مصر ويتولى محمد على وخلفاؤه جباية الضرائب باسم السلطان على أن يؤدوا الجزية ويتولون الانفاق على الإدارة العسكرية والمدنية فى البلاد التى يحكمونها .

خامساً : تعد قوات مصر البرية والبحرية جزءا من قوات السلطنة العثمانية ومعدة لخدمتها .

سادساً : يتكفل الحلفاء فى حالة رفض محمد على باشا لتلك الشروط أن يلجأوا إلى وسائل القوة لتنفيذها وتتعهد انجلترا والنمسا فى خلال ذلك أن تتخذ باسم الحلفاء بناء على طلب السلطان كل الوسائل لقطع المواصلات بين مصر وسورية ومنع وصول المدد من إحداها للأخرى وتعضيد الرعايا العثمانيين الذين يريدون خلع طاعة الحكومة المصرية والرجوع إلى الحكم العثمانى وإمدادهم بكل ما لديهم من المساعدات .

سابعاً : إذا لم يذعن محمد على للشروط المتقدمة وجرد قواته البرية والبحرية على الآستانة فيتعهد الحلفاء بأن يتخذوا بناء على طلب السلطان كل الوسائل لحماية عرشه وجعل الأستانة والبواعيز بمأمن من كل أعتداء .

تحليل بنود المعاهدة

وإن هذه المعاهدة تقضى بجعل حكم مصر وراثيا فى أسرة محمد على أى باستقلال مصر الداخلى التام وتقضى بإرجاع مصر إلى حدودها الأصلية قبل حروبها الأخيرة وحرمانها من حكم جزيرة العرب وسورية وكريت واقليم أدنه وتخويل محمد على حكم سوريا الجنوبية مدة حياته وفى نفس الوقت توجت المعاهدة اغراضها بإتخاذ العنف والقوة لتنفيذ شروطها فى حالة رفض محمد على لها وتقضى أيضا بحماية عرش آل عثمان والدفاع عن السلطنة العثمانية وبواغيزها فى حالة مهاجمة قوات محمد على لها .

سير الأحداث بعد إبرام المعاهدة

١ - استمرت انجلترا فى اتباع الأسلوب التأمري فى تشجيع الثورات والتمرد فى بلاد الشام ولبنان ضد الحكم المصرى حتى تهز موقف مصر العسكرى .

٢ - أرسلت تركيا مندوبها (رفعت بك) إلى مصر ليبلغ محمد على شروط المعاهدة ووصل يوم ١١ أغسطس سنة ١٨٤٠ وقام بمقابلة محمد على فى ١٦ اغسطس سنة ١٨٤٠ .

٣ - فور وصول (رفعت بك) للإسكندرية اجتمع أولا مع وكلاء الدول المتحالفة وقام بمقابلة محمد على فى سراى رأس التين يوم ١٦ أغسطس سنة ١٨٤٠ وأبلغه بما أتفق عليه مع وكلاء الحلفاء بنبأ المعاهدة وطلب إليه العمل بها فغضب محمد على وأغلظ له فى الجواب لخضوع تركيا لإدارة الأجانب وأقسم له ألا يتنازل عن شبر أرض من أملاكه التى فتحتها الجيوش المصرية وأقرته عليها معاهدة كوتاهية التى أبرمها مع الحكومة العثمانية .

٤ - قام رفعت بك إزاء رفض محمد على بتبليغ وكلاء دول الحلفاء وطلب منهم تبليغ محمد على بأنفسهم شروط المعاهدة .

٥ - فى يوم ١٧ أغسطس قام قنصل انجلترا وقنصل روسيا وقنصل النمسا بمقابلة محمد على وأبلغوه شروط المعاهدة وعرضوا عليه أن تكون مصر له ولورثته من بعده وأن تكون له ولاية عكا (أى فلسطين) مدة حياته ، وأمهلوه عشرة أيام يتهيأ فيها للقبول ودونوا له مذكرة بذلك عليها توقيعاتهم ، وحذروه من عواقب الامتناع عن تنفيذ المعاهدة .

٦ - لما انقضى الموعد المحدد ذهب إليه رفعت بك مصحوبا بوكلاء الدول ليعرفوا ما استقر رأى محمد على عليه وتمسك محمد على بالرفض .

٧ - اعتزم رفعت بك مغادرة الاسكندرية متوجها إلى تركيا وطلب منه وكلاء الدول البقاء حتى يتموا الأجراءات التى تقضى بها المعاهدة .

٨ - فى اليوم التالى ذهبوا إلى محمد على وأبلغوه الانذار الثانى ورد عليهم محمد على غاضبا أنه سيزحف على الآستانة إذا تجددت الحرب ثم التفت إلى وكلاء الدول الأربع وقال لهم « أتعشم أن ترحلوا مع رفعت بك » أجابوه بأنه ليس لديهم تعليمات بمغادرة مراكزهم ورد عليهم بأنه فقد الثقة فيهم والأصول المرعية تقضى فى حالة الحرب أن يرحل وكلاء الاعداء عن البلاد وانصرف وكلاء الدول بعد أن أمهلوه العشرة أيام التالية المذكورة فى المعاهدة ليراجع رأيه وأبلغوه أنه لم يعد له حق ولاية عكا .

٩ - استدعى محمد على (رفعت بك) وعرض عليه العمل على انهاء الخلاف بينه وبين تركيا دون تدخل الدول الأجنبية على أن يتنازل عن ولاية ادنه وجزيرة كريت وشبه جزيرة العرب ويكتفى بحكم مصر الوراثي وحكم سورية مدة حياته وسلمه كتابا بذلك إلى السلطان كل ذلك ليتفادى ميعاد العشرة أيام التى تقضي بها المعاهدة وبذلك يفتح بابا جديدا للمفاوضة ويتخلص مما يأخذه عليه وكلاء الدول المتحالفة أنه يرفض العروض صراحة .

١٠ - وفى آخر المهلة حضر له رفعت بك ووكلاء الدول وطلبوا مقابلته فلم يقابلهم واستقبلهم باغوص بك وزير الخارجية وسامى بك سكرتير الباشا وابلغوهم بنبأ الخطاب الذى أرسله الباشا مع (رفعت بك) إلى السلطان وأن هذا الخطاب يعد قبولا للمعاهدة .

١١ - هدد الوكلاء باغوص بك وسامى بك بأن الحالة ستكون وخيمه إذا لم يقبل السلطان ما جاء بخطابه .

١٢ - غادر رفعت بك الاسكندرية متوجها إلى تركيا يحمل معه خطاب محمد على لتبليغه إلى السلطان .

١٣ - تشاور السلطان حول خطاب محمد على وعرضه السلطان على الصدر الأعظم وسفراء الدول المتحالفة بالآستانة واستقر رأيهم على خلع محمد على من ولاية مصر .

١٤ - أرسل السلطان فرمانا إلى محمد على وصله بالاسكندرية يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٤ أبلغ فيه محمد على بخلعه .

١٥ - فى اليوم التالى يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٤٠ غادر وكلاء الدول الأراضى المصرية وأصبحت مصر فى حالة حرب مع تركيا وحلفائها .

١٦ - أخذ محمد على يتأهب ويستعد للحرب وبادر إلى تقوية استحكامات الاسكندرية وعهد بذلك إلى لجنة مكونة من نجله سعيد بك ومسلم باشا والمسيو موجل والمسيو هوسار ومظهر أفندى كل ذلك يتوالى حدوثه واستمرت فرنسا تحرض محمد على باشا على الرفض وتوعده بالمساعدة .

الحرب بين مصر والدول المتحالفه [1]

تزعمت انجلترا مسئولية تنفيذ معاهدة لندن بحذافيرها ضمانا لمخططها فى إضعاف مصر التى أصبحت تشكل خطوره على نفوذ انجلترا فى المنطقة وفى البحار وتهديد مواصلات انجلترا للهند واعتبرت انجلترا رفض محمد على لشروط معاهدة لندن حتي آخر انذار منها وبعد صدور الفرمان بعزل محمد على فبادرت وأمرت أسطولها بضرب الثغور السورية والاشتراك مع الجنود الاتراك فى احتلالها وحضر الأسطول الانجليزى إلى بيروت فى خلال شهر سبتمبر سنة ١٨٤٠ بقيادة الأميرال ستونفورد ومعه الكومودن نابيه Napier وأخذ فى ضرب بيروت بالمدافع واشترك معه جانب من الأسطول النمسوى والأسطول التركى وفى ١٠ سبتمبر جاءت الحملة البرية مؤلفة من ١٥٠٠ جندى انجليزى ، ٥٥٠٠ من العثمانيين ونزلت كلها فى ميناء جونيه شمال بيروت تحت حماية الأسطول الانجليزى .

وكان إبراهيم باشا قد استعد للدفاع عن بيروت وعسكر فى ضواحيها وأرسل الأميرال الانجليزى انذارا إلى سليمان باشا باخلاء بيروت فورا وطلب سليمان باشا مهلة فلم يمهله وبدأ ضرب المدينة بالمدافع واستمر فى الضرب حتى اليوم التالى إلى أن تهدم كثر مبانيها ولم ينزل جنود الحلفاء بها خشية أن تظهر عليهم القوات المصرية حيث كان عدد الجيش المصرى يفوقهم بكثير كان نحو تسعين ألف جندى ولم يكن لدى الحلفاء إلا عشرة آلاف فقط وبقيت المدينة مدة فى يد الجيش المصرى ولكن كانت الثورة التى دبرها الانجليز قد حدثت وسببت متاعب للجيش المصرى لا قبل له بها وخاصة بعد أن وزع الانجليز على الثوار نحو ثلاثين ألف بندقية وأصبحت القوات المصرية بين نارين وأثر ذلك فى نفوس الجنود المصريين وتقطعت مواصلاتهم مع مختلف المدن واشتبكت فى نفس الوقت القوات المصرية المبعثره مع قوات الحلفاء والثوار فى بعض المواقع واستولى الحلفاء على (جبيل) شمال بيروت وعلى (البيترون) ثم احتلوا حيفا وصور وصيدا ثم سقطت بيروت فى أكتوبر سنة ١٨٤٠ فى معركة (بحر صاف) ثم جلا المصريون عن طرابلس واللاذقية وادنه من غير قتال وساءت الحالة وأصبحت معظم الثغور فى يد الحلفاء .

---

(١) عصر محمد على للأستاذ الرافعى من ص ٢٩٧ إلي ص ٣٠٤

سقوط عكا (نوفمبر سنة ١٨٤٠)

وحضرت السفن الحربية الانجليزية أمام عكا وفى ١ نوفمبر أخذت تضربها بالمدافع حتى يوم ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٠ وقاومت الحصون المصرية فى البداية ثم جاء مدد للسفن البريطانية وأصبح عدد السفن الانجليزية نحو عشرين سفينة حربية واستأنفت الضرب يوم ٣ نوفمبر بشدة فدكت القنابل الحصون والمدينة وأجابت الحصون ولسوء حظ الدفاعات المصرية أن أصيب اثناء الضرب مستودع الذخائر المصرى وتم نسفه وانفجر انفجارا مروعا وتسبب الانفجار فى هدم حوالى ثلث مبانى المدينة وقضى على حاميه مصرية بأكملها وفضل جنود الحاميه الباقين التسليم واخليت المدينة واحتلها الانجليز والاتراك فى صبيحة يوم ٤ نوفمبر سنة ١٨٤٠ .

وعلى أثر تسليم عكا سلمت يافا ونابلس واهتز مركز الجيش المصرى فى جميع مناطق سوريا وقام الحلفاء باحتلال الثغور وقطعوا المواصلات البحرية بالإضافة إلى هجمات الثوار الأهالى الذين استمر البريطانيون فى تحريضهم وحتى الأمير بشير حاكم لبنان والذى كان مواليا للحكومة المصرية سلم نفسه للحلفاء ولكنهم نفوه إلى مالطة .

تخلى فرنسا عن موقفها

وفى غضون هذه الهزائم المتواليه التى منى بها الجيش المصرى تغير فجأة موقف فرنسا وتراجعت عن تأييد محمد على وأخذ رئيس وزراء فرنسا يتراجع فى خطته التى كانت تؤيد محمد على الذى اعتمد على ذلك وأخذ يتمادى فى رفض جميع الشروط حتى وصل إلى أسوأها فأوفد برسوله إلى محمد على ينصحه فجأة بفتح باب المساومة مع الباب العالى فى مطالبه واستمع له محمد على وأيد الصلح على أساس تخويل محمد على حكم مصر الوراثى وحكم سوريا مدة حياته فقط ولكن الباب العالى رفض هذا الصلح وختم الجانب الفرنسى تراجعه باستدعاء الأسطول الفرنسى للعودة إلى فرنسا وجنت فرنسا بذلك على مصر بعد أن ورطتها فى رفض شروط معاهدة الصلح الأول والتى كانت تحقق أقصى ما يمكن أن تناله مصر .

وتخلت فرنسا عن مصر وتركتها وحدها فى مواجهة الدول المتآمره عليها فاضطرت مصر فى النهاية إلى قبول أسوأ الشروط مما عرض عليها وهكذا انسحبت فرنسا من الميدان ولو لم تحرض فرنسا محمد على على الرفض لكان قبل أحسن شروط المعاهدة منذ البداية .

الدور الانجليزى ينهى المؤامره

بعد أن تم للحلفاء احتلال الثغور السورية وقطعت المواصلات البحرية للقوات المصرية قام جانب من الأسطول الانجليزى تحت قيادة الكومودور (شارل نابييه) Napier إلى مياه الاسكندرية لتهديد محمد على وبعد أن تبين له مدى قوة دفاعات مصر ونظرا لقلة جنوده المحاربين على ظهر السفن حيث كانت لا تكفى للنزول على البر وفضل الكومودور نابييه Napier أن يجرب مع محمد على أسلوب المفاوضه فأوفد إليه رسولا يعرض عليه رغبة الرجل فى أن تكفل له ملك مصر الوراثى على أن يرد الأسطول التركى إلى الباب العالى وأن يسحب جنوده من سوريا ولما أصر محمد على باشا على الرفض هدده نابييه بإحراق المدينة ورد عليه محمد على بكل هدوء وثقه « هيا فأحرقوها » وانسحب تابييه وأعطى محمد على مهلة أربعة وعشرين ساعة ليقرر رأيه - ورأى محمد على من الحكمه أن يجنح إلى السلم وقبل التفاوض مع الكومودور (نابييه) وانتهت بعقد اتفاق وقعه بوغوص بك وزير خارجية مصر والكومادور نابييه Napier ويقضى هذا الاتفاق بأن يجلو الجيش المصرى عن سوريا ويرد محمد على الأسطول التركى إلى الباب العالى مقابل تخويله ملك مصر الوراثى بضمان الدول ورفض هذا الاتفاق الاميرال (استونفورد) قائد القوات البريطانيه وكذلك رفضه السلطان التركى وتشبث بضرورة عزل محمد على ولكن رئيس وزراء بريطانيا الداهية (بالمرستون) حسم الموقف فى النهاية وأعلن باسم حكومته الموافقة على هذا الاتفاق على أساس أن ابقاء محمد على باشا على رأس الولاية المصرية بشكل مستقل ولكن يرتبط إلى حد ما بإرادة الباب العالى فى تركيا من مصلحة انجلترا وهذا الباب العالى نفسه أصبح طفلا ضعيفا ومطيعا لكل ما تمليه عليه السياسة البريطانية وبذلك تضمن بريطانيا وقت اللزوم تمام السيطرة على الباب العالى وبالتالى على مصر .

وقام بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا ويسهوله بإقناع الدول المتحالفة بقبوله فارسلت انجلترا والنمسا وبروسيا وروسيا إلى الباب العالى مذكرة فى ٣٠ يناير سنة ١٨٤١ تطلب فيها الرجوع عن قرار العزل وتخويل محمد على حكم مصر الوراثى فإستجاب السلطان إلى هذه الطلبات – وبادر محمد على بأن أرسل إلى ابنه إبراهيم باشا بالجلاء عن سوريا والعودة إلى مصر تنفيذاً لهذا الاتفاق .

اخلاء سوريا

تنفيذا لاتفاق محمد على مع الكومادور (نابييه) Napier صار تجميع الجيش المصرى بالقرب من دمشق فى أواسط ديسمبر سنة ١٨٤٠ وعدده كان حوالى ٧٠٠٠٠ سبعين ألف مقاتل ومعه عدة ألاف من الموظفين من المدنيين وعائلاتهم المصاحبين للقوات وأتجهوا صوب (المزريب) شرقى بحيرة طبرية وتحمل المنسحبون كثيراً من المتاعب وتحملوا الكثير من ثقل المهمات والمدافع وبما أستُهدفوا له من مناوشات العرب ومات الكثير منهم فى الطرق ومن (المزريب) توزع المنسحبون إلى ثلاثة طوابير فى توجههم إلى مصر فكانت الفرقة الأولى مكونة من الخيالة والمشاة النظاميين وانسحبوا عن طريق غزه فالعريش وكانت تحت قيادة أحمد باشا المنكلى والطابور الثانى تحت قيادة سليمان باشا الفرنساوى ومكونا من المدفعية وسار بطريق الحج إلى (معان) ومنها إلى (العقبة) إلى (النخل) إلى (السويس) والطابور الثالث تحت قيادة إبراهيم باشا وانسحب إلى غزه ومنها بالبحر إلى مصر .

ولقيت الطوابير البرية الأهوال وفقدوا الكثير من الرجال بسبب الجوع والعطش والاعياء ومناوشات العربان ومات الكثير من الأفراد حوالى أكثر من ألف وخمسمائة فرد – ومات جانب كبير من الموظفين والنساء والأطفال الذين صحبوا طابور إبراهيم باشا وصار نقل طابور إبراهيم باشا من غزة يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٤١ بحراً إلى الاسكندرية وبلغ عدد [١] من عادوا إلى مصر نحو أربعين ألفا من سبعين ألف أى توفى أكثر من ٣٠٠٠٠ ويعد هذا من أفظع ما حدث من فجائع لتقهقر الجيوش فى التاريخ .

---

(١) كتاب تاريخ محمد على لمسيو موريبه حزء ٤ ص ٢٧٦ ، حزء ٣ ص ٦٦

اخلاء جزيرة العرب

بعد نهاية الحرب الوهابية سنة ١٨١٩ والتى بدأت عام ١٨١١ استمر حكم محمد على هناك حتى نهاية حروب الشام وحتى انسحابه منها عام ١٨٤١ توطيد مركزه فى ربوع الحجاز وفى شبه جزيرة العرب لما فى ذلك من إعلاء لهيبته فى العالم الاسلامى واسندت الدولة العثمانية الحجاز ولاية حرة لابنه إبراهيم باشا واتصل إمام مسقط بمحمد على وتوطدت العلاقات الودية والصداقه بينهما . وامتدت على طول هذا الزمن سلطنة مصر هناك حتى الخليج الفارسى ولكن السياسة البريطانية هالها هناك نفوذ مصر بعد انتصارها فى حروب الشام فأصبحت تسيطر على مصب دجله والفرات وعلى مياه الخليج الفارسى القريب من الهند وخشيت على سلطانها هناك أن يزعزعه امتداد نفوذ مصر كما خشيت نفوذ مصر فى بلاد اليمن فاحتلت انجلترا عدن واستمرت انجلترا لمدة طويلة فى مناوءة محمد على وهددت محمد على بإثارة تركيا عليه والدول الأوربية واضطر فى النهاية اتقاء لشر انجلترا أن سحب الحامية المصرية من البحرين واستمرت اليمن تعلن ولاؤها لمصر اتقاء لشر الانجليز بعد احتلالها لعدن وخرجت بريطانيا فى آخر مراحل حرب مصر والشام عن طريق الكومودور نابيه فى اتفاقه مع محمد على بالاسكندرية أن يشمل بنود الاتفاقية (انسحاب جيوش مصر من الجزيرة العربية بالكامل) وتضمن الفرمان السلطانى ذلك ونفذ محمد على الفرمان بالنسبة للانسحاب من الجزيرة العربية وبخاصة أن محمد على كان وقتها قد وجد أن بقاء الجيوش المصرية فى الجزيرة العربية يحمل الخزانة المصرية نفقات لا قبل لها بها فاستقر عزمه على استدعاء الجند المصريين من جزيرة العرب وتم اخلاؤها نهائيا سنة ١٨٤١ تنفيذا لمعاهدة لندن ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠

الحكومة التركيه تصفى حساباتها مع محمد على

كان الباب العالى فى قمة الابتهاج عندما قام بإصدار الفرمان العثمانى يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٤٠ بعزل محمد على بمشورة سفراء الدول المتحالفه ولكن سرعان ما قطع رئيس وزراء بريطانيا بالمرستون هذا الابتهاج بعد موافقته على تعديل هذا القرار بفرمان تخويل محمد على ملك مصر بالوراثه ضد رغبة الباب العالى .

وصدر بهذا أمرا سلطانيا يوم ٣٠ فبراير سنة ١٨٤١ بالرجوع عن قرار العزل وتخويل محمد على حكم مصر الوراثى طبقاً لاتفاقية لندن فى ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ .

وبعد أقل من أسبوعين تخيل السلطان العثمانى أنه صاحب الأمر والنهى الأوحد وتجاهل من يتحكمون فى سياسته وحتى سيادته وهم ساسة الدول المتحالفة الكبرى وعلى رأسهم بريطانيا وبادر باتخاذ اجراءات تصفية حسابه مع محمد على انتقاما منه وأصدر فرمانات ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ فيها انتقاص كامل من استقلال مصر .

فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١

١ - إذا خلا مركز السدة المصرية يختار السلطان من يشاء من أولاد محمد على الذكور أو أولادهم الذكور فإذا انقرض نسل الذكور كان للباب العالى أن يختار من يشاء للولاية دون أن يكون للأولاد الاناث حق فيها .

٢ - يلزم من يختار للولاية خلفا لمحمد على بالذهاب إلى الاستانه ليتلقى فرمان التقليد .

٣ - أن ولاة مصر بالرغم من حقهم الوراثى تكون مرتبتهم مماثله لمرتبة وزراء الدولة فى المخاطبات والمعاملات السلطانية .

٤ - المعاهدات التى أبرمها أو سيبرمها الباب العالى والقوانين الأساسية للدولة العثمانية تنفذ فى مصر .

٥ - تكون جباية الضرائب ودخل الحكومه باسم السلطان ويتبع فيها النظام المعمول به فى تركيا لكيلا يقع الضيم بأهالى مصر .

٦ - يرسل ربع ايرادات الحكومة المصرية الحاصل من دخل الجمارك والخراج والضرائب إلى خزانة الباب العالى وتخصيص الثلاثة أرباع الأخرى لشئون مصر من نفقات الجباية والإدارة العسكرية والمدنية وحاجات الحكومة والغلال التى ترسل سنويا إلى مكه والمدينة وطريقة آداء نصيب الباب العالى من إيراد الحكومة المصرية يعمل بها لمدة خمس سنوات ابتداء من أول عام (١٢٥٧ هـ) ٢٣ فبراير سنة ١٨٤١ ويجوز استئناف نظرها بالتعديل تبعا للظروف والأحوال فى مصر

(١) الكتاب الأخضر السودان من ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ إلى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ ص (ط) فقره (٣)

٧ - للتحقق من دخل الحكومة المصرية يلزم تعيين لجنة لمراقبة هذا الدخل تؤلف طبقاً للأوضاع التى يقرها السلطان .

٨ - يكون (السكة) النقود فى مصر باسم السلطان ولا تختلف النقود الذهبية والفضية التى تضرب فى مصر عن نقود الاستانه فى القيمة أو النوع أو العيار .

٩ - لا يزيد عدد الجيش المصرى زمن السلم عن ١٨٠٠٠ جندى وللباب العالى أن يرفعه إلى ما يشاء فى زمن الحرب ، ويتبع فى مصر نظام التجنيد المعمول به فى تركيا وهو يقضى بجعل مدة الخدمة خمس سنوات وعلى ذلك يكتفى من مقترعى الخدمة الموجودين الآن بعشرين يبقى منهم ١٨٠٠٠ فى مصر ويرسل ٢٠٠٠ إلى الآستانه ، ثم يسرح عدد الجيش (أربعة آلاف جندى) كل سنه بطريق القرعة ، ويقترع بدلا منهم أربعة الاف مستجدون يبقى من هؤلاء بالقطر المصرى ٣٦٠٠ ويرسل ٤٠٠ إلى الآستانه والذين يتمون خدمتهم العسكرية يعودون إلى بلادهم ولا يجوز اقتراعهم من بعد ذلك .

١٠ - لا يختلف شوار الجنود والضباط المصريين وملابسهم وأعلامهم وأوسمتهم عن مثلها فى الجيش التركى وكذلك ملابس البحاره والجنود والضباط فى الأسطول المصرى وأعلام السفن الحربية المصرية .

١١ - لوالى مصر حق منح الرتب العسكرية لضباط البر والبحر لغاية رتبة صاغ قول أغاسى أما الرتب العليا فيرسم بها السلطان .

١٢ - ليس لمصر أن تبنى سفنا حربية إلا باذن صريح من الباب العالى .

١٣ - لما كان امتياز حكم مصر الوراثى المخول لمحمد على واسرته مقرونا بالشروط السابقه فالأخلال بأى منها يؤدى إلى سقوط حقهم فى هذا الامتياز

وأصدر السلطان فرمانا آخر فى ذلك اليوم (١٣ فبراير) باسناد أقاليم السودان (النوبه ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها) إلى محمد على .

تعليق : بالتأمل فى هذه الشروط تبين مدى تجاوز هذه الشروط لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ فليس فى هذه المعاهدة أى قيود عملية تحد من استقلال مصر التام عدا الجزية السنوية ولكن هذا الفرمان كله قيود على محمد على كتحديد عدد الجيش وحذر بناء السفن الحربية إلا بأذن من الباب العالى وتقييد حق الحكومة المصرية منح الرتب العسكرية وحق مراقبة مالية مصر وكل هذه القيود فرضها السلطان دون أى سند من المعاهدة وبخاصة بتقويم الجزية السنوية بربع ايرادات الحكومه المصرية وكذلك حق اختيار السلطان من يشاء من أولاد محمدعلى وأحفاده لتولى حكم مصر وما دام وافق الباب العالى بموجب معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ أن حكم مصر وراثى من سلالة محمد على ليس معناه تحكم الباب العالى فى اختيار من يشاء منهم .

وقد أعترض محمد على لدى الدول الموقعة على المعاهدة على ما ورد بهذا الفرمان من الشروط المقيدة وطلب تعديله وقبلت الدول طلبه وطلبت من الباب العالى اجراء التعديلات ووافق السلطان صاغرا على اجراء التعديلات طبقاً للشروط المدونة فى ملحق معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ .

لائحة ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ بتعديل شروط فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ [١]

أولاً : وراثة العرش فى مصر بجعل حق الوراثة للأكبر سنا من سلالة محمد على الذكور .

ثانياً : تعدل الجزية وجعلها تبعا لتقدير والى مصر مع النظر لحالة الحكومة .

ثالثا : أن يكون لوالى مصر حق منح الرتب العسكرية إلى رتبة اميرالاى أما ما يعلوها من الرتب كدرجة امير لواء وفريق فجعل منحها بعد استئذان الباب العالى .

فرمان أول يونيه سنة ١٨٤١ :

وفى نفس العام أصدر الباب العالى فى أول يونيه سنة ١٨٤١ فرمانا جامعا يحتوى على أحكام فرمان ١٣ فبراير ، مع التعديلات وأصدر فرمانا آخر بتحديد الجزية السنوية بثمانين ألف كيس أى ٤٠٠٠٠٠ جنيه (اربعمائة ألف جنيه) .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١

ومن مراجعة كل هذه الفرمانات يظهر جليا أن الباب العالى كان يقصد الثأر من محمد على بعد أن حقق النصر وتسبب فى هزيمة السلطنة العثمانية وهز عرش الباب العالى وكان فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ بمثابة تصفية الحسابات بين السلطان وبين محمد على .

رغم ما حققه محمد على بعبقريته وبفضل الصحوة المصرية وبعد القاعدة العلمية والعمرانية والاصلاحية والإدارية التى وضع أساسها محمد على فى مصر واستجابت له قدرات هذا الشعب العظيم بما كان يهدد المصالح الاستعمارية ولذلك تضافرت هذه القوى الاستعمارية التآمر للعمل على تقليص دور مصر وكانت هذه بمثابة نكسة مؤقتة للصحوة المصرية انتهت باحتلال انجلترا لمصر والتى لم ولن تخبو ولذلك انتفض الشعب المصرى أثناء الثورة العرابية رغم هزيمة الجيش المصرى سنة ١٨٨٢ ثم تصاعدت هذه الصحوة سنة ١٩١٩ فى ثورتها المسماه بهذا الاسم واستمر الشعب المصرى فى كفاحه إلى أن تم التحرر الكامل واستأنف الشعب المصرى صحوته العمرانية فى النهاية .

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القدر

فلابد للفجر أن ينجلى
ولابد للقيد أن ينكسر

(١) نفس المصدر السابق ص ١



السيرة الذاتية

الاسم / محمد عبد الفتاح أبو الفضل

ولد بالقاهرة فى ٢٨ إبريل سنة ١٩٢١ - تخرج ضابطاً بالجيش المصرى عام ١٩٤٢ ثم درس القانون فى أعقاب تخرجه .

- شارك فى الدفاع عن مصر خلال الحرب العالمية الثانية واشترك فى حرب فلسطين وأصيب فى معركة نجبا وحصل على ترقية استثنائية من ملازم إلى يوزباش .
- اسهم فى العمليات والتنظيمات السرية للضباط الوطنيين منذ الأربعينات .
- انتقل للعمل فى جهاز المخابرات المصرية منذ بداية الثورة وترقى فى مناصبها إلى أن أصبح فى عام ١٩٦٦ نائبا لرئيس الجهاز .
- حصل على وسام النجمة العسكرية لاشتراكه فى مقاومة الاحتلال الإنجليزى فى القنال .
- قام بتنظيم المقاومة فى بور سعيد أثناء العدوان الثلاثى .
- قام بإدارة الصراع السرى ضد حلف بغداد والحلف المركزى والعمليات السرية ضد إسرائيل منذ منتصف سنة ١٩٥٧ .
- عمل أمينا عاما لأمانة الصحافة والنشر واشرف على شئون الأعضاء بالاتحاد الاشتراكى العربى .

من مؤلفاته :

١ - كنت نائبا لرئيس المخابرات العامة — دار الحرية للنشر .

٢ - تأملات فى ثورات مصر - مقاومة الحملة الفرنسية - الهيئة العامة للكتاب .

٣ - تأملات فى ثورات مصر - ثورة ١٩١٩ - الهيئة العامة للكتاب .

٤ - تأملات فى ثورات مصر - ٢٣ يوليو جزء أول - الهيئة العامة للكتاب .

٥ - تأملات فى ثورات مصر - ٢٣ يوليو جزء ثانى - الهيئة العامة للكتاب .

٦ - مصر والسودان بين الوئام والخصام - دار الحرية للنشر .

٧ - الاستعمار الجديد فى الدول النامية - المركز الأعلى للشئون الإسلامية .



الفهـــرس

« تابع » الفهـــرس

الموضــــوع	رقم الصفحة

« تابع » الفهـــرس

الموضـــــوع	رقم الصفحة
الفصل الخامس : مصر من سنة ١٨٢١ حتى سنة ١٨٢١	

« تابع » الفهـــرس

الموضـــــوع	رقم الصفحة

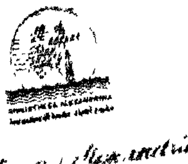
الفصل السادس : مصر من سنة ١٨٣١ حتى سنة ١٨٤٣

« تابع » الفهـــرس

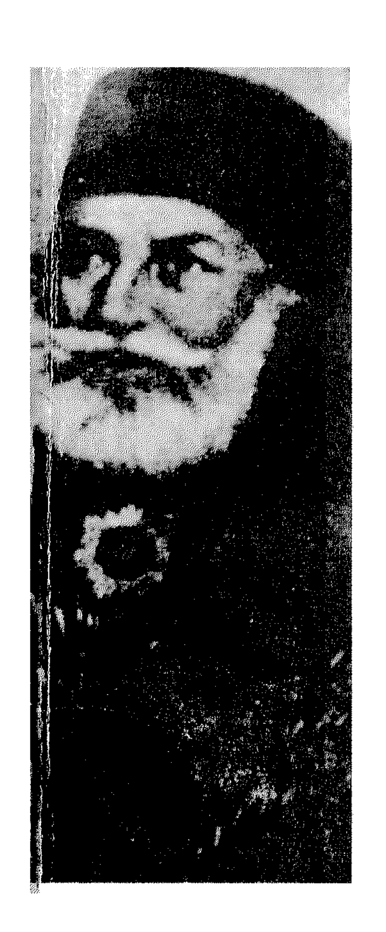
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٤٧١ / ١٩٩٨

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 235 - 997 - 9)







هذا الكتاب بحث موثق هدفه إثبات أنه بأمانة الحاكم وإخلاصه ولماحته إذا اجتمعت نفس الصفات وبنفس القدرة مع صفات المحكومين يمكنها أن تحقق ما يبدو أنه من المعجزات . ففى مدة ٣٤ عاما فقط (من عهد محمد على ١٨٠٥ حتى معركة نصيبين ١٨٣٩) أمكن لجميع عناصر الصحوة المصرية الكامنة التى كانت مبعثرة ومفككة وهى الطاقات والمواد والتعليم والتراث ، وتحقق بهذا الربط دوران آلة النهضة المصرية الضخمة وأصبحت مصر بذلك فى مصاف الدول العظمى وقادرة على حماية هذه المكاسب عسكريا وماليا .

